المكتبة الدينية للطريقة العلاوية بمستغانم

البحر المسجور

في تفسير القرآن بمحض النور

تأليف الأستاذ الشيخ
أحمد بن مصطفى العلاوي المستغاني

الطبعة الأولى

حقوق الطبع والنقل محفوظة
المطبعة العلاوية بمستغانم

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله وسلم على المصطفى وآله وصحبه أهل الوفا

مقدمة التفسير

نحمدك اللهم يامن ملأت قلوب اوليائك بمحبتك ومعرفتك، فأشهدتهم سر عظمتك، فتحملوا أعباء أمانتك، ثم أنطقت ألسنتهم بجواهر الحكم، وألهمتهم ينابع العلم، فهم في رياض معرفتك سابحون، ومن فيض ذاتك الأقدسية مستمدون.

ونصلي ونسلم ونثني على حضرة سيدنا ومولانا محمد رسول الله، منبع الهداية والعلوم، أخرج الناس من عماية الجهل والضلال، الى نور المعرفة والهداية والايمان، وعلى آله وأصحابه الأطهار، وصفوة أمته الأبرار.

أما بعد: الى القاريء المسلم الكريم، نقدم جوهرة فريدة في بابها، من جواهر الاستاذ العارف الاكبر، والقطب الاشهر، الشيخ: أحمد بن مصطفى العلاوي [1] رضوان الله عليه، وقدس سره.

تلك الجوهرة الثمينة التي نقدمها اليك، تنطوي على سر الحقيقة في القرآن كما تتجلى في قلوب أهل العرفان، ولا يتوصل اليها الا الراسخون في العلم من عباد الرحمن، الذين أمدهم بفيض من بحر القرآن، بعد تحققهم في مقام الاحسان أولئك الخواص المحمديون الموسومون في الاية الكريمة بقوله: (فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا، وعلمناه من لدنا علما.) [2]

ذلك العلم الذي أخذ منه الاستاذ قبسا لعلكم تصطلون بنوره، وغاص في بحر القرآن، ليفهم المسلم أسراره ويتدبر معانيه التي لا تنفد، وماءه الذي

(1) ان الشيخ احمد بن مصطفى العلاوي غني عن التعريف بما خلفه من اثار علمية وزوايا واتباع يعدون بالالاف، في المغرب العربي ومشرقه، وفي افريقيا واوربا وامريكا، وهو مؤسس الطريقة العلاوية قبيل الحرب العالمية الأولى، بعد وفاة شيخه العرف الصوفي سيدي محمد بن الحبيب البوزيدي المستغانمي، وقد قام الاستاذ بنهضة دينية واصلاح شامل لما علق بالدين من خرافات واوهام، وليس هذا محل تحليلها الى ان وافته المنية عام 1934.

(2) سورة الكهف اية 65

لا يغيض، على ما ورد في الأثر: (أن المتدبر فيه يرى من غرائبه كل يوم مالا يرى بالأمس.) (3)

ومما يؤيد ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم (ان للقرآن ظاهرا وباطنا؛ وحدا ومطلعا.) (4) وقد أبحر الأستاذ العلاوي في ظاهر القرآن وباطنه؛ وحد ومطلعه؛ فأخرج من مكنونه دررا ومن أعماقه ومطالعه جواهر؛ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ وسماه بـ [البحر المسجور في تفسير القرآن بمحض النور] متدرجا في تفسيره للآية على ما يقتضيه مفهوم اللفظ؛ وظاهر المعنى؛ ثم أتبع ذلك بما يستنبط من احكامها؛ ثم ما تعطيه الاشارة بلسان الخصوصية؛ ثم يختم بكلام اخص مما قبله تحت عنوان: [لسان الروح].

وهكذا يسير في تفسيره على هذا المنهج الفريد؛ والأسلوب العجيب؛ لادخل فيه لغيره من بقية المفسرين الاقدمين والمحدثين لكتاب الله العزيز؛ غير ان الاستاذ عاجلته المنية وتوقف القلم من مداد البحر المسجور؛ عند قوله تعالى: (ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير) (5)

ولعل القاريء يتساءل عن طبع هذا الجزء من التفسير؛ وهو غير كامل، فنجيب: بأن غرضنا من طبعه؛ هو تعريف القاريء المسلم الجزائري بتراثه الديني الروحي الذي خلفه عالم كبير؛ وصوفي شهير؛ وأحد أعلام الجزائر الذين ظهروا في القرن العشرين.

وصف المخطوطة: أن المخطوطة الوحيدة التي اعتمدناها في هذه الطبعة تحتوي على 148 صفحة مقياسها (13 × 25 سم) ومعدل السطور في كل صفحة 30 سطرا؛ أنتسخها سيدي عبد العزيز أعراب من المخطوطة الاصلية التي أملاها المؤلف الشيخ: أحمد بن مصطفى العلاوي بخط كاتبه الشيخ: صالح التمساني وكان الفراغ من نسخها سنة 1934 م.

---

(3) البحر المسجور ص 12 (4) البحر المسجور ص 10 (5) سورة البقرة اية 106

وتحمل المخطوطة الثانية تاريخ الفراغ من نسخها سنة 1958. وهي السنة التي أمر فيها الشيخ سيدي الحاج المهدي (6) رحمه الله بانتساخ المخطوط الاصلي الذي خرمته الأرضة فتآكلت بعض أوراقه. ووكل بهذه المهمة الي سيدي عبد العزيز أعراب. وكنت أشاركه النسخ وأملي عليه في بعض الأحيان.

وعذرنا في هذه الطبعة وجود أخطاء طفيفة وقعت سهوا من الاستاذ الخطاط أحمد المسالمة الذي بذل جهودا لاتقدر لاخراج النسخة أقرب ما تكون الى الكمـــال.

وقد أعدنا النظر لتصحيح الخطاء والصواب. وألحقناها في اخر الكتاب، حتى يتمكن القاريء من تصحيحها قبل قراءته وعسانا أن نستدرك ذلك في الطبعة الثانية إن شـــاء الله.

كما نعتذر الى القاريء الكريم عن عدم وجود ورق جيد في السوق المحلية. ونحن بعد هذا نقدم اعظم أمتنان، وأجل تقدير لسيدى رشيد محمد الهادي على ما بذله من مجهودات مضنية في جمع الكتاب وطبعه وإخراجه للقاريء على هذا الشكل الانيق. كما لاننسى جماعة من اتباع الطريقة العلاوية الصادقين الذين شاركوا في طبع الكتاب والله أسأل أن يجازي الجميع جزاء العاملين المخلصين، وينفع به القـــاريء المسلم إنـــه ولي التوفيق عليه توكلـــت واليـــه أنيـــب.

---

6) الشيخ الحاج المهدي هو نجل الاستاذ العارف بالله الشيخ عدة بن تونس خليفة الاستاذ احمد بن مصطفى العلاوي، تولى مشيخة الطريقة العلاوية بعد انتقال والده الى الرفيق الاعلى يوم 4 يونيوا 1952
فسار على خطة والده وجده بجد واجتهاد في البناء وتعمير الزوايا بالعلم وحفظ القرآن الكريم بالعناية المطلوبة والحرس على ذكر الله وغرس الاخلاق المرضية في نفوس الشباب الى ان توفاه الله في 24 ابريل 1975 رحمه الله رحمة واسعة.

يحـي الطاهر برقـه
أستـاذ بوهـران
1982

بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا . فَاتَّضَحَ مِنْ هَذَا أَنَّ الْحَرْفَ بِانْفِرَادِهِ قُرْآنٌ بِالنَّظَرِ لِمَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنَ الْمَعَانِي . وَفِي رِوَايَةٍ لَا أَقُولُ أَلَمٌ حَرْفٌ، بَلِ الْأَلِفُ حَرْفٌ، وَاللَّامُ حَرْفٌ، وَالْمِيمُ حَرْفٌ . وَلِهَذَا وَرَدَ أَنَّ مَا فِي الْكِتَابِ فِي الْفَاتِحَةِ، وَمَا فِي الْفَاتِحَةِ فِي بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ . وَوَرَدَ أَيْضًا أَنَّ مَا فِي الْبَسْمَلَةِ فِي بَائِهَا، وَمَا فِي الْبَاءِ فِي النُّقْطَةِ الَّتِي تَحْتَهَا . وَقَدْ كُنْتُ جَمَعْتُ رِسَالَةً فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِهَذَا الْمَعْنَىٰ، وَلَوْلَا مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ كِتَابُ اللَّهِ مِنَ الْغَرَائِبِ، لَمْ نُؤْمَرْ بِالتَّدَبُّرِ فِيهِ عَلَىٰ مَرِّ الدُّهُورِ . قَالَ جَلَّ ذِكْرُهُ : « **أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ** » . وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : « أَعْرِبُوا الْقُرْآنَ وَالْتَمِسُوا غَرَائِبَهُ » . وَلَعَلَّ الْقَائِلَ يَقُولُ قَدْ كَفَانَا اللَّهُ مَا أَهَمَّنَا مِنِ اسْتِخْرَاجِ جَوَاهِرِهِ عَلَىٰ يَدِ مَنْ تَقَدَّمَنَا، فَأَقُولُ وَإِذَنْ لَضَاعَ حَظُّنَا مِنَ التَّدَبُّرِ فِيهِ، وَحَاشَا لِلَّهِ، لَا يَقُولُ بِهَذَا عَاقِلٌ، وَلَا مَنْ هُوَ بِالْإِيمَانِ حَافِلٌ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ لِمَ لَمْ يَكْتَفِ أَهْلُ الْقَرْنِ الثَّانِي عَلَى الْكَلَامِ فِيهِ بِكَلَامِ مَنْ تَقَدَّمَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْقَرْنِ الْأَوَّلِ وَأَهْلُ الثَّالِثِ بِالثَّانِي . وَهَكَذَا

فَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ الْحَقَّ جَلَّ ذِكْرُهُ لَمْ يَخُصَّ بِالتَّدَبُّرِ فِيهِ جِيلًا دُونَ جِيلٍ ، وَأَيْضًا لَكَانَ التَّخْصِيصُ يُشْعِرُ بِانْقِضَاءِ مَعَانِيهِ ، وَالْحَالَةُ بِخِلَافِ ذَلِكَ . قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : « الْقُرْآنُ لَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ وَمِنْ عَجَائِبِهِ أَنَّ الْمُتَدَبِّرَ فِيهِ يَرَى مِنْ غَرَائِبِهِ كُلَّ يَوْمٍ مَا لَا يَرَاهُ بِالْأَمْسِ » . قَالَ عَبْدُ الْوَاحِدِ بْنُ سُلَيْمَانَ : كَانَ ابْنُ عَوْنٍ يَقُولُ : ثَلَاثٌ أُحِبُّهُنَّ لِي وَلِإِخْوَانِي ، وَذَكَرَ مِنْهَا أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَتَدَبَّرُهُ الرَّجُلُ وَيَتَفَكَّرُ فِيهِ ، فَيُوشِكُ أَنْ يَقَعَ عَلَى عِلْمٍ لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُهُ . وَيَدُلُّ عَلَى هَذَا مَا أَخْرَجَهُ أَبُو نُعَيْمٍ وَغَيْرُهُ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيَّانَ قَالَ : قِيلَ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ : يَا مُوسَى ، إِنَّ مَثَلَ كِتَابِ أَحْمَدَ فِي الْكُتُبِ بِمَنْزِلَةِ وِعَاءٍ فِيهِ لَبَنٌ ، كُلَّمَا مُخِضَتْ أَخْرَجَتْ زُبْدَتَهُ . وَيَشْتَمِلُ هَذَا وَنَحْوُهُ مَا ذَكَرَهُ أَبُو بَكْرِ بْنُ الْعَرَبِيِّ فِي فُنُونِ التَّأْوِيلِ : عُلُومُ الْقُرْآنِ خَمْسُونَ عِلْمًا وَأَرْبَعُمِائَةِ عِلْمٍ وَسَبْعَةُ آلَافِ عِلْمٍ وَسَبْعُونَ أَلْفِ عِلْمٍ مَضْرُوبَةٌ فِي أَرْبَعَةٍ ، إِذْ لِكُلِّ كَلِمَةٍ ظَاهِرٌ وَبَاطِنٌ وَحَدٌّ وَمَطْلَعٌ وَهَذَا مُطْلَقٌ دُونَ اعْتِبَارِ التَّرْكِيبَاتِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنَ الرَّوَابِطِ وَهَذَا مَا

لَا يُحْصَرُ ، وَلَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ . قُلْتُ وَلَا يَقَعُ عَلَى عُلُومِهِ ، وَيَتَفَرَّسُ فِي وُجُوهِهِ إِلَّا مَفْتُوحٌ عَلَيْهِ . وَأَمَّا الْمَحْجُوبُ فَإِنَّهُ يُنَادِي مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ وَيَسْمَعُ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ حَدِيدٍ ، فَهُوَ أَبْعَدُ مِنْ أَنْ يَتَنَاوَلَ الْغَايَةَ مِنْ ظَوَاهِرِهِ ، فَكَيْفَ بِبَاطِنِهِ ، وَأَيْنَ هُوَ مِنْ حَدِّهِ وَمَطْلَعِهِ . وَمَنْ فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ بِالتَّوَصُّلِ إِلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ لَا يَبْعُدُ أَنْ يَقُولَ كَمَا قَالَ الْإِمَامُ عَلِيٌّ - كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ - لَوْ شِئْتُ لَوَقَّرْتُ أَرْبَعِينَ وَقْرًا مِنْ شَرْحِ الْفَاتِحَةِ ، أَوْ كَلَامًا هَذَا مَعْنَاهُ . وَلَعَلَّكَ تَقُولُ أَيْنَ الْإِمَامُ عَلِيٌّ وَأَيْنَ عُلُومُهُ . فَأَقُولُ يَا لِلَّهِ الْعَجَبُ ، وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يَحْتَفِلْ بِهِ مِنْ أَهْلِ زَمَانِهِ إِلَّا الْقَلِيلُ ، حَتَّى كَانَ يَقُولُ : أَنَا جَنْبُ اللَّهِ الَّذِي فَرَّطْتُمْ فِيهِ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ وَالْمُفَرِّطُ فِيهِ هُوَ الْمُفَرِّطُ الْآنَ فِي أَهْلِ زَمَانِهِ .

الْفَصْلُ الثَّالِثُ

فِيمَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ فِي الْقُرْآنِ عُلُومٌ لَيْسَتْ مُتَعَاطِيَةً فِيمَا بَيْنَ الْعُمُومِ

وَلَعَلَّ الْمُتَحَمِّدَ عَلَى الظَّوَاهِرِ لَا يَرَى مِنْ كِتَابِ اللَّهِ إِلَّا مَا

وَصَلَ إِلَيْهِ مِنْ جِهَةِ بِضَعَتِهِ الْقَلِيلَةِ، وَقَرِيحَتِهِ الْكَلِيلَةِ، وَيُنْكِرُ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ، وَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ مَا عَرَفَهُ مِنْ ظَاهِرِ الْكِتَابِ إِلَّا كَمَنْ عَرَفَ الْقِشْرَ مِنَ اللُّبَابِ، وَمَا وَرَاءَ ذَلِكَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ. وَهَلْ يَعْتَقِدُ أَنَّ مَا وَصَلَ إِلَيْهِ فَهْمُهُ هُوَ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ بَوَاطِنُ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي كِتَابِ اللَّهِ: كَلَّا، وَلْيُفَتِّشْ نَفْسَهُ إِنْ كَانَ مَا أَكَنَّهُ فُؤَادُهُ أَعَزَّ مِمَّا تَحَدَّثَ بِهِ، فَهُوَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ، وَإِلَّا مَا ضَاعَ لَهُ أَكْثَرُ مِمَّا حَصَّلَ عَلَيْهِ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِنَّ مِنَ الْعِلْمِ كَهَيْئَةِ الْمَكْنُونِ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا الْعُلَمَاءُ بِاللَّهِ، فَإِذَا أَظْهَرُوهُ أَنْكَرَتْهُ أَهْلُ الْغِرَّةِ بِاللَّهِ». وَقَالَ: «عِلْمُ الْبَاطِنِ سِرٌّ مِنْ أَسْرَارِ اللَّهِ، يَقْذِفُهُ اللَّهُ فِي قَلْبِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ». وَقَالَ أَيْضًا: «الْعِلْمُ عِلْمَانِ، فَعِلْمٌ فِي الْقَلْبِ فَذَلِكَ الْعِلْمُ النَّافِعُ، وَعِلْمٌ عَلَى اللِّسَانِ، فَذَلِكَ حُجَّةُ اللَّهِ عَلَى ابْنِ آدَمَ». فَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ الْعُلُومَ الْخَفِيَّةَ غَيْرُ الْعُلُومِ الْمُتَعَاطَيَةِ. قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِيمَا شَاعَ عَنْهُ: حَفِظْتُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : وِعَائَيْنِ مِنَ الْعِلْمِ ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَبَثَثْتُهُ ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَلَوْ بَثَثْتُهُ لَقَطَعْتُمْ مِنِّي هَذَا الْبَلْعُومَ . نَقَلَهُ أَبُو عُمَرَ . وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ : لَوْ قُلْتُ لَكُمْ مَا أَعْلَمُ مِنْ تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى : « **يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ** » ، لَرَجَمْتُمُونِي أَوْ لَقُلْتُمْ إِنِّي كَافِرٌ . ذَكَرَهُ الشَّعْرَانِي فِي الْيَوَاقِيتِ وَالْجَوَاهِرِ . وَمِمَّا يُنْسَبُ لِزَيْنِ الْعَابِدِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :

يَا رَبِّ جَوْهَرُ عِلْمٍ لَوْ أَبُوحُ بِهِ ... لَقِيلَ لِي أَنْتَ مِمَّنْ يَعْبُدُ الْوَثَنَا

وَلَاسْتَحَلَّ رِجَالٌ مُسْلِمُونَ دَمِي ... يَرَوْنَ أَقْبَحَ مَا يَأْتُونَهُ حَسَنَا

وَقَالَ سَلْمَانُ الْفَارِسِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : لَوْ حَدَّثْتُكُمْ بِكُلِّ مَا أَعْلَمُ لَقُلْتُمْ رَحِمَ اللَّهُ قَاتِلَ سَلْمَانَ . وَقَالَ الْإِمَامُ عَلِيٌّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ : إِنَّ بَيْنَ جَنْبَيَّ عِلْمًا لَوْ قُلْتُهُ لَأَزَلْتُمْ هَذَا عَنْ هَذَا . وَأَشَارَ بِرَأْسِهِ عَنْ جَنْبَتَيْهِ فَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ فِي الزَّوَايَا خَبَايَا . وَفِي وَصَايَاهُ لِسَيِّدِنَا كُمَيْلِ بْنِ زِيَادٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، مَا يُلَائِمُ أَكْثَرَ الْمُشَارِ إِلَيْهِ ، وَلْنَرِدْهَا مَعَ طُولِهَا لِمَا فِيهَا مِنَ الْحِكَمِ الَّتِي لَا يُسْتَغْنَى عَنْهَا . قَالَ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ :

يَا كُمَيْلُ، إِنَّ الْقُلُوبَ هَذِهِ أَوْعِيَةٌ، فَخَيْرُهَا أَوْعَاهَا لِلْخَيْرِ. وَالنَّاسُ ثَلَاثَةٌ، فَعَالِمٌ رَبَّانِيٌّ، وَمُتَعَلِّمٌ عَلَى سَبِيلِ النَّجَاةِ، وَهَمَجٌ رِعَاعٌ أَتْبَاعُ كُلِّ نَاعِقٍ، لَمْ يَسْتَضِيئُوا بِنُورِ الْعِلْمِ، وَلَمْ يَلْجَؤُوا إِلَى رُكْنٍ وَثِيقٍ. ثُمَّ قَالَ: إِنَّ هَهُنَا لَعِلْمًا - وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى صَدْرِهِ - لَوْ أَصَبْتُ لَهُ حَمَلَةً لَقَدْ أَصَبْتُ لَقِنًا غَيْرَ مَأْمُونٍ، يَسْتَعْمِلُ الدِّينَ لِلدُّنْيَا، وَيَسْتَظْهِرُ بِحُجَجِ اللَّهِ عَلَى كِتَابِهِ، وَبِنِعَمِهِ عَلَى مَعَاصِيهِ. أَوْ لِحَامِلِ حَقٍّ لَا بَصِيرَةَ لَهُ، يَنْقَدِحُ الشَّكُّ فِي قَلْبِهِ بِأَوَّلِ عَارِضٍ مِنْ شُبْهَةٍ، لَا يَدْرِي أَيْنَ الْحَقُّ، إِنْ قَالَ أَخْطَأَ، وَإِنْ أَخْطَأَ لَمْ يَدْرِ مَشْعُوفٌ بِمَا لَا يَدْرِي حَقِيقَةً، فَهُوَ فِتْنَةٌ لِمَنْ فُتِنَ بِهِ. وَإِنَّ مِنَ الْخَيْرِ كُلِّهِ مَنْ عَرَّفَهُ اللَّهُ دِينَهُ، وَكَفَى بِالْمَرْءِ جَهْلًا أَنْ لَا يَعْرِفَ دِينَهُ، كَذَلِكَ يَمُوتُ الْعِلْمُ بِمَوْتِ حَامِلِيهِ. اللَّهُمَّ بَلَى لَا تَخْلُو الْأَرْضُ مِنْ قَائِمٍ لِلَّهِ بِحُجَّتِهِ إِمَّا ظَاهِرًا مَشْهُورًا، أَوْ خَافِيًا مَغْمُورًا، لِئَلَّا تَبْطُلَ حُجَجُ اللَّهِ وَبَيِّنَاتُهُ وَكَمْ ذَا، وَأَيْنَ أُولَئِكَ. أُولَئِكَ وَاللَّهِ الْأَقَلُّونَ عَدَدًا، وَالْأَعْظَمُونَ قَدْرًا، يَحْفَظُ اللَّهُ بِهِمْ حُجَجَهُ وَبَيِّنَاتِهِ حَتَّى يُودِعُوهَا نُظَرَاءَهُمْ

وَيَزْرَعُوهَا فِي قُلُوبِ أَشْبَاهِهِمْ هَجَمَ بِهِمُ الْعِلْمُ عَلَى حَقِيقَةِ الْبَصِيرَةِ، وَبَاشَرُوا رُوحَ الْيَقِينِ، وَاسْتَلَانُوا مَا اسْتَوْعَرَهُ الْمُتْرَفُونَ وَأَنِسُوا بِمَا اسْتَوْحَشَ مِنْهُ الْجَاهِلُونَ وَصَحِبُوا الدُّنْيَا بِأَبْدَانٍ أَرْوَاحُهَا مُعَلَّقَةٌ بِالْمَحَلِّ الْأَعْلَى، أُولَئِكَ خُلَفَاءُ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ، وَالدُّعَاةُ إِلَى دِينِهِ آهٍ، آهٍ، شَوْقًا إِلَى رُؤْيَتِهِمْ. وَالْمَحْصُولُ مِمَّا نَقَلْنَاهُ أَنَّ جَمِيعَ مَا أَشَارَتْ إِلَيْهِ الْكُتُبُ هُوَ بَعْضٌ مِمَّا تَضَمَّنَتْهُ الْقُلُوبُ، وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ.

الفَصْلُ الرَّابِعُ
فِيمَا يَشْعُرُنَا نَحْنُ بِأَنَّنَا الْمَقْصُودُونَ بِالْقُرْآنِ وَلَا وَاحِدٌ أَوْلَى مِنَ الْآخَرِ فِي كُلِّ زَمَانٍ

فَأَقُولُ إِنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ، يُكَلِّمُ بِهِ عِبَادَهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ وَكِتَابٌ بُعِثَ إِلَيْهِمْ بِالْخُصُوصِ، وَهُمْ لَا يَدْرُونَ، لَاهِيَةٌ قُلُوبُهُمْ كَأَنَّهُمْ يَظُنُّونَ أَنَّهُ وُجِدَ اتِّفَاقًا، فَصَارُوا يَأْخُذُونَ مِنْهُ أَحْكَامَهُمْ وَلَيْسُوا بِالْمَقْصُودِينَ فِي عِلْمِ اللَّهِ، أَوْ نَقُولُ الْآنَ بِالْخِطَابِ. إِنَّمَا

نَزَّلَهُ اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَمَنْ مَعَهُ، وَهُمْ يَأْخُذُونَ بِالتَّبَعِيَّةِ، لَا بِالْإِسْتِقْلَالِ وَحَاشَا لِلَّهِ. قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أَنَا رَسُولُ مَنْ أَدْرَكْتُهُ حَيًّا وَمَنْ يُولَدُ بَعْدِي» فَلَا فَرْقَ بَيْنَ الْمَبْعُوثِ إِلَيْهِمْ مِنْ جِهَةِ تَعَلُّقِ الْخِطَابِ فَقَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: «**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**»، يَشْمَلُ كُلَّ مُؤْمِنٍ وَلَا تَقُولُ إِنَّهُ قَالَ، بَلْ هُوَ الْآنَ يَقُولُ. عَرَفَ مَنْ عَرَفَ، وَجَهِلَ مَنْ جَهِلَ. فَمَنْ فَتَحَ اللَّهُ بَصِيرَتَهُ يَرَاهُ الْآنَ يَتَنَزَّلُ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ. وَإِذَا قَرَأَهُ يَقْرَأُهُ مِنْ إِمَامٍ مُبِينٍ. وَأَعْظَمُهُمْ دَرَجَةً مَنْ يَتَلَقَّاهُ مِنْ أَرْحَمِ الرَّاحِمِينَ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَلَا نَسْتَبْعِدُ ذَلِكَ. فَإِنَّ الْكَلَامَ كَلَامُ اللَّهِ، لَا يَتَّصِفُ بِهِ غَيْرُهُ. نَعَمْ، الْكُلُّ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ وَمَا فَاتَهُ إِلَّا أَنْ يَسْمَعَهُ مِنَ اللَّهِ، وَلَا يَسْمَعُهُ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِذَا كَانَ سَمْعُهُ سَمْعَ اللَّهِ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتَ سَمْعَهُ إِلَى آخِرِ الْحَدِيثِ. وَالصِّفَةُ لَا تَنْفَكُّ عَنْ مَوْصُوفِهَا، وَلَا تَظْهَرُ إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ لُبْسِهَا «**وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ**». مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا سَمِعَ خِطَابًا مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ لَمْ يَسْتَدِلَّ

عَلَى أَنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ يُكَلِّمُهُ بِهِ إِلَّا بِهِ، مِنْ أَجْلِ مَا أُعْطِيَ مِنْ سَلَامَةِ الذَّوْقِ وَصِحَّةِ الْوِجْدَانِ، وَهَكَذَا الْوَاحِدُ مِنَّا مَهْمَا تَقَوَّى يَقِينُهُ وَانْشَرَحَ بَاطِنُهُ فِي مَا يَسْمَعُهُ مِنْ أَلْفَاظِ الْقُرْآنِ، فَلَا يَرَاهُ إِلَّا كَلَامًا يُكَلِّمُهُ اللَّهُ بِهِ فِي ذَلِكَ الْحَالِ، وَلَا يَسْتَدِلُّ عَلَيْهِ إِلَّا بِهِ، لِمَا يَجِدُهُ فِي قَلْبِهِ مِنْ تَأْثِيرِ النُّزُولِ وَرَعْدَةِ الزَّوَاجِرِ. أَخْرَجَ الطَّبَرَانِيُّ عَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ مَرْفُوعًا: إِذَا تَكَلَّمَ اللَّهُ بِالْوَحْيِ، أَخَذَتِ السَّمَاءُ رَجْفَةً شَدِيدَةً مِنْ خَوْفِ اللَّهِ، فَإِذَا سَمِعَ بِذَلِكَ أَهْلُ السَّمَاءِ، صَعِقُوا وَخَرُّوا سُجَّدًا، فَيَكُونُ أَوَّلُهُمْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ جِبْرِيلُ، فَيُكَلِّمُهُ اللَّهُ بِوَحْيِهِ بِمَا أَرَادَ، فَيَنْتَهِي بِهِ عَلَى الْمَلَائِكَةِ، فَكُلَّمَا مَرَّ بِسَمَاءٍ سَأَلَهُ أَهْلُهَا مَاذَا قَالَ رَبُّنَا. قَالَ الْحَقَّ. فَيَنْتَهِي بِهِ حَيْثُ أُمِرَ، وَهَكَذَا لَمَّا يَنْزِلُ بِهِ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَحْصُلُ لَهُ مِنْ تَأْثِيرِ النُّزُولِ مَا تَرْتَعِدُ بِهِ مَفَاصِلُهُ، وَلَنْ يَزَالَ هَكَذَا مَهْمَا مَرَّ عَلَى قَلْبٍ فَارِغٍ مِنَ الْكُدُورَاتِ إِلَّا وَيَحْدُثُ فِيهِ مِنْ تَأْثِيرِ النُّزُولِ، وَقَدْ كَانَ لِي نَصِيبٌ مِنْ ذَلِكَ - وَلِلَّهِ الْحَمْدُ - فَكُنْتُ مَهْمَا يَطْرُقُ سَمْعِي كَلَامُ اللَّهِ فَتَرْتَجِدُ

بَوَادِرِي عَنِ الْفَحْصِ، حَتَّى كَأَنِّي أَسْمَعُ حَسِيسًا مِنْ بَقِيَّةِ صَلْصَلَةِ الْجَرَسِ وَكُنْتُ إِذَا تَنَاوَلْتُ الْمُصْحَفَ الْكَرِيمَ نَتَنَاوَلُهُ بِيَدِ التَّبْجِيلِ وَالتَّعْظِيمِ، وَنَرَاهُ كِتَابًا وَصَلَ إِلَيَّ مِنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ، مَرْقُومًا فِي أَوَّلِهِ بَعْدَ الْفَاتِحَةِ **وَبِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ**، فَنَأْخُذُ فِي الْفَحْصِ فِيهِ أَشَدَّ مِنْ فَحْصِ الْغَرِيبِ إِذَا أَتَاهُ كِتَابٌ مِنْ أَهْلِهِ. فَهُوَ بِالطَّبْعِ يَسْكُنُ إِلَيْهِ، وَلَا يَطْمَئِنُّ إِلَّا إِذَا اسْتَوْعَبَهُ بِأَجْمَعِهِ، وَبِهَذِهِ الْخَاصِّيَّةِ - وَلِلَّهِ الْحَمْدُ - أَطْلَعَنِي اللَّهُ عَلَى الْبَعْضِ مِنْ جَوَاهِرِهِ، وَلَا تَحْسَبَنَّ مَا رَسَمْتُهُ هُوَ مَجْمُوعُ مَا فَهِمْتُهُ بَلْ وَلَا عُشُورُهُ وَمِصْدَاقُهُ: الْقُرْآنُ لَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ.

تَنْبِيهٌ

إِنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ نَزَلَ عَلَى أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ مُنَجَّمًا، وَهَذَا بِاعْتِبَارِ وُصُولِهِ إِلَيْهِمْ. وَأَمَّا بِاعْتِبَارِ وُصُولِهِ وَمَجِيئِهِ إِلَيْنَا، فَقَدْ جَاءَنَا مِنَ اللَّهِ جُمْلَةً، بِوَاسِطَةِ مَنْ حَفِظَهُ اللَّهُ بِسَبَبِهِمْ، وَاللَّهُ هُوَ الْحَافِظُ: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾. وَهَذَا يَجْرِي فِي مَنْ

قَبْلَنَا وَمَنْ بَعْدَنَا ، وَقَوْلُنَا جَاءَنَا مِنَ اللَّهِ جُمْلَةً، يُؤَيِّدُهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي جُمُعَةَ الْأَنْصَارِي ، قَالَ : قُلْتُ : يَارَسُولَ اللَّهِ ، هَلْ مِنْ قَوْمٍ أَعْظَمُ مِنَّا أَجْرًا ، آمَنَّا بِكَ وَاتَّبَعْنَاكَ . قَالَ : مَايَمْنَعُكُمْ مِنْ ذَلِكَ وَرَسُولُ اللَّهِ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ ، يَأْتِيكُمْ بِالْوَحْيِ مِنَ السَّمَاءِ . بَلْ قَوْمٌ يَأْتُونَ مِنْ بَعْدِكُمْ ، يَأْتِيهِمْ كِتَابُ اللَّهِ بَيْنَ لَوْحَيْنِ فَيُؤْمِنُونَ ... إِلَى آخِرِ الْحَدِيثِ . وَالشَّاهِدُ فِي يَأْتِيهِمْ كِتَابُ اللَّهِ بَيْنَ لَوْحَيْنِ ، فَعَلِمْنَا يَقِينًا أَنَّنَا مَقْصُودُونَ بِكِتَابِ اللَّهِ إِلَيْنَا ، لَا إِنَّنَا قَرَأْنَاهُ بِالتَّبَعِيَّةِ لِغَيْرِنَا وَقَوْلُنَا وَصَلَ إِلَيْنَا جُمْلَةً ، هَذَا بِاعْتِبَارِ أَلْفَاظِهِ ، وَأَمَّا بِاعْتِبَارِ مَعَانِيهِ ، فَإِنَّهَا لَنْ تَزَالَ تَحْتَ أَمِينِ الْوَحْيِ ، يَتَنَزَّلُ بِهَا الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِ مَنْ كَمُلَ اسْتِعْدَادُهُ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَلَا يَتَنَزَّلُ بِهَا إِلَّا مُنَجَّمَةً ، وَبِالْقَدْرِ الْمُحْتَاجِ إِلَيْهِ ، حَسْبَمَا تَقَدَّمَ فِي نُزُولِ أَلْفَاظِهِ وَلَا تَسْتَبْعِدْ نُزُولَ الْمَعْنَى عَلَى قُلُوبِ الْعَارِفِينَ بِوَاسِطَةِ الْمَلَكِ : **إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ** وَإِنْ لَمْ يَتَّضِحْ ذَلِكَ عِنْدَكَ ، تَذَكَّرْ حَدِيثَ لَنْ تَخْلُوَ الْأَرْضُ مِنْ أَرْبَعِينَ

رَجُلاً مِثْلَ خَلِيلِ الرَّحْمَنِ ، فَمَا أَقْرَبَ الْمَلَائِكَةَ مِنْ قُلُوبٍ تُمَاثِلُ قَلْبَ خَلِيلِ اللَّهِ ، فَقُلُوبُ الْعَارِفِينَ مَسْكَنُهَا الْمَلَأُ الْأَعْلَى ، فَلِهَذَا أُشْرِكَتْ الْمَلَائِكَةُ فِي الْمَعَارِفِ ، قَالَ أَحْمَدُ بْنُ أَبِي الْحَوَارِيِ لِلْإِمَامِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : سَمِعْتُ شَيْخِي ابْنُ سَمْعَانَ يَقُولُ : إِذَا اعْتَدَّتْ النُّفُوسُ تَرْكَ الْآثَامِ جَالَتْ فِي الْمَلَكُوتِ وَرَجَعَتْ إِلَى مَاحِبِهَا بِطَرَائِفِ الْحِكْمَةِ ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يُؤَدِّيَ لَهَا عَالِمٌ عِلْمًا . قَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ : صَدَقْتَ يَا أَحْمَدُ ، وَصَدَقَ شَيْخُكَ . ثُمَّ أَقُولُ : إِنَّ اللَّهَ جَلَّ ذِكْرُهُ لَنْ يَزَالَ كَفِيلاً بِبَيَانِ مَعَانِي الْقُرْآنِ فِي كُلِّ عَصْرٍ وَزَمَانٍ ، قَالَ وَلَنْ يَزَالَ قَائِلاً : ((**فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ**)) . وَمِنْ بَيَانِهِ الْمُتَكَفِّلِ بِهِ مَا يُظْهِرُهُ اللَّهُ مِنْ مَعَانِيهِ عَلَى أَلْسِنَةِ أَصْفِيَائِهِ ، وَمِنْ حِكْمَتِهِ تَعَالَى أَنْ لَا يُجْرِيَ عَلَى أَلْسِنَةِ عُلَمَاءِ كُلِّ زَمَانٍ إِلَّا مَا يَلِيقُ بِأَهْلِ ذَلِكَ الزَّمَانِ وَنَعْنِي بِالْعُلَمَاءِ الْعَامِلِينَ الْوَارِثِينَ الْقَائِمِينَ بِحُجَّةِ اللَّهِ عَلَى الْعَالَمِينَ الَّذِينَ يَحْفَظُ اللَّهُ بِهِمْ هَذَا الدِّينَ ، حَتَّى يُبَلِّغُوهُ لِمَنْ بَعْدَهُمْ

لَا الْمُتَشَدِّقِينَ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا . فَإِنَّهَا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الشياطين بِمَا فِيهِ انْحِلَالُ عُقْدَةِ الدِّينِ ، لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ يَنْسَخُ مَا تُلْقِيهِ الشَّيَاطِينُ ثُمَّ يُحْكِمُ آيَاتِهِ .

الْفَصْلُ الْخَامِسُ

فِيمَا يُشْعِرُنَا بِتَعَلُّقِ سَائِرِ أَلْفَاظِ الْقُرْآنِ بِالْمُكَلَّفِينَ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَآنٍ

وَمَهْمَا اعْتَبَرْنَا مَا بَيْنَ دَفَّتَيِ الْمُصْحَفِ كِتَابًا مِنَ اللَّهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ وَصَلَ إِلَيْنَا بِالْخُصُوصِ لَزِمَنَا أَنْ لَا نَحْمِلَ مَا أَوْعَدَ اللَّهُ أَوْ وَعَدَ بِهِ عَلَى غَيْرِنَا مِنَ الْأُمَمِ . فَمَهْمَا ثَبَتَ الِاسْتِحْقَاقُ فِي شَخْصٍ لِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ فَيَكُونُ هُوَ الْمَقْصُودُ نَفْسُهُ بِذَلِكَ الْخِطَابِ . وَهٰكَذَا فِي سَائِرِ الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي وَالتَّرْغِيبَاتِ وَالتَّرْهِيبَاتِ ، وَهٰذَا وَجْهُ كَوْنِ الْكِتَابِ إِلَيْنَا . وَأَمَّا كَوْنُ الْآيَةِ نَزَلَتْ فِي فُلَانٍ أَوْ فُلَانٍ ، إِنَّمَا ذَلِكَ الشَّخْصُ سَبَبٌ لِابْتِدَاءِ تَهَيُّءِ الْجِنْسِ الْمُسْتَحِقِّ لِذَلِكَ الْوَصْفِ أَوِ الْحُكْمِ . وَالْمُعْتَبَرُ مِنْ خِطَابِ اللَّهِ عُمُومُ اللَّفْظِ لَا خُصُوصُ السَّبَبِ . وَالْأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ

مُتَسَاوِيَةٌ فِي تَعَلُّقِ الْخِطَابِ بِهَا لَيْسَتْ مُتَعَاقِبَةَ الْوُجُودِ كَتَعَاقُبِ الْأَجْسَامِ فَأَرْوَاحُ الْمُنَافِقِينَ مَثَلاً مِنْ عَهْدِ رَأْسِ الْمُنَافِقِينَ الْأَوَّلِينَ إِلَى خَاتِمِهِمْ يَشْمَلُهُمْ وَعْدُ الْمُنَافِقِينَ، فَتَكُونُ آيَةُ الْمُنَافِقِينَ نَزَلَتْ فِي كُلِّ فَرْدٍ مِنْ ذَلِكَ الْجِنْسِ. وَقِسْ عَلَى ذَلِكَ أَنْوَاعَ الْمُخَاطَبِينَ، وَإِلَّا كَانَ الْكَثِيرُ مِنْ أَلْفَاظِ التَّنْزِيلِ فِي حَيِّزِ التَّعْطِيلِ. وَإِنِّي لَا أَرَى مِنْ كِتَابِ اللَّهِ لَفْظاً مُعَطَّلاً لَمْ يَكُنْ مَقْرُونًا بِمُسْتَحِقِّهِ فِي كُلِّ زَمَانٍ إِنْ لَمْ نَقُلْ فِي كُلِّ آنٍ. وَالْمَعْنَى أَنَّ سَائِرَ أَلْفَاظِهِ دَائِرَةٌ بَيْنَ مُخَاطِبٍ وَمُخَاطَبٍ فِي كُلِّ حِينٍ وَاقِعَةٌ مَوْقِعَهَا مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَلَا نُقْصَانٍ. وَالْأَغْرَبُ مِنْ هَذَا أَنَّ الْخِطَابَ الْمُخْتَصَّ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَقِيقَةً قَدْ يَتَنَاوَلُ غَيْرَهُ مِنْ وَرَثَتِهِ عَلَى سَبِيلِ الْإِشَارَةِ مَجَازًا، وَأَمَّا مَا فِيهِ مِنَ التَّهْدِيدَاتِ وَنِسْبَةِ التَّقْصِيرِ لَهُ فَيَكُونُ لِوَارِثِهِ حَقِيقَةً، لِأَنَّهُ أَوْلَى بِالتَّقْصِيرِ. فَالْقُطْبُ الْمُحَمَّدِيُّ، أَوْ مَنْ هُوَ عَلَى قَلْبِ سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى نَبِيِّنَا وَعَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ، إِذَا أَطْرَقَ سَمْعَهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: «**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ**» أَوْ «**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ**»

لَا يَرَىٰ ذَلِكَ إِلَّا أَمْرًا مِنَ اللَّهِ، وَهُوَ الْمَقْصُودُ بِهِ فِي تَبْلِيغِ الشَّرَائِعِ. وَهَذِهِ هِيَ الْحِكْمَةُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - فِي عَدَمِ نِدَائِهِ فِي كِتَابِهِ الْمَجِيدِ بِاسْمِهِ كَأَنْ يَقُولَ: **يَا مُحَمَّدُ أَوْ يَا أَحْمَدُ**، كَنِدَائِهِ مَنْ تَقَدَّمَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ. إِنَّمَا جَاءَ النِّدَاءُ بِـ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ، يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ، يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ، يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ**. وَهَكَذَا لِيَتَنَاوَلَ وَرَثَتَهُ مِنْ بَعْدِهِ، الْمُبَلِّغِينَ عَنْهُ عَلَى سَبِيلِ الْإِشَارَةِ: الْعُلَمَاءُ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَالْمُبَلِّغُونَ وَرَثَةُ الرُّسُلِ. أَلَا تَرَى أَنَّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا بَعَثَ مُبَلِّغِينَ عَنْهُ إِلَى أَنْطَاكِيَةَ مدينة سَمَّاهُمُ اللَّهُ رُسُلًا وَأَضَافَ إِرْسَالَهُمْ لِنَفْسِهِ فَقَالَ: «**إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ**». فَلَا مَانِعَ أَنْ يُنَادَى الْمُبَلِّغُ مِنَ الْأُمَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ عَلَى لِسَانِ الْقُرْآنِ بِذَلِكَ الِاسْمِ، وَيَكُونُ مَقْصُودًا بِهِ فِي عِلْمِ اللَّهِ. أَلَا تَرَى أَنَّهُ نَادَى مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي التَّوْرَاةِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْكُتُبِ بِمَا هُوَ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ كَقَوْلِهِ: «**يَا أَيُّهَا الْجَبَّارُ تَقَلَّدْ سَيْفَكَ**». وَهَذَا الْخِطَابُ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مُتَنَاوِلًا لِغَيْرِهِ فِي ذَلِكَ

الْعَصْرِ مَجَازًا مُدَّخَرًا لِلْمُصْطَفَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَقِيقَةً، وَالْحِكْمَةُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ فِي عَدَمِ نِدَاءِ الْأَنْبِيَاءِ بِغَيْرِ الْإِسْمِ الصَّرِيحِ لِعَدَمِ اسْتِمْرَارِ شَرَائِعِهِمْ، بِخِلَافِ شَرِيعَةِ نَبِيِّنَا الْأَحْمَدِيَّةِ، فَإِنَّهَا مُسْتَمِرَّةٌ وَالنِّدَاءُ فِيهَا يَعُمُّ كُلَّ وَارِثٍ، حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى الْمَهْدِيِّ، ثُمَّ لِعِيسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ فَإِنَّ أَمْرَ اللَّهِ لِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمْرٌ لَهُمَا، وَخِطَابَهُ خِطَابٌ لَهُمَا، فَلِهَذَا جَاءَ النِّدَاءُ فِي التَّنْزِيلِ **بِيَا أَيُّهَا**، ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّ الْمُبَلِّغَ الْحَقِيقِيَّ الْآنَ، وَقَبْلَ الْآنَ، وَبَعْدَ الْآنَ، لَيْسَ هُوَ إِلَّا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَنُورُهُ الْكَامِنُ فِي خُلَفَائِهِ هُوَ الَّذِي يَسْمَعُ النِّدَاءَ الْمُخْتَصَّ بِهِ. قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَى خُلَفَائِي». قَالُوا: مَنْ خُلَفَاؤُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟. قَالَ: «الَّذِينَ يُحْيُونَ سُنَّتِي وَيُعَلِّمُونَهَا عِبَادَ اللَّهِ». نَقَلَهُ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ. وَالَّذِي يَزِيدُنَا شُعُورًا بِمَا قَدَّمْنَاهُ هُوَ عَدَمُ حَذْفِ كَلِمَةٍ قُلْ مِنَ التِّلَاوَةِ وَالرَّسْمِ، مَعَ أَنَّهَا لَيْسَتْ دَاخِلَةً فِي مَقُولِ الْقَوْلِ ضَرُورَةً، فَإِذَا قَالَ اللَّهُ لِنَبِيِّهِ: «**قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ**». فَالْمُتَبَادِرُ فَهْمُهُ أَنْ يَقُولَ: «**لَا أَمْلِكُ**

لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضُرًّا﴾، بِحَذْفِ كَلِمَةِ **قُلْ**، وَمَا أُثْبِتَتْ هَذِهِ الْكَلِمَةُ إِلَّا لِأَنَّهَا فِعْلٌ مُتَّصِلٌ دَائِمُ التَّعَلُّقِ كَغَيْرِهِ مِنَ الْأَفْعَالِ، يَتَنَاوَلُ كُلَّ مَنْ يَسْتَحِقُّ الْقَوْلَ، مَهْمَا فُهِمَ عَنِ اللَّهِ، وَنَعْنِي بِهِ الْوَارِثَ الْمُحَمَّدِيَّ وَلَوْ حُذِفَتْ كَلِمَةُ **قُلْ**، لَضَاعَ حَظُّنَا، أَوْ نَقُولُ فَهْمُنَا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ.

الْفَصْلُ السَّادِسُ

يَذْكُرُ فِيهِ أَنَّ أَهَمَّ شَيْءٍ يَعْتَبِرُهُ الْإِنْسَانُ فِي كِتَابِ اللَّهِ أَنْ يَرَاهُ وَاصِلًا إِلَيْهِ مِنْ حَضْرَةِ الرَّحْمَنِ

وَأَهَمُّ شَيْءٍ نَعْتَبِرُهُ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ إِذَا تَنَاوَلْنَاهُ هُوَ أَنْ نَرَاهُ وَاصِلًا إِلَيْنَا الْآنَ مِنْ حَضْرَةِ اللَّهِ جَلَّ ذِكْرُهُ عَلَى الْهَيْئَةِ الَّتِي هُوَ عَلَيْهَا بَيْنَ دَفَّتَيِ الْمُصْحَفِ وَعَلَى عُنْوَانِهِ: **ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ** وَالشَّاهِدُ فِي كَوْنِهِ وَاصِلًا إِلَيْنَا مِنَ اللَّهِ عَلَى تِلْكَ الْهَيْئَةِ، هُوَ مَا قَدَّمْنَاهُ فِي حَدِيثِ أَبِي جُمْعَةَ، وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ كِتَابَ اللَّهِ لَا يَأْتِي إِلَّا مِنَ اللَّهِ، وَلَا يُشْكِلُ عَلَيْكَ مِنْ أَنَّ جَمْعَ الْمُصْحَفِ وَتَنْظِيمَهُ عَلَى

الْهَيْئَةِ الْحَاضِرَةِ، وَبَعْثُهُ لِلْأَمْصَارِ هُوَ مِنْ أَثَرِ الصَّحَابَةِ عَلَيْهِمْ رِضْوَانُ اللَّهِ. نَعَمْ كَانَ ذَلِكَ، وَلَكِنَّهُمْ مُسَخَّرُونَ. قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾. فَقَدْ تَوَلَّى اللَّهُ حِفْظَهُ كَمَا تَوَلَّى إِنْزَالَهُ، فَيَكُونُ هُوَ الْجَامِعُ لَهُ، وَالْمُنَظِّمُ لَهُ فِي الْحَقِيقَةِ عَلَى الْهَيْئَةِ السَّابِقَةِ فِي عِلْمِهِ، وَهَذَا بِاعْتِبَارِ تَرْتِيبِ السُّوَرِ مَعَ بَعْضِهَا هَلْ كَانَ ذَلِكَ تَوْفِيقًا، أَوْ بِاجْتِهَادٍ مِنَ الصَّحَابَةِ، وَأَمَّا تَرَتُّبُ الْآيِ فِي سُوَرِهَا فَهُوَ بِوَحْيٍ مِنَ اللَّهِ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ الْأَثَرُ، وَانْعَقَدَ بِهِ الْإِجْمَاعُ. قَالَ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ فِي مَا نَقَلَهُ الْجَلَالُ السُّيُوطِي عَنْهُ أَنَّ الَّذِي نَذْهَبُ إِلَيْهِ أَنَّ جَمِيعَ الْقُرْآنِ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ وَأَمَرَ بِإِثْبَاتِهِ وَرَسْمِهِ وَلَمْ يَنْسَخْهُ وَلَا رَفَعَ تِلَاوَتَهُ بَعْدَ نُزُولِهِ هُوَ هَذَا الَّذِي بَيْنَ الدَّفَّتَيْنِ، الَّذِي حَوَاهُ مُصْحَفُ عُثْمَانَ، وَإِنَّهُ لَمْ يَنْقُصْ مِنْهُ شَيْءٌ، وَلَا زِيدَ فِيهِ شَيْءٌ، وَأَنَّ تَنْظِيمَهُ وَتَرْتِيبَهُ ثَابِتٌ عَلَى مَا نَظَّمَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَرَتَّبَهُ عَلَيْهِ رَسُولُهُ. قُلْتُ وَنَزَلَتْ الْأَنْوَارُ حَافَّةً بِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ حَوْلِهِ، مُوَصِّلَةً لِمَعَانِيهِ بِوَحْيٍ

مِنَ اللَّهِ لِلْقُلُوبِ الْمُسْتَحِدَّةِ . أَخْرَجَ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ عَنْ مَعْقِلِ ابْنِ يَسَارٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: الْبَقَرَةُ سَنَمُ الْقُرْآنِ وَذُرْوَتُهُ نَزَلَ مَعَ كُلِّ آيَةٍ مِنْهَا ثَمَانُونَ مَلَكًا. أَوَ هَلْ تَرَى أَنَّ الْمَلَائِكَةَ النَّازِلَةَ إِلَى الْأَرْضِ مَعَ هَاتِهِ السُّورَةِ بَلَّغُوهَا وَتَرَكُوهَا بِالْأَرْضِ سُدًى ، كَلَّا لَنْ يَزَالَ كِتَابُ اللَّهِ بِعِنَايَةِ اللَّهِ مَحْفُوفًا مُشَيَّعًا بِالْمَلَائِكَةِ، إِلَى أَنْ يَرِثَ اللَّهُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا، وَإِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ، وَلَا يُوهِمُكَ عَبَثُ الشَّيَاطِينِ بِبَعْضِ أَجْزَائِهِ فَإِنَّ حِفْظَهُ وَتَشْيِيعَهُ فِي الْجُمْلَةِ مِنْ حَيْثُ وُجُودِهِ بَيْنَ أَفْرَادِ الْإِنْسَانِ ، وَأَمَّا كَوْنُ الْبَقَرَةِ سَنَمُهُ وَذُرْوَتُهُ دَلِيلٌ عَلَى تَنْظِيمِ اللَّهِ لَهُ فِي سَابِقِ عِلْمِهِ وَعِلْمِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِهَيْئَتِهِ الْحَاضِرَةِ.

تَنْبِيهٌ مُهِمٌّ

فَمَنْ أَرَادَ السَّلَامَةَ أَنْ لَا يَشْرَعَ فِي هَذَا التَّفْسِيرِ حَتَّى يَمُرَّ عَلَى فُصُولِهِ حَسَبَ تَرْتِيبِهَا، لِأَنَّهَا كَالسُّلَّمِ لِتَلَقِّي أَسْرَارِهِ وَلْيَتَدَرَّعْ

بِحُسْنِ الظَّنِّ مَا أَمْكَنَهُ ، وَلَا يَقِسْ مَا يَجِدُ فِيهِ عَلَى مَا عِنْدَهُ ، فَإِنَّهُ أَبْعَدُ مِنَ التَّطَابُقِ ، لِأَنَّ كَلَامَ الرُّوحِ يَبِينُ كَلَامَ الْبَدَنِ ، فَأَكْثَرُهُ جَاءَ بِلِسَانِ الْخُصُوصِيَّةِ الَّذِي لَيْسَ لَنَا فِيهِ كَبِيرُ اكْتِسَابٍ ، إِلَّا مَا كَانَ مِنْ قَبِيلِ التَّوَجُّهِ وَالتَّلَقِّي مِنْ حَضْرَةِ اللَّهِ ، وَالْمَعْنَى أَنَّهُ لَيْسَ هُوَ مِنْ قَبِيلِ التَّكَلُّفِ وَالتَّعَسُّفِ ، وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي مِنَ التَّقْصِيرِ ، وَلَا أَنْسَاهَا مِنْ وُجُودِ الْخَيْرِ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ . ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّهُ ظَهَرَ لِي فِي تَرْتِيبِهِ أَنْ نَذْكُرَ شَيْئًا مِنَ التَّفْسِيرِ الَّذِي هُوَ الْمَقْصُودُ الْعَامُّ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ، ثُمَّ نَذْكُرَ مَا يُسْتَنْبَطُ مِنْ أَحْكَامِهِ ، وَهُوَ أَخَصُّ مِمَّا قَبْلَهُ ، ثُمَّ نَأْتِي بِشَيْءٍ مِمَّا تَتَوَسَّعُ فِيهِ الْإِشَارَةُ عَلَى مُصْطَلَحِ أَهْلِ اللَّهِ ، ثُمَّ نَذْكُرَ كَلَامًا أَخَصَّ مِنْهُ ، مُعَبِّرًا عَنْهُ بِلِسَانِ الرُّوحِ وَهِيَ أَنْهَارٌ أَرْبَعَةٌ ، تَرَاهُمْ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ .

اَلْكَلَامُ فِي بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَقُولُ أَنَّ افْتِتَاحَ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ بِالْبَسْمَلَةِ لَفْظًا وَخَطًّا ، فِيهِ مَا يُشْعِرُنَا بِلُطْفِ اللَّهِ بِعِبَادِهِ ، وَإِنْ مَعَ إِعْرَاضِهِمْ عَنْهُ وَذَلِكَ

أَنَّ التَّالِيَ أَوِ الْقَارِئَ لِكِتَابِ اللَّهِ مَهْمَا يُرْسِلْ طَرْفَهُ وَيُحَرِّكْ لِسَانَهُ
إِلَّا وَيَلْتَصِقُ بِبِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ فَيَكُونُ ذَاكِرًا لِلِاسْمِ
مُتَبَرِّكًا بِهِ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ، قَصَدَ أَوْ لَمْ يَقْصِدْ، حَبَّ أَمْ كَرِهَ بِخِلَافِ
مَا لَوْ لَمْ نُؤْمَرْ بِرَسْمِهَا لَتَشَعَّبَتِ الْمَقَاصِدُ وَاسْتَحْكَمَتِ الْغَفَلَاتُ
فَقَدْ يَنْسَاهَا قَوِيُّ الْإِيمَانِ، وَيَتَعَلَّلُ الْمُنَافِقُ بِالنِّسْيَانِ. وَلَمَّا تَعَيَّنَتْ
كِتَابَةً وَقِرَاءَةً رُفِعَ الِاحْتِمَالُ. ثُمَّ إِنَّ الْحِكْمَةَ فِي مَشْرُوعِيَّتِهَا عِنْدَ كُلِّ
فِعْلٍ ذِي بَالٍ يَقْضِي بِرَفْعِ امْتِيَازِ الْجَبَابِرَةِ، حَتَّى لَا يَبْقَى جَبَرُوتٌ لِأَحَدٍ
عَلَى الْآخَرِ، لِأَنَّ الْأُمَمَ غَيْرَ الْإِسْلَامِ كَانَتْ قَدِيمًا وَحَدِيثًا تَتَبَرَّكُ بِذِكْرِ
مُلُوكِهَا وَأُمَرَائِهَا، حَتَّى إِذَا أَرَادَ أَحَدُهُمْ أَنْ يَتَنَاوَلَ مَشْرُوبًا مَثَلًا
يَتَنَاوَلُهُ بِاسْمِ الْمَلِيكِ وَالْأَمِيرِ، وَبِالْأَخَصِّ إِذَا كَانَ بِحَضْرَتِهِ، وَلَمَّا
جَاءَ الْإِسْلَامُ بِالتَّسَاوِي بَيْنَ أَفْرَادِ الْإِنْسَانِ، وَأَنْ لَا فَضْلَ لِأَحَدٍ عَلَى أَحَدٍ
إِلَّا بِتَقْوَى اللَّهِ. أَمَرَ الشَّارِعُ أَنْ لَا يُذْكَرَ إِسْمٌ عِنْدَ فِعْلٍ ذِي بَالٍ إِلَّا
إِسْمُ اللَّهِ، إِلَّا إِذَا كَانَ الْفِعْلُ غَيْرَ مَأْذُونٍ فِيهِ مِنْ جِهَةِ الشَّرْعِ، فَجُلَّ
إِسْمُ اللَّهِ أَنْ يَكُونَ ذَرِيعَةً لِفِعْلِهِ، وَالْحِكْمَةُ فِي ذَلِكَ لِكَوْنِهِ تَعَالَى

لَمْ يَأْذَنْ فِيهِ، فَكَأَنَّهُ يَقُولُ لِفَاعِلِهِ: أَنَا مَا شَرَعْتُهُ لَكَ، وَلَا أَذِنْتُ فِيهِ، فَأَنْتَ شَرَعْتَهُ لِنَفْسِكَ، فَافْعَلْهُ بِاسْمِكَ لَا بِاسْمِي. فَمَنْ شَرَعَ شَرْعًا نُسِبَ إِلَيْهِ. ثُمَّ إِنَّ الْبَاءَ فِي بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ جَاءَتْ لِلْإِلْصَاقِ، فَهِيَ مُلْتَصِقَةٌ بِاللَّهِ، لِأَنَّ الِاسْمَ غَيْرُ فَاصِلٍ بَيْنَهُمَا، لِكَوْنِهِ عَيْنَ الْمُسَمَّى عِنْدَ الْقَوْمِ وَجُمْهُورِ الْأَشَاعِرِيَّةِ فَصَارَ الِابْتِدَاءُ بِاللَّهِ، فَمِنْهُ بَدَأَ الْأَمْرُ، وَإِلَيْهِ يَعُودُ.

الِاسْتِنْبَاطُ: يُسْتَخْرَجُ مِنَ الْبَسْمَلَةِ أَرْبَعَةُ أَحْكَامٍ:

الْحُكْمُ الْأَوَّلُ: تَعْيِينُ الِابْتِيَانِ بِهَا عَلَى كُلِّ كَاتِبٍ وَقَارِئٍ، مَهْمَا كَانَ الْمَشْرُوعُ فِيهِ مَحْمُودًا وَيُؤْخَذُ مِنْ تَصْدِيرِهِ تَعَالَى بِهَا أَوَّلَ الْكِتَابِ

الْحُكْمُ الثَّانِي: فَهِمْنَا عَنْهُ تَعَالَى أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُثْنَى عَلَيْهِ مِنْ عِبَادِهِ بِالْجَمَالِيَّةِ، أَكْثَرَ مِنْهَا مِنْ صِفَةِ الْجَلَالِ، وَيُؤْخَذُ مِنْ تَصْدِيرِهِ بِالِاسْمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ نَعْتًا لِلذَّاتِ.

الْحُكْمُ الثَّالِثُ: عَلِمْنَا أَنَّ بَيْنَ الِاسْمَيْنِ بَوْنًا، وَإِنْ مَعَ اشْتِقَاقِهِمَا مِنْ صِيغَةٍ وَاحِدَةٍ، وَإِلَّا كَانَ عَطْفُ الرَّحِيمِ عَلَى الرَّحْمَنِ مِنْ قَبِيلِ

التَّكْرَارِ .

الْحُكْمُ الرَّابِعُ : عَلِمْنَا أَنَّ الْإِسْمَ هُوَ عَيْنُ الْمُسَمَّى ، وَإِلَّا لَمَا صَحَّتْ الْإِسْتِعَانَةُ بِهِ دُونَ مُسَمَّاهُ الَّذِي هُوَ اللَّهُ .

الْإِشَارَةُ : إِنَّ الْتِصَاقَ الْبَاءِ بِاسْمِ الْجَلَالَةِ مَعَ أَنَّهَا لَيْسَتْ مِنْ أُبْنِيَّتِهِ فِيهِ مَا يُشْعِرُنَا بِأَنَّ جَمِيعَ مَا فِي الْوُجُودِ عَلَى اخْتِلَافِ الْحَقَائِقِ وَتَبَايُنِ الطَّرَائِقِ ، إِلَّا وَهُوَ مُلْتَصِقٌ بِاللَّهِ ، وَلَا تَفْهَمْ أَنَّهُ مُمَاسٌّ لَهُ فَجَلَّ رَبُّنَا أَنْ يُمَاسَّهُ شَيْءٌ مِنَ الْحَوَادِثِ ، وَإِنْ لَتَلَاشَى الْحَادِثُ لِعَدَمِ ثُبُوتِهِ ، مَعَ مَنْ لَهُ وَصْفُ الْقِدَمِ ، إِنَّمَا نَعْنِي بِهِ التَّعَلُّقَ وَالتَّحَقُّقَ وَالْمَعْنَى إِنَّهُ قَائِمٌ بِاللَّهِ لَا بِنَفْسِهِ ، فَوُجُودُهُ مُسْتَعَارٌ مِنْ وُجُودِ مُوجِدِهِ عَلَى حَدِّ مَا قِيلَ :

مَنْ لَا وُجُودَ لِذَاتِهِ مِنْ ذَاتِهِ ... فَوُجُودُهُ لَوْلَاهُ عَيْنُ مُحَالِ

وَأَمَّا اسْتِطَالَةُ الْبَاءِ وَخُرُوجُهَا عَنْ مُقْتَضَى عَادَتِهَا فَلَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا لِاتِّصَالِهَا بِالْإِسْمِ ، فَالْمُتَّصِلُ بِالْمُسَمَّى مِنْ أَهْلِ اللَّهِ أَوْلَى بِالْإِرْتِفَاعِ عَلَى أَبْنَاءِ جِنْسِهِ ، وَأَمَّا نِيَابَتُهَا عَنِ الْأَلِفِ الْمَحْذُوفَةِ مِنَ الْإِسْمِ تَشِيرُ إِلَى

نِيَابَةِ الْوَارِثِ الْمُحَمَّدِيِّ عَنِ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ . يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ، وَمَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ . وَأَمَّا مَجِيءُ الْبَسْمَلَةِ فِي ذُرْوَةِ الْكِتَابِ وَسَنَمِهِ يُشِيرُ إِلَى ارْتِفَاعِهِ تَعَالَى وَاسْتِوَائِهِ عَلَى عَرْشِهِ ، وَلَمَّا كَانَ الِاسْتِوَاءُ عَلَى غَيْرِ مَا تَفْهَمُهُ الْعُمُومُ مِنَ الِاحْتِوَاءِ، بَلْ هُوَ مَوْجُودٌ فِي كُلِّ فَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِ الْوُجُودِ . جَاءَتِ الْبَسْمَلَةُ عَلَى ذُرْوَةِ كُلِّ سُورَةٍ، طَالَتْ أَمْ قَصُرَتْ، وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ . ثُمَّ أَنَّ انْدِرَاجَ جَمِيعِ مَا فِي الْكِتَابِ تَحْتَ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ عَلَى مَا جَاءَ فِي بَعْضِ الْأَثَرِ يُشِيرُ إِلَى انْطِوَاءِ جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ فِي وُجُودِ مُوجِدِهَا، وَالْمَعْنَى أَنَّ مَا فِيهَا مُفَرَّعٌ عَمَّا فِيهِ ، وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ . وَأَمَّا تَقْدِيمُ إِسْمِ الْجَلَالَةِ عَلَى غَيْرِهِ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحُسْنَى يُشِيرُ إِلَى تَخْصِيصِ الذَّاتِ بِالسَّابِقِيَّةِ، وَكُمُونِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ فِي حَالِ الْكَنْزِيَّةِ . وَأَوَّلُ إِسْمٍ جَاءَ بِالْبَيَانِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا وَلِهَذَا جَاءَ وَصْفًا لِلَّهِ فِي الْبَسْمَلَةِ دُونَ سَائِرِ الْأَسْمَاءِ ، وَلَوْلَا سَابِقِيَّتُهُ فِي الظُّهُورِ لَمَا جَازَ رُتْبَةَ الِاسْتِوَاءِ دُونَ

الرحمن على العرش استوى فهو السابق من جملة الاسماء دون

غَيْرِهِ مِنْ سَائِرِ الْأَسْمَاءِ الْجَلَالِيَّةِ وَالْجَمَالِيَّةِ، وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ فِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ الْقُدْسِيَّةِ، الَّذِي مَعْنَاهَا الرَّحْمَةُ سَابِقَةٌ لِلْغَضَبِ. فَبِاسْتِوَاءِ **الرَّحْمَنِ** عَلَى الْأَكْوَانِ تَنَعَّمَ الْكَافِرُ وَتَمَرَّدَ الشَّيْطَانُ.

وَأَمَّا اسْمُهُ **الرَّحِيمُ** فَهُوَ آخِرُ التَّنْزِيلَاتِ، فَأَثَرُهُ مُسْتَتِرٌ فِي آثَارِ الْمَخْلُوقَاتِ، وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ فِي الْحَدِيثِ **الرَّحِيمُونَ يَرْحَمُهُمُ اللَّهُ**، وَمَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللَّهَ، فَبِرَحْمَتِهِ فِيهِمُ اسْتَوْجَبُوا الشُّكْرَ، وَالشُّكْرُ لِلَّهِ. وَأَمَّا كَوْنُ الْبَاءِ فِي الْبَسْمَلَةِ تَطْلُبُ مُتَعَلِّقًا وَأَنَّهُ فِعْلٌ وَأَنَّهُ مَحْذُوفٌ، فَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى طَلَبِ الصِّفَةِ مُتَعَلِّقًا يَسْتَوْجِبُ ظُهُورَهَا وَأَنَّ ذَلِكَ الْمُتَعَلِّقَ يَكُونُ فِعْلًا لِلذَّاتِ، غَيْرَ أَنَّهُ يَكُونُ مَحْذُوفًا، أَيْ مُقَدَّرًا فَلَا وُجُودَ لَهُ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ مَعَ مُوجِدِهِ، وَهَذَا هُوَ الْفَرْقُ بَيْنَ الْوُجُودَيْنِ وَهَلْ يُقَدَّرُ مُقَدَّمًا أَوْ مُؤَخَّرًا، فَذَلِكَ بِاعْتِبَارِ الْمُتَوَجِّهِينَ لِلَّهِ، فَالْمُسْتَغْرِقُ فِي عَظَمَةِ اللَّهِ لَا يَرَاهُ الْبَتَّةَ، وَلَا يَصِفُهُ، لَا بِوُجُودٍ وَلَا بِعَدَمٍ، فَضْلًا عَلَى أَنْ يَرَاهُ مُقَدَّمًا أَوْ مُؤَخَّرًا. وَأَمَّا الْمُحَصِّلُ عَلَى رُتْبَةِ الشُّعُورِ فَهُوَ يُقَدِّرُهُ مُؤَخَّرًا، لِأَنَّهُ يَرَاهُ تَعَالَى قَبْلَ رُؤْيَةِ الْفِعْلِ، فَيَسْتَدِلُّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ

وَأَمَّا السَّائِرُ فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ تَقْدِيرِهِ وَرُؤْيَتِهِ قَبْلَ رُؤْيَةِ فَاعِلِهِ، لِيَتَوَصَّلَ بِهِ إِلَيْهِ، وَشَتَّانَ بَيْنَ مَنْ يُسْتَدَلُّ بِهِ، وَبَيْنَ مَنْ يَسْتَدِلُّ عَلَيْهِ.

لِسَانُ الرُّوحِ: إِنَّ الضَّمِيرَ السَّاكِنَ الْمَفْهُومَ مِنْ خَفْضَةِ الْبَاءِ الْمُؤَوَّلِ فِي بَعْضِ الْأَلْسُنِ عَلَى مَا يَقْتَضِيهِ السِّرُّ الْمَصُونُ، بِي كَانَ مَا كَانَ، وَبِي يَكُونُ مَا يَكُونُ هُوَ رَاجِعٌ لِصِفَةِ الْفِعْلِيَّةِ الْمُعَبَّرِ عَنْهَا بِالْقُبْضَةِ النُّورِيَّةِ فِي أَلْسِنَةِ الصُّوفِيَّةِ، فَهِيَ الْقَائِلَةُ بِحَضْرَةِ الْقِدَمِ وَالْكَنْزِ الْمَطْلَسِمِ عَلَى لِسَانِ الْبَاءِ بِالِاسْمِ الْأَعْظَمِ، فَبِي إِسْمُ اللَّهِ، فَأَنْتَ أَظْهَرْتَنِي، كَمَا أَنَا أَظْهَرْتُكَ، فَكَمَا أَنَّكَ رَفَعْتَنِي رَفَعْتُكَ، وَعَرَّفْتَنِي عَرَّفْتُكَ، وَأَنْشَدَ لِسَانُ حَالِهَا قَائِلًا:

فَلَوْلَاكَ مَا كُنَّا وَلَوْلَايَ لَمْ تَكُنْ ... فَكُنْتَ وَكُنَّا وَالْحَقِيقَةُ لَا تُدْرَى

فَإِيَّاكَ نَعْنِي بِالْمَعَزَّةِ وَالْغِنَى ... وَإِيَّايَ نَعْنِي بِالْفَقِيرِ وَلَا فَقْرَى

فَالْقَدِيرُ بِالْمَقْدُورِ قَادِرٌ، وَالْبَصِيرُ بِالْمَبْصُورِ بَاصِرٌ. وَهَكَذَا النَّضَائِرُ. وَلَمَّا كَانَتِ الْأَفْعَالُ مَظْهَرًا لِلْأَسْمَاءِ، وَالصِّفَاتِ دُونَ الذَّاتِ الْتَصَقَتِ الْبَاءُ بِالِاسْمِ دُونَ الْمُسَمَّى الَّذِي هُوَ اللَّهُ، لِتَكُونَ إِشَارَتُهَا عَائِدَةً عَلَيْهِ فِي

الإظهارِ. وَأمَّا الذَّاتُ فَهِيَ الَّتِي أَوجَبَتْ لَهَا الإِضْمارَ، لأَنَّهُ تَعَالَى ظَاهِرٌ بِذَاتِهِ، مَالَمْ يَعْتَبِرِ الفِعْلَ، وَإلاَّ كَانَ بَاطِنًا بِذَاتِهِ، ظَاهِرًا بِصِفَاتِهِ.

فَاتِحَةُ الكِتَابِ

سَبْعُ آيَاتٍ وَتُسَمَّى أُمَّ الكِتَابِ أَيْضًا

وَفِي كَوْنِ البَسْمَلَةِ آيَةً مِنْهَا أَوْهِيَ آيَةٌ مِنْ كُلِّ سُورَةٍ، أَوْلَيْسَتْ آيَةً إلاَّ فِي سُورَةِ النَّمْلِ، أَوغَيْرِ ذَلِكَ اِخْتَلَفَتِ الرِّوَايَاتُ، وَالأَوْلَى عَدَمُ القَطْعِ بِذَلِكَ، وَالإِتْيَانُ بِهَا فِي أَوَّلِ الفَاتِحَةِ فِي الصَّلاَةِ احْتِيَاطًا، ثُمَّ أَنَّ الإِضَافَةَ فِي تَسْمِيَتِهَا عَلَى مَعْنَى اللاَّمِ أَيْ فَاتِحَةٌ لِلْكِتَابِ، وَلَوْكَانَتِ الإِضَافَةُ عَلَى مَعْنَى مِنْ لَصَارَتِ المَعْنَى فَاتِحَةٌ مِنَ الكِتَابِ، وَالحَالَةُ أَنَّ الكِتَابَ مِنْهَا لاِشْتِمَالِهَا عَلَى مَعَانِيهِ، وَإِذَا قُلْنَا هِيَ فَاتِحَتُهُ وَأُمٌّ لَهُ لَزِمَ أَنْ تَكُونَ خَارِجَةً عَلَيْهِ خُرُوجَ الأُمِّ عَلَى الاِبْنِ ضَرُورَةً، وَلِهَذَا لَمْ تُرْسَمْ فِي المُصْحَفِ عِنْدَ بَعْضِ الصَّحَابَةِ، وَهُوَ غَيْرُ مُتَنَاوِلٍ لِلْفِكْرِ العَامِّ مِنْ جِهَةِ كَوْنِهَا خَارِجَةً عَنْهُ مَوْجُودَةً فِيهِ.

الإِشَارَةُ: فَذَاتُ البَارِي جَلَّ ذِكْرُهُ بَائِنَةٌ عَنِ الكَوْنِ مَوْجُودَةٌ فِيهِ

فَيَبُونِيَّتُهَا عَنْهُ مِنْ حَيْثُ الرُّتْبَةِ التَّنْزِيهِيَّةِ وَالْكَيْنُونِيَّةِ مِنْ حَيْثُ الْقَيُّومِيَّةِ وَلَا تَقُلْ بِانْفِرَادِ أَحَدِ الشِّقَّيْنِ، لِأَنَّ الْأَوَّلَ مَحَطُّ الِانْفِصَالِ، وَالثَّانِي مَظَنَّةُ الِاتِّصَالِ، وَكِلَاهُمَا مُحَالٌ لِعَدَمِ الْمُنْفَصِلِ عَنْهُ وَالْمُتَّصِلِ بِهِ.

وَلَا يُوهِمَنَّكَ وُجُودُ الظِّلَالِ، فَالْمُخَيَّلُ لَا يُثَنَّى بِوُجُودِ الْخَيَالِ، فَكُلُّ شَيْءٍ يُشْفَعُ بِمِثْلِهِ وَيُضَمُّ لِشَكْلِهِ، وَالْحَقُّ لَيْسَ كَمِثْلِهِ.

الْحِكْمَةُ: إِنَّ تَصَدُّرَ الْفَاتِحَةِ فِي أَوَّلِ الْكِتَابِ فِيهِ رَحْمَةٌ مِنَ اللَّهِ بِالْقَارِئِ، وَتَعْلِيمٌ وَتَلْقِينٌ وَتَوْقِيفٌ لِلْعَبْدِ عَلَى خُطَّةِ الْأَدَبِ لِيَقُومَ بِمَا وَجَبَ عَلَيْهِ مِنَ الشُّكْرِ، حَيْثُ صَيَّرَهُ أَهْلًا لِمُوَاصَلَتِهِ تَعَالَى، وَهِيَ نِعْمَةٌ لَا يُوَازِنُهَا شُكْرٌ، وَكَانَ الْعَبْدُ أَبْعَدَ مِنْ أَنْ يَتَفَطَّنَ لِمِثْلِ ذَلِكَ، وَحَتَّى لَوْ تَنَبَّهَ، لَمْ يَدْرِ مَا هِيَ صِيغَةُ الْحَمْدِ، وَمَا هِيَ الْكَيْفِيَّةُ الَّتِي تُطْلَبُ مِنْهُ عِنْدَ تَنَاوُلِ الْكِتَابِ وَالْوُقُوفِ مَعَ اللَّهِ فِي حَالَةِ الِاقْتِرَابِ، فَجَاءَتِ الْفَاتِحَةُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى كَافِلَةً بِجَمِيعِ ذَلِكَ، وَأَجْرَاهَا اللَّهُ عَلَى لِسَانِ كُلِّ مُتَنَاوِلِ الْكِتَابِ، قَصَدَ أَوْ لَمْ يَقْصِدْ، فَهُوَ آخِذٌ بِحَظٍّ مِنَ الشُّكْرِ عَلَى كُلِّ حَالٍ، فَإِنَّهُ أَوَّلُ مَا يُجْرِيهِ اللَّهُ عَلَى لِسَانِهِ أَنْ يَخُصَّهُ تَعَالَى

بِجَمِيعِ الْمَحَامِدِ، ثُمَّ يَعْتَرِفُ لَهُ بِالرُّبُوبِيَّةِ، وَأَنَّ لَا رَبَّ سِوَاهُ فِي جَمِيعِ الْعَالَمِينَ عَلَى مَا تَقْتَضِيهِ الْإِضَافَةُ. وَلَمَّا كَانَ الْمَرْبُوبُ قَدْ يَعْتَرِفُ لِرَبٍّ بِرُبُوبِيَّتِهِ عَلَيْهِ بِدُونِ مَيْلٍ وَلَا حُنُوٍّ عَلَيْهِ، فَاسْتَجْلَبَهُ تَعَالَى وَاسْتَعْطَفَهُ بِحَنَانِهِ وَلُطْفِهِ بِأَنْ قَالَ لَهُ إِنَّ الرَّبَّ الَّذِي أَنْتَ مَرْبُوبٌ مِنْ أَجْلِهِ رَحْمَنٌ رَحِيمٌ، لِتَتَعَلَّقَ الْعُبُودِيَّةُ بِالرُّبُوبِيَّةِ تَعَلُّقَ رَغْبَةٍ لَا رَهْبَةٍ، وَلَمَّا اسْتَوْثَقَتْ مِنْ حَضْرَةِ التَّكْرِيمِ، وَاسْتَوْطَنَتْ بَيْنَ الِاسْمَيْنِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ خَشِيَ تَعَالَى أَنْ يَغْمُرَهَا مِنَ الرَّحَمَاتِ مَا يُخْرِجُهَا مِنْ مُقْتَضَى التَّعَبُّدَاتِ، فَأَوْقَفَهَا تَعَالَى عِنْدَ مَرْكَزِ الِاعْتِدَالِ فَاسْتَجْلَبَهَا بِالْجَمَالِ وَهَدَّدَهَا بِالْجَلَالِ، فَأَخَذَتْ حَظًّا مِنَ التَّمْكِينِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ، وَبِمَا أَجْرَاهُ عَلَى لِسَانِهَا مِنْ صِفَةِ الْعَدْلِ وَأَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ يَوْمِ الْفَصْلِ، فَلَزِمَ بِالطَّبْعِ أَنْ تَلْتَجِئَ إِلَى حِصْنٍ حَصِينٍ فَلَقَّنَهَا تَعَالَى أَنْ تَقُولَ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ. فَبِالشِّقِّ الْأَوَّلِ تُقَاوِمُ الْعَدْلَ، وَبِالثَّانِي تَسْتَوْجِبُ الْفَضْلَ. وَلَمَّا كَانَ الشِّقُّ الْأَوَّلُ لَا يَقُومُ بِانْفِرَادِهِ، لِأَنَّهُ فِي الْغَالِبِ مَعْلُولٌ. وَالشِّقُّ الثَّانِي

مُتَعَذِّرُ الْحُصُولِ، وَفِي الْغَالِبِ يَكُونُ دَعْوَةً بِاللِّسَانِ، وَالدَّعْوَةُ تَحْتَاجُ إِلَى بَيَانِ أَلْهَمَهَا تَعَالَى أَنْ تَسْأَلَ الْهِدَايَةَ إِلَى ذَلِكَ السَّبِيلِ الْقَوِيمِ بِقَوْلِهِ إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، وَلَمَّا كَانَ الْعَبْدُ قَدِ اخْتَرَعَ لِنَفْسِهِ صِرَاطًا فَقَيَّدَهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ. فَاتَّضَحَ أَنَّ الصِّرَاطَ الْمَسْؤُولَ فِي السُّورَةِ لَا يَكُونُ إِلَّا بَيْنَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، وَمِنْ تَمَامِ لُطْفِهِ تَعَالَى بِالْعَبْدِ أَنْ حَذَفَ كَلِمَةَ قُلْ مِنَ الْفَاتِحَةِ جَرْيًا عَلَى خِلَافِ عَادَتِهِ مِنْ تَصْدِيرِهَا فِي أَوَائِلِ الْخِطَابِ، كَقَوْلِهِ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ فِي غَيْرِ الْفَاتِحَةِ. وَكُلُّ هَذَا لِيَكُونَ الْعَبْدُ هُوَ الْحَامِدَ حَقِيقَةً، قَائِلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ، حَالَةَ وُقُوفِهِ مَعَ اللَّهِ، أَوْ حَالَةَ تَنَاوُلِ الْكِتَابِ بِخِلَافِ مَا لَوْ جَاءَ فِي أَوَّلِهَا قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ.

الْإِشَارَةُ: تُفِيدُ أَنَّ الْعِبَادَةَ عُبُودَةٌ، وَأَنَّ الْحَقَائِقَ فِي الشَّرَائِعِ مَوْجُودَةٌ وَهِيَ سَرِيرَةٌ خُصِّصَتْ بِالْخَفَى تَدِقُّ عَنِ الْبَصَائِرِ فَضْلًا عَنِ الْأَبْصَارِ وَهِيَ الَّتِي تَصِحُّ الْوُقُوفُ مَعَ اللَّهِ لِأَحَدٍ وَإِنْ كَانَ يَتَوَاجَدُ، وَتَنْفِيهِ عَنِ

الآخِرِ، وَإِنْ كَانَ يَتَعَبَّدُ، وَلَوْلَا أَنَّ فِي الصَّلَاةِ غَايَةً، وَفِي السَّيْرِ نِهَايَةً مَا أَجْرَى اللَّهُ عَلَى لِسَانِ الْعَبْدِ وَهُوَ فِي الصَّلَاةِ أَنْ يَسْأَلَ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، فَفَهِمْنَا مِنْ هَذَا أَنَّ فِعْلَ الْجَوَارِحِ لَيْسَ هُوَ بِالْغَايَةِ كَافِلٌ وَإِلَّا كَانَ الْمَسْؤُولُ مِنْ قَبِيلِ تَحْصِيلِ الْحَاصِلِ.

التَّفْسِيرُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. الْحَمْدُ هُوَ الثَّنَاءُ بِالْجَمِيلِ عَلَى مَا يَسْتَوْجِبُهُ، وَالْأَلِفُ وَاللَّامُ فِي الْحَمْدِ لِلْجِنْسِ، وَاللَّامُ فِي لِلَّهِ لِلِاسْتِحْقَاقِ فَتَصِيرُ الْمَعْنَى أَنَّ الْحَمْدَ مِنْ حَيْثُ هُوَ، وَعَلَى أَيِّ لِسَانٍ بَرَزَ رَاجِعٌ لِلَّهِ، شَعَرَ الْحَامِدُ أَوْ لَمْ يَشْعُرْ، فَيَكُونُ شُكْرُكَ زَيْدًا لِكَرَمِهِ، وَمَدْحُكَ اللُّؤْلُؤَ لِصَفَائِهِ رَاجِعٌ لِلَّهِ، وَيَكُونُ هُوَ الْمَحْمُودَ تَعَالَى بِكُلِّ لِسَانِ الْمَعْبُودِ بِكُلِّ جَنَانٍ، لِأَنَّ الْجَمَالَ مِنْ حَيْثُ هُوَ مُسْتَعَارٌ مِنْ جَمَالِهِ، فَلَا يَرْجِعُ الْحَمْدُ بِهَذَا الِاعْتِبَارِ إِلَّا إِلَيْهِ، وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، طَوْعًا أَوْ كُرْهًا، وَلِهَذَا يُقَالُ: لَوْ حَمِدُوا، وَأَيَّ شَيْءٍ حَمِدُوا، مَا حَمِدُوا غَيْرَهُ. وَلَوْ عَبَدُوا، وَأَيَّ شَيْءٍ عَبَدُوا، مَا عَبَدُوا غَيْرَهُ. ثُمَّ أَنَّ إِسْمَ الْجَلَالَةِ عَالَمٌ عَلَى الذَّاتِ الْمُسْتَحِقَّةِ لِجَمِيعِ الْمَحَامِدِ، وَلِهَذَا كَانَ الْحَمْدُ لَهُ لَا لِغَيْرِهِ مِنَ الْأَسْمَاءِ

لِأَنَّ إِسْمَ الصِّفَةِ لَا يَسْتَوْجِبُ سَائِرَ الْمَحَامِدِ مِنْ كُلِّ الْوُجُوهِ كَمَا يَسْتَوْجِبُهُ إِسْمُ الذَّاتِ، وَأَمَّا إِسْمُ الرَّبِّ فَهُوَ اللَّائِقُ بِالْعَالَمِينَ مِنْ غَيْرِهِ، فَلِهَذَا أُضِيفَ لَهَا، فَهُوَ كَافِلٌ بِتَرْبِيَتِهَا كَيْفَمَا تَنَوَّعَتْ، وَحَيْثُمَا كَانَتْ وَانْتَشَرَتْ وَمِنْ رَأْفَةِ هَذَا الْإِسْمِ وَتَرْبِيَتِهِ لِلْمَوْجُودِ أَنَّهُ يَشْتَغِلُ بِالْعَبْدِ، حَتَّى كَأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ عَبْدٌ سِوَاهُ، مَعَ أَنَّ الْعَبْدَ يَغْفَلُهُ وَيُخَالِفُهُ، حَتَّى كَأَنَّ لَهُ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقَةٌ، وَلَوْ تَأَمَّلَ تَرْبِيَتَهُ لَهُ مِنْ حَيْثُ انْفِصَالُهُ مِنْ صُلْبِ أَبِيهِ نُطْفَةً إِلَى رَحِمِ أُمِّهِ سُلَالَةً، إِلَى أَنْ صَارَ مُضْغَةً، ثُمَّ عَلَقَةً، ثُمَّ وَثُمَّ إِلَى أَنْ صَارَ سَمِيعًا بَصِيرًا لَقَالَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ. ثُمَّ أَنَّ الْعَالَمِينَ جَمْعُ عَالَمٍ، وَهُوَ عِبَارَةٌ عَمَّا سِوَى اللَّهِ فِي الْجُمْلَةِ، وَمَجِيئُهُ بِهَذِهِ الصِّيغَةِ يُفِيدُنَا أَنَّ لَهُ تَعَالَى عَوَالِمُ لَا غَايَةَ لَهَا مِنْ جِهَةِ الْكَثْرَةِ. قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: إِنَّ لِلَّهِ تَعَالَى ثَمَانِيَةَ عَشَرَ أَلْفِ عَالَمٍ كَعَالَمِكُمْ هَذَا. وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، إِنَّ لِلَّهِ أَرْبَعِينَ أَلْفِ عَالَمٍ، الدُّنْيَا مِنْ مَشْرِقِهَا إِلَى مَغْرِبِهَا عَالَمٌ وَاحِدٌ. ذَكَرَهُ السَّبْزَخِيتِي. وَقَالَ كَعْبُ الْأَحْبَارِ مَا يُحْصِي عَدَدَ الْعَوَالِمِ إِلَّا اللَّهُ. وَعَلَى هَذَا يُحْمَلُ الْحَصْرُ فِي الْحَدِيثِ عَلَى

التَّكْثِيرِ، وَلَا وِجْهَةَ لِمَنْ حَصَرَ الْعَوَالِمَ فِي هَذِهِ الْكُرَةِ الْأَرْضِيَّةِ، إِلَّا عَدَمُ انْتِبَاهِهِ لِسِعَةِ مُلْكِ اللَّهِ، وَلَوِ الْتَفَتَ الْإِنْسَانُ مِنْ خَلْفِهِ وَعَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ لَوَجَدَ مَا فَاتَهُ أَكْثَرَ مِمَّا حَصَّلَ عَلَيْهِ لَوْ تَمَعَّنَ فِي أَحَدِ الْكَوَاكِبِ الصِّغَارِ لَوَجَدَ فِيهِ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ وَكُبْرِ الْجُرْمِ مَا يُغْنِي عَنِ الْإِعْتِبَارِ. ذَكَرَ الْغَزَالِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَخَلَ عَلَى أَصْحَابِهِ ذَاتَ يَوْمٍ، وَهُمْ يَتَفَكَّرُونَ، فَقَالَ: مَا لَكُمْ لَا تَتَكَلَّمُونَ. فَقَالُوا: نَتَفَكَّرُ فِي خَلْقِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. قَالَ: فَكَذَلِكَ فَافْعَلُوا تَفَكَّرُوا فِي خَلْقِهِ، وَلَا تَتَفَكَّرُوا فِيهِ، فَإِنَّ بِهَذَا الْمَغْرِبِ أَرْضًا بَيْضَاءَ، نُورُهَا وَبَيَاضُهَا نُورُهَا بَيَاضُهَا، مَسِيرَةُ الشَّمْسِ فِيهَا أَرْبَعُونَ يَوْمًا، بِهَا خَلْقٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، لَمْ يَعْصُوا اللَّهَ طَرْفَةَ عَيْنٍ. فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَأَيْنَ الشَّيْطَانُ مِنْهُمْ. فَقَالَ: لَا يَدْرُونَ خُلِقَ الشَّيْطَانُ أَمْ لَا. فَقَالُوا: أَمِنْ أَوْلَادِ آدَمَ؟ قَالَ: لَا يَدْرُونَ خُلِقَ آدَمُ أَمْ لَا. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ لِلَّهِ أَرْضًا بَيْضَاءَ، مَسِيرَةُ الشَّمْسِ فِيهَا ثَلَاثُونَ يَوْمًا مِثْلُ أَيَّامِ الدُّنْيَا، مَشْحُونَةٌ بِخَلْقِ

اللَّهِ، لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُعْصَى فِي الْأَرْضِ، وَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ آدَمَ وَإِبْلِيسَ. ذَكَرَهُ الْخَزَالِي فِي جَوَاهِرِ الْقُرْآنِ. وَبِالْجُمْلَةِ إِنَّ حَصْرَ الْعَوَالِمِ فِي جِرْمِ الْأَرْضِ هُوَ مِنَ التَّحَكُّمِ عَلَى اللَّهِ، وَلَيْسَ هُوَ مِنَ الْعِلْمِ فِي شَيْءٍ. وَإِنِّي جَمَعْتُ كِتَابًا فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِهَذَا الْبَابِ، وَسَمَّيْتُهُ «مِفْتَاحُ الشُّهُودِ فِي مَظَاهِرِ الْوُجُودِ»، فَرَاجِعْهُ فَإِنَّهُ مِنْ أَعْجُوبَةِ الدَّهْرِ. قَوْلُهُ تَعَالَى:

الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ: هُمَا إِسْمَانِ، أَحَدُهُمَا جَامِعٌ، وَالْآخَرُ مَانِعٌ، فَقَوْلُنَا فِي الْأَوَّلِ جَامِعٌ أَيْ كَافِلٌ بِجَلَائِلِ النِّعَمِ، فَكُلُّ نِعْمَةٍ تُدْرَكُ بَدَاهَةً يَسْتَشْعِرُهَا الْعَبْدُ مِنْ نَفْسِهِ، فَهِيَ مِنْ آثَارِ الرَّحْمَنِ، وَمَا دَقَّ وَرَقَّ هُوَ مِنْ آثَارِ الرَّحِيمِ. وَقَوْلُنَا فِي الثَّانِي مَانِعٌ أَيْ مِنْ أَنْ يَكُونَ لِغَيْرِهِ فِي الرَّحِيمِيَّةِ أَدْنَى اكْتِسَابٍ، إِلَّا مُجَرَّدَ الِانْتِسَابِ لِمَنْ صَدَرَتْ عَلَى يَدَيْهِ. الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ اللَّهُ.

لِسَانُ الرُّوحِ: فِي الرَّحِيمِ مِنَ الْمُبَالَغَةِ مَا لَيْسَ فِي الرَّحْمَنِ، فَهُوَ بِالْجُزْئِيَّاتِ أَلْيَقُ، وَبِالْعُبُودِيَّةِ أَشْفَقُ، يَبْذُلُ مِنَ الْفَيَاضِ مَا وَافَقَ

إِذ يستبدُّ مسوطنة السفلية يتلطف مع الكبير، ويتعطّف على الصغير، فهو بالتواضع حقيقٌ قائمٌ على كلّ طريقٍ، يسقي الظمآن، ويغيث اللهفان، ويطعم الجيعان، ويقود الأعمى، ويؤنس الغريب، ويعود المريض، فلو رأيته لأشفقت من حاله، وبالأخصّ عند التنزّل الأخير حيث اتّصل بالأرحام ليستخرج الجنين بين فرثٍ ودمٍ.

التفسير: قوله تعالى:

مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ: أي يوم الجزاء. ففيه توفّى كلّ نفسٍ ما كسبت ولولا ذكره تعالى هذه الجملة عقب الرحمن الرحيم، لما التجأت الموجودات أن تقول: إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ لما أغمرها من فياض الرحمانيّة وأنوار الرحيميّة. ثمّ أنّ العبادة جاءت على شقّين، فظاهرها إِيَّاكَ نَعْبُدُ، وباطنها إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ، والظاهر يعتبر بباطنه. فالشقّ الأوّل يثبت وجود الكسب، والثاني ينفيه، والنجاة فيما بين ذلك، فالآخذ بالشقّ الآخر يخشى منه، والآخذ بالأوّل يخشى عليه.

الإِشَارَةُ : فِي قَوْلِهِ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ تَشْعِرُنَا بِلُزُومِ ارْتِبَاطِ الشَّرِيعَةِ بِالْحَقِيقَةِ ، فَالشِّقُّ الأَوَّلُ مِنَ الآيَةِ شَرِيعَةٌ ، وَالشِّقُّ الثَّانِي مِنْهَا حَقِيقَةٌ ، الأَوَّلُ يُثْبِتُ شَيْئًا مِنَ الْكَسْبِ ، وَالثَّانِي يَنْفِيهِ ، فَالأَوَّلُ لِلنَّظَرِ الْعَامِّ أَقْرَبُ ، وَالثَّانِي عِنْدَ الْخَوَاصِّ أَرْغَبُ ، لِأَنَّ الأَوَّلَ عَمَلٌ لِلَّهِ ، وَالثَّانِي عَمَلٌ بِاللَّهِ ، فَالأَوَّلُ عَمَلُ الأَبْرَارِ ، لِأَنَّهُمْ قَائِمُونَ لِلَّهِ ، وَالثَّانِي عَمَلُ الْمُقَرَّبِينَ ، لِأَنَّهُمْ قَائِمُونَ بِاللَّهِ ، فَالأَوَّلُ غَايَتُهُ طَلَبُ الْجَزَى وَالثَّانِي كَفَى بِهِ جَزَى ، لِأَنَّ الأَوَّلَ عِلَّتُهُ لِأَدَاءِ وَاجِبِ التَّكْلِيفِ ، وَالثَّانِي زُبْدَةُ نَتَائِجِ التَّعْرِيفِ ، فَالشِّقُّ الأَوَّلُ مُكَابَدَةٌ ، وَالثَّانِي مُشَاهَدَةٌ ، فَهَذَا يَتَأَلَّمُ فِي عِبَادَتِهِ ، وَالآخَرُ يَتَنَعَّمُ فِي مُشَاهَدَتِهِ ، كُلاًّ نُمِدُّ ، هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ . وَقُدِّمَتِ الْعِبَادَةُ عَلَى الإِسْتِعَانَةِ نَظَرًا لِلْمَقَامِ الْعَامِّ ، حَيْثُ يَعْتَبِرُ الْفِعْلَ قَبْلَ مُجْرِيهِ ، وَأَمَّا النَّظَرُ الْخَاصُّ يَعْتَبِرُهَا مُؤَخَّرَةً ، فَهُوَ غَائِبٌ عَنْهَا فِي شُهُودِ مُجْرِيهَا ، فَالأَوَّلُ يَسْتَعَانُ بِالْعِبَادَاتِ عَلَيْهِ ، وَالثَّانِي يَسْتَعَانُ بِهِ عَلَيْهَا ، فَيَكُونُ هُوَ الْفَاعِلُ فِيهَا لَا غَيْرُ ، وَفِي تَقَدُّمِ ضَمِيرِ الْمَعْبُودِ وَاتِّصَالِ ضَمِيرِ الْعُبُودِيَّةِ ، وَتَأْخِيرِ

الْعِبَادَةِ فِي قَوْلِهِ إِيَّاكَ نَعْبُدُ مَا يُشْعِرُ الْعَبْدَ بِقُرْبِهِ مِنَ اللَّهِ بِالْأَصَالَةِ مَهْمَا عَرَفَ مَكَانَتَهُ مِنَ اللَّهِ قَبْلَ وُجُودِ الْعِبَادَةِ، فَلَا تَكُونُ الْعِلَّةَ فِي تَحْقِيقِ الْإِتِّصَالِ، لِقَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: لَنْ يَدْخُلَ أَحَدُكُمُ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ، وَالْمَعْنَى أَنَّ وُجُودَ الْعَبْدِ أَسْبَقُ مِنَ الْعِبَادَةِ، فَالْمَعْرِفَةُ ثُمَّ الْعِبَادَةُ فَالْمَعْرِفَةُ تَسْتَلْزِمُ الْعِبَادَةَ وَلَا عَكْسَ. وَأَمَّا انْتِقَالُهُ تَعَالَى مِنْ ضَمِيرِ الْغَيْبَةِ إِلَى ضَمِيرِ الْحُضُورِ مِنْ قَوْلِهِ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، إِلَى قَوْلِهِ: إِيَّاكَ نَعْبُدُ، فِيهِ تَعْلِيمٌ لِلْمُتَوَجِّهِ، كَيْفَ يَنْتَهِي سَيْرُهُ مِنَ الْغَيْبَةِ عَنِ اللَّهِ إِلَى الْحُضُورِ مَعَهُ، إِلَى أَنْ تَحْذِفَ الْوَسَائِطُ، وَيَصِيرُ الْخِطَابُ بَيْنَ مُخَاطِبٍ وَمُخَاطَبٍ، إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ، لَا غَيْرُ.

<u>لِسَانُ الرُّوحِ</u>: يَفْنَى ضَمِيرُ النُّونِ مِنْ إِيَّاكَ نَعْبُدُ فِي ضَمِيرِ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ، حَتَّى إِذَا انْحَصَرَتِ الْعِبَادَةُ فِي الْإِسْتِعَانَةِ، بَقِيَتِ الْإِسْتِعَانَةُ وَالْمُعِينُ، فَأَيْنَ الْعِبَادَةُ وَالْعَبْدُ، إِنْ كُنْتَ ذَا يَقِينٍ، فَسِرُّهُ يَخْبُرُهُ وَحَقِيقَتُهُ تَشْهَدُهُ مَا عَرَفَ اللَّهَ مَنْ قَالَ إِيَّاكَ نَعْبُدُ، وَلَا عَبَدَهُ مَنْ قَالَ: إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ

التَّفْسِيرُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ.

الْهِدَايَةُ أَنْوَاعٌ، وَهِيَ عِبَارَةٌ عَنْ مَلَكَةٍ تَحْدُثُ فِي الْإِنْسَانِ وَفِي غَيْرِهِ مِنَ الْحَيَوَانِ، تُلْهِمُهُ الْمَنَافِعَ وَالْمَضَارَّ، بِقَدْرِ اسْتِعْدَادِهِ لِذَلِكَ وَهِيَ فِي الْإِنْسَانِ عَلَى شِقَّيْنِ، فَالشِّقُّ الْأَسْفَلُ مِنْهَا يَتَّصِلُ بِالْحَيَوَانِ وَالشِّقُّ الْأَعْلَى مِنْهَا يَتَّصِلُ بِمَلَائِكَةِ الرَّحْمَنِ، وَهُوَ الْمُرَادُ بِهِ. ثُمَّ إِنَّهُ فِي الْإِنْسَانِ عَلَى قِسْمَيْنِ أَيْضًا، فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَاهُ اللَّهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ زَادَهُمْ هُدًى، فَأَمَّا مَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ، بِأَنْ أَوْقَفَهُ عَلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، فَانْتَهَى بِهِ السَّيْرُ إِلَى جَنَّةِ النَّعِيمِ، فَقَدِ اهْتَدَى، وَأَمَّا مَنْ زَادَهُ هُدًى فَهُوَ الْمُشَارُ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ. ثُمَّ إِنَّ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ هُوَ عِبَارَةٌ عَنْ شَرِيعَةٍ نَبَوِيَّةٍ وَحُظَّةٍ سَمَاوِيَّةٍ وَهَذَا بِاعْتِبَارِ الْعِبَادَةِ الْعَمَلِيَّةِ، وَأَمَّا بِاعْتِبَارِ الْعِبَادَةِ الْعَقْلِيَّةِ أَوْ نَقُولُ الْإِعْتِقَادِيَّةِ فَهُوَ عِبَارَةٌ عَنْ حُظَّةٍ جَامِعَةٍ بَيْنَ طَرَفَيِ الْمُنَاقِضَيْنِ نَحْوَ الْإِفْرَاطِ وَالتَّفْرِيطِ، فَهُوَ أَدَقُّ شَيْءٍ عَلَى الْإِدْرَاكِ، يَتَعَذَّرُ سُلُوكُهُ بِالْإِنْفِرَادِ مَعَ وُجُودِ الْإِسْتِعْدَادِ. فَالْوَاقِفُونَ عَلَيْهِ كَثِيرُونَ، وَالسَّائِرُونَ

عَلَيْهِ قَلِيلُونَ، وَالْوَاصِلُونَ أَقَلُّ.

لِسَانُ الرُّوحِ: سَأَلْتَ مَسْؤُولاً عَنْ صِرَاطِ الْعُقُولِ، فَأَجَابَ قَائِلاً: خُطَّةٌ رَقِيقَةٌ وَسِيمَةٌ دَقِيقَةٌ، مُتَحَذِّرَةُ السُّلُوكِ، كَثِيرَةُ الشُّكُوكِ، بَيْنَ جَبْرٍ وَاعْتِزَالٍ مَبْدَؤُهُ، وَتَنْزِيهٍ وَتَشْبِيهٍ وَسَطُهُ، وَجَبْرِيَّةٍ وَتَكْلِيفٍ غَايَتُهُ. فَالْمَيْلُ لِأَحَدِ الشِّقَّيْنِ مُضِرٌّ، وَالْجَمْعُ بَيْنَهُمَا مُتَعَذِّرٌ إِلَّا لِذِي الْجَنَاحَيْنِ الْمُسَمَّى بِوَاحِدٍ فِي اثْنَيْنِ. قُلْتُ عَزَّ الْمَنَالُ، وَنَدِمْتُ عَنِ السُّؤَالِ.

التَّفْسِيرُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ.

فَائِدَةُ الْإِتْيَانِ بِهَذِهِ الْجُمْلَةِ التَّنْصِيصُ عَنِ الصِّرَاطِ الْأَوَّلِ، لِأَنَّ الثَّانِي بَدَلٌ مِنْهُ، وَفِيهَا بَيَانٌ لِوَصْفِهِ بِالْإِضَافَةِ، وَتَحْذِيرٌ مِنَ الْمَيْلِ إِلَى أَحَدِ الشِّقَّيْنِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ. ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّ مَنْ ضَلَّ عَنِ السَّبِيلِ أَقْرَبُ فِي الرُّجُوعِ إِلَيْهِ مِنَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِ، وَبَيَانُ ذَلِكَ أَنَّ مَنْ ضَلَّ عَنِ الصِّرَاطِ لَيْسَ بِمَغْضُوبٍ عَلَيْهِ، فَهُوَ فِي التِّيهِ، إِلَى أَنْ يَأْخُذَ اللَّهُ بِيَدِهِ. إِنَّمَا الْمَغْضُوبُ عَلَيْهِ مَنْ عَرَفَ الصِّرَاطَ وَلَمْ يَسْلُكْهُ

وَعَرَفَ الْحَقَّ حَقًّا وَلَمْ يَتَّبِعْهُ ، أَلَا تَرَى أَنَّهُ نَسَبَ الضَّلَالَةَ لَهُمْ ، وَالْغَضَبَ لِنَفْسِهِ ، فَمَنْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ أَشَدُّ حَضْرَةً مِمَّنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَالْمُلْتَجَأُ لِلَّهِ مِنْهُمَا مَعًا .

الْإِسْتِنْبَاطُ : يُسْتَخْرَجُ مِنْ قَوْلِهِ الْحَمْدُ لِلَّهِ إِلَى قَوْلِهِ وَلَا الضَّالِّينَ إِثْنَا عَشَرَ حُكْمًا :

الْأَوَّلُ : عَلِمْنَا أَنَّهُ لَا شَيْءَ أَسْرَعُ مِنْ مَرْضَاةِ اللَّهِ مِنَ الْإِعْتِرَافِ لَهُ بِإِنْعَامِهِ مِنْ تَصْدِيرِهِ تَعَالَى بِجُمْلَةِ الْحَمْدِ فِي أَوَّلِ الْكِتَابِ .

الثَّانِي : عَلِمْنَا بِاعْتِرَافِهِ تَعَالَى لِعَبْدِهِ بِالْمَرْبُوبِيَّةِ وَإِنْ لَمْ يَعْتَرِفْ لَهُ الْعَبْدُ بِالرُّبُوبِيَّةِ مِنْ قَوْلِهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، حَيْثُ سَوَّى بَيْنَ أَفْرَادِ الْعَالَمِ عَلَى مَا تَقْتَضِيهِ الْإِضَافَةُ .

الثَّالِثُ : عَلِمْنَا بِوُجُودِ عَوَالِمَ لَا تُحْصَى كَثْرَةً مِنْ ذِكْرِهِ لَهَا تَعَالَى بِصِيغَةِ الْجَمْعِ .

الرَّابِعُ : عَلِمْنَا بِأَنَّ الْجَمَالِيَّةَ فِي نُعُوتِ الْأُلُوهِيَّةِ أَسْبَقُ مَكَانَةً مِنَ الْجَلَالِيَّةِ مِنْ تَقَدُّمِ الِاسْمَيْنِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ عَلَى غَيْرِهِمَا

مِنْ سَائِرِ الأَسْمَاءِ .

الخَامِسُ : عَلِمْنَا بِأَنَّهُ تَعَالَى لَا يَظْهَرُ فِي يَوْمِ الْجَزَاءِ إِلَّا بِصِفَةِ العَدْلِ لَا بِالْجَمَالِيَّةِ المَحْضِ ، وَلَا بِالْجَلَالِيَّةِ الْمَحْضِ مِنْ قَوْلِهِ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ .

السَّادِسُ : عَلِمْنَا بِأَنَّ الإِسْلَامَ جَاءَ عَلَى شِقَّيْنِ ، تَحْقِيقاً وَتَشْرِيعاً مِنْ قَوْلِهِ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ .

السَّابِعُ : عَلِمْنَا بِأَنَّ الْحَقِيقَةَ لَا يَتَوَصَّلُ إِلَيْهَا السَّاعِي فِي الْغَالِبِ إِلَّا بَعْدَ مَا يَبْذُلُ جُهْدَهُ فِيمَا وَجَبَ عَلَيْهِ مِنْ تَقْدِيمِهِ تَعَالَى إِيَّاكَ نَعْبُدُ عَلَى إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ .

الثَّامِنُ : عَلِمْنَا بِمَطْلُوبِيَّةِ الْجَمَاعَةِ فِي الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ مِنْ إِتْيَانِهِ تَعَالَى بِضَمِيرِ الْجَمْعِ فِي قَوْلِهِ نَعْبُدُ ، لِأَنَّ المَقَامَ مَقَامُ تَذَلُّلٍ لَا يَصْلُحُ لِلْمُعَظِّمِ نَفْسَهُ .

التَّاسِعُ : عَلِمْنَا بِأَنَّ الصَّلَاةَ شُرِعَتْ لِلْمُنَاجَاةِ مِنْ إِتْيَانِهِ تَعَالَى بِضَمِيرِ الْخِطَابِ مِنْ قَوْلِهِ : إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ، إِلَى آخِرِهِ .

العَاشِرُ : عَلِمْنَا بِأَنَّ أَهَمَّ شَيْءٍ أُولِيَ بِالسُّؤَالِ مِنَ اللَّهِ أَنْ يَسْأَلَهُ

الْعَبْدُ الْهِدَايَةَ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ .

الْحَادِي عَشَرَ : عَلِمْنَا بِأَنَّ الْحَقَّ يُرِيدُ مِنَّا رَفْعَ الْهِمَّةِ، بِأَنْ نَسْأَلَ مِنْهُ أَرْفَعَ الْمَنَازِلِ لَا أَدْنَاهَا، مِنْ قَوْلِهِ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ وَلَا شَكَّ أَنَّ مِنْهُمُ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءَ وَالصَّالِحِينَ .

الثَّانِي عَشَرَ : عَلِمْنَا بِأَنَّ الْمَغْضُوبَ عَلَيْهِمْ أَسْفَلُ دَرَكَةٍ مِنَ الضَّالِّينَ مِنَ التَّنْصِيصِ عَلَيْهِمْ أَوَّلًا .

الإِشَارَةُ : إِنَّ أَمْرَهُ تَعَالَى بِالسُّؤَالِ صِرَاطَ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ، فِيهِ تَشْجِيعٌ وَإِغْرَاءٌ عَلَى طَلَبِ الْمَنَازِلِ الْعَالِيَةِ ، وَدَلَالَةٌ عَلَى بَقَاءِ الْخُصُوصِيَّةِ ، وَعَلَى أَنَّهَا لَيْسَتْ وَقْفًا عَلَى مَنْ مَضَى مِنَ الْبَرِيَّةِ مَادَامَتْ هَذِهِ السُّورَةُ عَلَى الْأَلْسُنِ مَجْرِيَّةً . فَسُؤَالُ صِرَاطِ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِمْ مَشْرُوعٌ ، وَالْوُصُولُ إِلَى غَايَتِهِ لَيْسَ بِمَمْنُوعٍ ، إِلَّا مَا كَنُبُوءَةِ النَّبِيِّ فَمَمْنُوعَةٌ ، وَأَمَّا وِلَايَتُهُ فَمَوْرُوثَةٌ .

التَّفْسِيرُ :

آمِين : هِيَ إِسْمُ فِعْلٍ ، وَمَعْنَاهَا اسْتَجِبْ . قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَقَّنَنِي جِبْرِيلُ آمِينَ عِنْدَ فَرَاغِي مِنْ قِرَاءَةِ فَاتِحَةِ الْكِتَابِ، وَقَالَ إِنَّهُ كَالْخَتْمِ عَلَى الْكِتَابِ. وَعَنْ وَائِلِ بْنِ حَجَرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا قَرَأَ وَلَا الضَّالِّينَ قَالَ آمِينَ، وَرَفَعَ بِهَا صَوْتَهُ، وَلَيْسَتْ مِنَ الْقِرَاءَةِ اتِّفَاقًا. وَعَلَى هَذَا يَكُونُ الْإِتْيَانُ بِهَا عَقِبَ الْفَاتِحَةِ سُنَّةً، وَفِي عَدَمِ إِتْيَانِ الْإِمَامِ فِي الْجَهْرِيَّةِ خِلَافٌ وَفِيهِ نَظَرٌ، لِأَنَّ الْحَدِيثَ يَتَضَمَّنُ الْجَهْرَ.

الْإِشَارَةُ فِي عُمُومِ السُّورَةِ: إِنَّ افْتِتَاحَ الْفَاتِحَةِ بِالْإِسْمِ الشَّرِيفِ وَاخْتِتَامَهَا بِـ وَلَا الضَّالِّينَ لِذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ. جَاءَ الْإِسْمُ الْأَعْظَمُ عَلَى مِنَصَّتِهَا يُشِيرُ إِلَى اسْتِيلَائِهِ عَلَى عُرُوشِ حَقَائِقِهَا، حَقِّيَّةً أَوْ خَلْقِيَّةً، وَلَمَّا أَخَذَ الْحَظَّ الْأَكْمَلَ مِنَ الظُّهُورِ أَخَذَ فِي التَّدَلِّي وَالتَّنَزُّلِ، لِيَحُوزَ رُتْبَتَيِ الْبُطُونِ وَالظُّهُورِ، حَتَّى بَلَغَ مِنَ الْإِخْتِفَاءِ غَايَتَهُ، وَبِالْأُخَصِّ عِنْدَ التَّنَزُّلِ الْآخِرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ، فَكَادَ أَنْ لَا يُعْرَفَ، لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ جَاءَ فِي الْأَثَرِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْفَاتِحَةَ قُسِمَتْ بَيْنَ الْعَبْدِ وَرَبِّهِ، فَحَظُّ الْعُبُودِيَّةِ الشِّقُّ الْأَسْفَلُ مِنْهَا، وَلَمَّا كَانَتِ الرُّبُوبِيَّةُ مُقْتَضَى الظُّهُورِ،

وَالعُبُودِيَّةُ مُقْتَضَى البُطُونِ، جَاءَتْ أَسْمَاؤُهُ تَعَالَى فِي الشِّقِّ الأَعْلَى مِنْهَا مُظْهَرَاتٌ، وَهِيَ اللَّهُ وَالرَّبُّ وَالرَّحْمَنُ وَالرَّحِيمُ وَالمَلِكُ، فَهَذِهِ خَمْسَةٌ كُلُّهَا مُظْهَرَاتٌ، ثُمَّ ذَكَرَ نَفْسَهُ فِي الشِّقِّ الأَسْفَلِ مِنْهَا فِي خَمْسَةِ مَوَاضِعَ أَيْضًا كُلُّهَا مُضْمَرَاتٌ وَهِيَ: الكَافُ فِي قَوْلِهِ إِيَّاكَ نَعْبُدُ، وَالكَافُ الثَّانِيَةُ مِنْ قَوْلِهِ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ وَضَمِيرُ الفَاعِلِ مِنْ قَوْلِهِ إِهْدِنَا، وَالتَّاءُ مِنْ قَوْلِهِ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ، وَالفَاعِلُ المَحْذُوفُ مِنْ قَوْلِهِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ، فَعَلَيْهِمْ مُرْتَفِعٌ عَلَى نِيَابَةِ الفَاعِلِ فَهَذِهِ خَمْسَةٌ مِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى، ذُكِرَتْ مُضْمَرَاتٍ، مُقَابِلَةً لِلْخَمْسَةِ المُظْهَرَاتِ، فَحَصَلَ التَّقَابُلُ، وَتَمَّ التَّعَادُلُ، فَاتَّضَحَ حِينَئِذٍ أَنَّهُ الظَّاهِرُ فِيمَا ظَهَرَ، وَالبَاطِنُ فِيمَا بَطَنَ، وَحَيْثُ مَا كَانَ، فَهُوَ اللَّهُ، وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ. ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّ أَوَّلَ التَّنَزُّلَاتِ الْتَحَقَتْ بِالذَّاتِ صِفَةُ الرُّبُوبِيَّةِ، وَلِهَذَا ذُكِرَتْ بَعْدَ اسْمِ الذَّاتِ عَلَى البَدَلِيَّةِ، ثُمَّ الرَّحْمَانِيَّةُ لِلُزُومِ الِاسْتِوَاءِ. الرَّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى، فَبِمُوجَبِ ذِكْرِ العَالَمِينَ تَعَيَّنَ الِاسْتِوَاءُ. ثُمَّ الرَّحِيمِيَّةُ فِيمَا بَيْنَ المُسْتَوَى عَلَيْهِ، وَهِيَ دَاعِيَةُ الِائْتِلَافِ، ثُمَّ المُلْكِيَّةُ لِلْفَصْلِ إِنْ كَانَ خِلَافٌ، وَلَمَّا وَصَلَتِ الرُّبُوبِيَّةُ إِلَى

هَذِهِ الغَايَةِ فِي التَّنَزُّلِ، وَهُوَ الفَصْلُ فِيمَا بَيْنَ العِبَادِ، وَلَوْلَا هَذَا التَّنَزُّلُ الآخِرُ لَمَا تَعَلَّقَتْ بِهَا العُبُودِيَّةُ قَائِلَةً: إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ، وَلَمَّا صَحَّ الإِلْتِجَاءُ، وَاتَّضَحَتِ المَحَجَّةُ ذَكَرَ نَفْسَهُ تَعَالَى مُضْمَرًا، أَدَاءً لِوَاجِبِ البُطُونِ، غَيْرَ أَنَّهُ مُصَدَّرٌ أَوَّلَ الخِطَابِ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ، ثُمَّ أَخَذَ فِي الإِضْمَارِ، وَتَأَخَّرَ عَنْ صَدَرَاتِ الكَلَامِ فِي الفِعْلِ مِنْ إِهْدِنَا، وَالتَّاءُ مِنْ أَنْعَمْتَ، ثُمَّ اخْتَفَى البَتَّةَ فِي المَغْضُوبِ، لَا نُونًا وَلَا تَاءً، لَكِنْ مَعَ بَقَاءِ الفَاعِلِيَّةِ بَعْدَ التَّقْدِيرِ، ثُمَّ تَجَرَّدَ عَنِ الضَّالِّينَ، فَمَعَ كَوْنِهِمْ مَفْعُولِينَ صَيَّرَهُمْ فَاعِلِينَ، فَهَذَا هُوَ حَدُّ الخَفَا، وَهَذَا الظُّهُورُ لِأَهْلِ الصَّفَا.

لِسَانُ الرُّوحِ: يَسْتَبْعِدُ أَنْ يَرَى أَوَّلَ جُزْءٍ مِنَ الفَاتِحَةِ أَيِ الحَمْدُ مُجَرَّدًا عَمَّا بَعْدَهُ، بَلْ يَرَاهَا بِمَا فِيهَا لِلَّهِ، وَإِلَّا لَمْ يَكُنِ الحَمْدُ لِلَّهِ، لِأَنَّ الحَمْدَ إِسْمٌ لِجَمِيعِ السُّورَةِ، وَهُوَ لِلَّهِ.

سُورَةُ البَقَرَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الٓمٓ. لَاحَظْ لِتَفْسِيرٍ فِي ذَلِكَ، إِلَّا مُجَرَّدَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ.

الإِشَارَةُ : تُفِيدُنَا أَنَّ الأَلِفَ مِنْ إِسْمِ اللَّهِ ، وَاللَّامَ مِنْ جِبْرِيلَ وَالمِيمَ مِنْ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَإِذَا وَصَلْتَ الحُرُوفَ بِبَعْضِهَا جَاءَتْكَ الإِشَارَةُ قَائِلَةً : أَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ الحَقُّ بَلَى اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الكِتَابَ إِلَى مُحَمَّدٍ بِوَاسِطَةِ جِبْرِيلَ لَا زَائِدٌ عَلَى مَا بِهِ الإِشَارَةُ . كَانَ القُرْآنُ مُتَعَلِّقًا بِالأَلِفِ ، ثُمَّ اتَّحَدَ مَعَ اللَّامِ ، ثُمَّ اسْتَجْمَعَ فِي دَائِرَةِ المِيمِ . وَمِنَ المَعْلُومِ أَنَّ الكِتَابَ مُتَوَاصِلٌ مِنَ اللَّهِ إِلَى جِبْرِيلَ إِلَى مُحَمَّدٍ ، وَوَجْهُ اخْتِصَاصِ الأَلِفِ بِإِشَارَتِهِ لِلأُلُوهِيَّةِ لِاسْتِقَامَتِهِ وَكَوْنِهِ أَوَّلَ الحُرُوفِ الهِجَائِيَّةِ وَآخِرُهَا هَمْزَةً ، وَظَهَرَ فِي الحُرُوفِ لِأَنَّهَا مَأْخُوذَةٌ مِنْ مَسَاحَتِهِ ، فَمَا الحَاءُ إِلَّا أَلِفٌ مَحْدُودِبٌ ، وَالمِيمُ أَلِفٌ مُسْتَدِيرٌ وَبَاطِنٌ فِيهَا مِنْ جِهَةِ كَوْنِهِ لَا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ فِي دَائِرَةِ المِيمِ مَثَلًا ، وَاللَّامُ يُشِيرُ إِلَى جِبْرِيلَ لِقُرْبِهِ مِنَ الأَلِفِ مِنْ جِهَةِ الصُّورَةِ لَا مِنْ جِهَةِ الجَرِّ وَالِانْعِطَافِ ، وَالمِيمُ تُشِيرُ إِلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِانْتِهَائِهِ فِي دَائِرَةِ العُبُودِيَّةِ ، فَهُوَ العَبْدُ عَلَى الحَقِيقَةِ فَبِانْعِطَافِهِ انْتَهَى أَوَّلُهُ فِي آخِرِهِ غَايَةً فِي الِاسْتِعْدَادِ ، إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ القُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ .

التَّفْسِيرُ : قَوْلُهُ تَعَالَى : **ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ .**

قَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ أَهَمَّ شَيْءٍ نَعْتَبِرُهُ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ إِذَا تَنَاوَلْنَاهُ أَنْ نَرَاهُ وَاصِلاً إِلَيْنَا مِنْ حَضْرَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى تِلْكَ الْهَيْئَةِ بَيْنَ دَفَّتَيِ الْمُصْحَفِ حَتَّى إِذَا تَنَاوَلَهُ الْإِنْسَانُ بِهَذَا الِاعْتِبَارِ يَجِدُ عَلَى عُنْوَانِهِ ذَلِكَ الْكِتَابُ الْمُتَنَاوَلُ لَا رَيْبَ فِيهِ فِي كَوْنِهِ وَاصِلاً مِنَ اللَّهِ وَلَا شَكَّ فِي جَمِيعِ مَا تَضَمَّنَهُ ، وَالَّذِي يُشْعِرُكَ بِكَوْنِهِ مَبْعُوثًا إِلَيْنَا بِالْخُصُوصِ لَا لِمَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ هُوَ قَوْلُهُ هُدًى ، وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنَ الْمَسِيحِيِّينَ مِمَّنْ يَقُولُ بِنُبُوءَةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَ بَقَائِهَا عَلَى النَّصْرَانِيَّةِ . إِنَّ الْإِشَارَةَ فِي قَوْلِهِ ذَلِكَ الْكِتَابُ عَائِدَةٌ عَلَى الْإِنْجِيلِ ، وَقَوْلُهُ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ رَاجِعٌ لِلنَّصَارَى ، وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى ، إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ، رَاجِعٌ لِلْيَهُودِ . وَأَمَّا الْمُسْلِمُونَ فَهُمُ الْمُشَارُ إِلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ : وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ، وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ... الخ . غَيْرَ أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ لَمْ يَقُلْ بِهِ وَلَوْ وَاحِدٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ فِيمَا بَلَغَنَا .

لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ. فَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ الْكِتَابَ مَبْعُوثٌ لِمَنْ سَبَقَ لَهُ عَهْدٌ مَعَ اللَّهِ، حَيْثُ كَانَ يُؤْمِنُ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَيُؤْتِي الزَّكَاةَ، فَدَخَلْنَا بِهَذَا الِاعْتِبَارِ مَعَ كُلِّ مَنْ سَبَقَ لَهُ عَهْدٌ مَعَ اللَّهِ، لَا فَرْقَ بَيْنَ مَنْ تَقَدَّمَ وَبَيْنَ مَنْ تَأَخَّرَ، وَأَمَّا الْجَاحِدُ فَغَيْرُ مُنْتَهِيٍّ لِبَعْثَةِ الْكِتَابِ، إِنَّمَا هُوَ مُنْتَهِيٌّ لِنُزُولِ الْحَدِيدِ الَّذِي فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ، وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ، وَهُوَ مِنْ أَقْسَامِ التَّبْلِيغِ أَيْضًا، ثُمَّ أَنَّهُ سَبَقَ فِي عِلْمِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَبْعَثَ كِتَابًا لِمَنْ أَهَلَّهُمْ فِي سَابِقِ عِلْمِهِ لِذَلِكَ وَأَنْ يَكُونُوا حُجَّةً إِلَى مُنْتَهَى الزَّمَانِ. فَمَنْ فَاتَتْهُ مُعْجِزَةُ النَّبِيِّ لَمْ تَفُتْهُ مُعْجِزَةُ الْقُرْآنِ، لِأَنَّهُ دَلَّ بِنَفْسِهِ عَلَى أَنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ لَا بِشَهَادَةِ الْغَيْرِ لِمَا حَوَاهُ مِنَ الْإِعْجَازِ لَفْظًا وَمَعْنًى، وَخُرُوجِ نِظَامِهِ عَمَّا فِي طَوْقِ الْبَشَرِ، بِخِلَافِ غَيْرِهِ مِنَ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ فَإِنَّهَا تَتَوَقَّفُ صِحَّةُ نِسْبَتِهَا لِلَّهِ عَلَى شَهَادَةِ شَاهِدٍ صَادِقٍ فَمَنْ نَظَرَ الْقُرْآنَ بِعَيْنِ الْإِنْصَافِ، وَتَأَمَّلَهُ بِفُؤَادِ الْإِعْتِرَافِ يَعْلَمُ بِالضَّرُورَةِ أَنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ، وَقَدْ كُنْتُ اجْتَمَعْتُ فِي سِيَاحَةٍ مَعَ بَعْضِ أَحْبَارِ

الْيَهُودِ ، فَتَكَلَّمْنَا فِي التَّوْرَاةِ وَنِظَامِهِ ، ثُمَّ تَكَلَّمْنَا فِي الْقُرْآنِ وَأُسْلُوبِهِ وَكَانَ لَهُ حِفْظٌ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ، فَقُلْتُ لَهُ : أُتْلُ شَيْئًا مِنْهُ ، وَرَتِّلْهُ تَرْتِيلًا فَاسْتَفْتَحَ سُورَةَ الرَّحْمَنِ ، وَكَانَ كُلَّمَا مَرَّ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ تَأَمَّلَ مَا قَبْلَهُ ، فَلَمْ يَبْلُغْ رُبُعَ السُّورَةِ حَتَّى تَلَأْلَأَ وَجْهُهُ عَرَقًا ، وَقَالَ : أَشْهَدُ أَنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ ، ثُمَّ نَطَقَ بِالشَّهَادَتَيْنِ وَاعْتَرَفَ بِالْإِسْلَامِ ، فَافْتَرَقْنَا عَلَى هَذَا الْعَهْدِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَرَاءَ ذَلِكَ .

الْإِسْتِنْبَاطُ : يُسْتَخْرَجُ مِنْ قَوْلِهِ الٓمٓ إِلَى قَوْلِهِ لِلْمُتَّقِينَ ثَمَانِيَةُ أَحْكَامٍ :

الْأَوَّلُ : عَلِمْنَا بِأَنَّ الْحُرُوفَ الْمُقَطَّعَةَ الْمُؤْتَى بِهَا فِي أَوَائِلِ السُّوَرِ لَا تَخْلُو عَنْ مَعَانٍ ، وَإِلَّا لَمَا أُتِيَ بِهَا .

الثَّانِي : عَلِمْنَا بِأَنَّ اللُّغَزَ الْمُسْتَعْمَلَ عِنْدَ الْقَوْمِ فِيمَا اصْطَلَحُوا عَلَيْهِ مَشْرُوعٌ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنْ قَوْلِهِ الٓمٓ ، وَلَا شَكَّ أَنَّ مَعَانِيَهَا لَيْسَتْ مُتَعَاطِيَةً لِلْعُمُومِ .

الثَّالِثُ : عَلِمْنَا بِكَمَالِ اعْتِنَائِهِ تَعَالَى بِأَهْلِ خُصُوصِيَّتِهِ ، حَيْثُ صَدَّرَ فِي الْكِتَابِ بِمَشْرَبٍ قَدْ تَنْبُو عَنْهُ أَكْثَرُ الْمَشَارِبِ .

الرَّابِعُ : عَلِمْنَا بِأَنَّ الْمُصْحَفَ كَانَ مُتَهَيِّئًا فِي عِلْمِ اللَّهِ عَلَى الْحَالَةِ الْحَاضِرَةِ فِي صَدْرِهِ الٓمٓ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ ، وَإِلَّا لَمَا عَادَتِ الْإِشَارَةُ إِلَيْهِ.

الْخَامِسُ : عَلِمْنَا بِأَنَّ الْكِتَابَ الْعَزِيزَ هُوَ صَالِحٌ فِي نَفْسِهِ أَنْ يُؤَثِّرَ فِيمَنْ سَبَقَ لَهُ عَهْدٌ مَعَ اللَّهِ وَإِنْ بِدُونِ مُبَلِّغٍ مَهْمَا وَصَلَ إِلَيْهِ ، وَأَمَّا تَأْثِيرُهُ فِي الْجَاحِدِ لَا بُدَّ أَنْ يُوَازِرَهُ فِيهِ مُبَلِّغٌ مِنْ قَوْلِهِ : هُدًى لِلْمُتَّقِينَ.

السَّادِسُ : عَلِمْنَا بِأَنَّ الْكِتَابَ فَارِغٌ مِنْ كُلِّ حَشْوٍ وَزِيَادَةٍ ، فَضْلًا عَنِ الشَّكِّ فِيمَا أَخْبَرَ بِهِ مِنْ قَوْلِهِ : لَا رَيْبَ فِيهِ.

السَّابِعُ : عَلِمْنَا بِأَنَّ الْإِيمَانَ التَّفْوِيضِي كَأَنْ يَتَلَقَّى الْإِنْسَانُ مَا فِي كِتَابِ اللَّهِ عَلَى مُرَادِ اللَّهِ هُوَ مِمَّا يُمْدَحُ بِهِ مِنْ قَوْلِهِ : الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ.

الثَّامِنُ : عَلِمْنَا بِأَنَّ التَّقْوَى لَا تَصِحُّ مِنْ صَاحِبِهَا إِلَّا بِعَمَلِ الْجَوَارِحِ ، قَالَ تَعَالَى وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ، وَمِنْ جُمْلَةِ ذَٰلِكَ إِقَامُ الصَّلَاةِ لِلَّهِ وَالْإِنْفَاقُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، مِنْ قَوْلِهِ فِي تَعْرِيفِ الْمُتَّقِينَ : وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ . زِيَادَةً عَلَى الْإِيمَانِ بِالْغَيْبِ.

الإشَارَة: إنَّ الكِتَابَ المُشَارَ لَهُ بِذَلِكَ عِبَارَةٌ عَمَّا ظَهَرَ مِنَ الْكَائِنَاتِ رَاجِعٌ لِلْعَالَمِ بِأَجْمَعِهِ، جَوْهَرِهِ وَعَرَضِهِ، لاَ رَيْبَ فِيهِ أَيْ لاَ شَكَّ فِيهِ، إِنَّهُ مُتَنَزِّلٌ مِنَ الْحَضْرَةِ الأَقْدَسِيَّةِ وَشُعَاعِ الأُلُوهِيَّةِ، وَاتِّصَالُ الْكِتَابِ بِالْمِيمِ يُشِيرُ بِتَدَفُّقِهِ مِنْ دَائِرَتِهَا عِبَارَةً عَنِ الْقَبْضَةِ النُّورَانِيَّةِ وَالْحَضْرَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ فَالْكَوْنُ بِمَا فِيهِ نُورَانِيُّ الْحَقِيقَةِ بِكُلِّ اعْتِبَارٍ، عَرَفْتَ أَمْ لَمْ تَعْرِفْ، وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وما بينهما إِلاَّ بِالْحَقِّ، شَاهَدْتَ أَمْ لَمْ تُشَاهِدْ، وَمَنْ لَمْ يَرَهُ مِنَ الْحَقِّ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ، فَقَدْ أَعْوَزَهُ وُجُودُ الأَنْوَارِ، وَحُجِبَتْ عَنْهُ شُمُوسُ الْمَعَارِفِ بِسَحَابِ الآثَارِ، فَوَجْهُ إِطْلاَقِ الْكِتَابِ عَلَيْهِ مِنْ حَيْثُ الإِشَارَةِ لِمُنَاسَبَتِهِ مِنْ وُجُوهٍ كَثِيرَةٍ، فَمِنْهَا أَنَّ الْكِتَابَ قَالَ فِيهِ تَعَالَى: «مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ». وَقَالَ فِي الْكَوْنِ: «وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ» وَالْكِتَابُ مُوَصِّلٌ إِلَى اللَّهِ بِالْمَقَالِ، وَالْكَوْنُ مُوَصِّلٌ بِالاِسْتِدْلاَلِ، وَالْكِتَابُ فِيهِ مِنْ ذِكْرِ أَسْمَائِهِ تَعَالَى وَصِفَاتِهِ، وَفِي الْكَوْنِ مِنْ ظُهُورِ أَسْمَاءِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ وَآثَارِهِ، وَأَنَّ الْكِتَابَ لَنْ تَزَالَ حَقِيقَتُهُ مُسْتَتِرَةً إِلاَّ عِنْدَ الْخُصُوصِ مِنْ جِهَةِ الْحُدُوثِ وَالْقِدَمِ، وَمَا هِيَ حَقِيقَةُ النُّزُولِ بِاعْتِبَارِ صِيغَةِ الْكَلاَمِ

وَكَذَلِكَ الْكَوْنُ بِاعْتِبَارِ قِيَمِيَّاتِهِ، وَتَعَرُّفِهِ بِالْحَدِّ هَلْ هُوَ ذَلِكَ الْمَرْئِيُّ، أَمْ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ. وَكَمَا أَنَّ الْكِتَابَ مُتَأَلِّفٌ مِنْ حُرُوفٍ وَأَلْفَاظٍ لَيْسَتْ مَقْصُودَةً بِالذَّاتِ فَكَذَلِكَ الْكَوْنُ مُتَأَلِّفٌ مِنْ جَوَاهِرَ وَأَعْرَاضٍ تُومِي لِمَا فِيهَا. قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ، وَكَمَا أَنَّ الْكِتَابَ تَنَزَّلَ مِنْ حَضْرَةِ الْعِلْمِ إِلَى حَضْرَةِ الْقَوْلِ، فَكَذَلِكَ الْكَوْنُ تَنَزَّلَ مِنْ حَضْرَةِ الْعِلْمِ إِلَى حَضْرَةِ الْفِعْلِ، وَكَمَا أَنَّ الْكِتَابَ حَوَى مِنْ ذِكْرِ الْعُلْوِيَّاتِ وَالسُّفْلِيَّاتِ وَالدُّنْيَوِيَّاتِ وَالْأُخْرَوِيَّاتِ وَالْإِثْمِ وَالطَّاعَةِ، وَالْأُلُوهِيَّاتِ وَالْفِرْعَوْنِيَّاتِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ، فَكَذَلِكَ الْكَوْنُ حَوَى مِثْلَ ذَلِكَ، سَوَاءً بِسَوَاءٍ، وَكَمَا أَنَّ الْكِتَابَ بِجَمِيعِ مَا فِيهِ مِمَّا تَقَدَّمَ يُتَعَبَّدُ بِتِلَاوَتِهِ، وَكَيْفَمَا كَانَ اللَّفْظُ عَلَى اخْتِلَافِ مَدْلُولِهِ، لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ، وَهَذَا عِنْدَ مَنْ نَظَرَ اللَّفْظَ الْمُجَرَّدَ كَوْنَهُ كَلَامَ اللَّهِ، وَكَذَلِكَ الْكَوْنُ بِجَمِيعِ أَجْزَائِهِ عِنْدَ مَنْ نَظَرَهُ فِعْلًا لِلَّهِ، أَوْ نَقُولُ مِنْ نُورِ اللَّهِ، وَكَمَا أَنَّ الْكِتَابَ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا، وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا، فَكَذَلِكَ الْكَوْنُ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا، وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقُونَ، وَلَا يَهْدِي بِهِ إِلَّا الْمُتَّقُونَ.

لِسَانُ الرُّوحِ: الٓمٓ مُبْتَدَأٌ، خَبَرُهُ ذَلِكَ الْكِتَابُ الَّذِي هُوَ الْمُطَهَّرُ

بِأَجْمَعِهِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَا زَائِدَ عَلَيْهِ: فَمِيمُهُ مُلْكٌ، وَلَامُهُ مَلَكُوتٌ وَأَلِفُهُ جَبَرُوتٌ، فَالْمِيمُ مَجَالِي الظَّوَاهِرِ، وَاللَّامُ غَيْبُ السَّرَائِرِ، وَالْأَلِفُ بَيْنَهُمَا ظَاهِرٌ اتَّصَلَتِ الْمِيمُ بِاللَّامِ لِوُجُودِ الِالْتِزَامِ مِنْ حَيْثُ الْمَكَانِ وَالتَّكْلِيفِ، وَانْفَصَلَتِ الْأَلِفُ مِنْ حَيْثُ الْمَكَانَةِ وَالتَّعْرِيفِ، وَبِهَذَا التَّقْرِيرِ يُسْتَغْنَى عَنْ كَثْرَةِ الْكَلَامِ، وَتَكُونُ الْمِيمُ خَبَرًا عَنِ اللَّامِ، وَكِلَاهُمَا خَبَرٌ عَنِ الْأَلِفِ، وَاتَّحَدَتْ حُرِّيَّةٌ وَتَكْلِيفٌ، بُطُونٌ وَظُهُورٌ، وَإِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ.

التَّفْسِيرُ: قَوْلُهُ تَعَالَى:

وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ.

فَلَمَّا ذَكَرَ الصِّنْفَ الْأَوَّلَ وَهُوَ الْمَبْعُوثُ الْكِتَابُ مِنْ أَجْلِهِ ذَكَرَ الصِّنْفَ الثَّانِي، وَهُوَ عِبَارَةٌ عَمَّنْ اجْتَمَعَ بِالرَّسُولِ، فَتَلَقَّى مِنْهُ الْإِيمَانَ دُونَ مَا يَشْتَرِطُ عَلَيْهِ شَيْئًا، فَذَكَرَ أَنَّ هَؤُلَاءِ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ، مَحْمُولُونَ وَفِي سَابِقِ عِلْمِهِ مُفْلِحُونَ، وَلِاعْتِنَائِهِ تَعَالَى بِهِمْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ، فَتَلَقِّي الْإِيمَانِ مِنَ الرَّسُولِ أَبْلَغُ فِي الرُّسُوخِ مِنْ تَلَقِّيهِ مِنَ الْكِتَابِ، وَأَهْلُهُ أَعْظَمُ حُرْمَةً عِنْدَ

اللَّهِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، فَمَنْ كَانَ الرَّسُولُ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ أَكْرَمُ مِمَّنْ بَقِيَ الْكِتَابُ فِي أَيْدِيهِمْ ، وَإِنْ كَانَ كُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى . فَالزَّيْغُ يَحْتَمِلُ مَعَ الْكِتَابِ وَلَنْ يَحْتَمِلَ مَعَ الرَّسُولِ ، وَمِنْ هُنَا شَهَادَةُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى قَوْمِهِ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ ، فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ، أَيْ لَمْ نَدْرِ مَا فَعَلُوهُ فِي كِتَابِي .

الإِسْتِنْبَاطُ: يُسْتَخْرَجُ مِنْ قَوْلِهِ: وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ إِلَى قَوْلِهِ الْمُفْلِحُونَ سَبْعَةُ أَحْكَامٍ :

الأَوَّلُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ الصِّنْفَ الْمَمْدُوحَ الْآنَ هُوَ غَيْرُ الصِّنْفِ الْأَوَّلِ وَإِنْ أَجْمَلَهُمَا الْوَصْفُ بِالْإِيمَانِ عَلَى مَا تَقْتَضِيهِ الْمُغَايَرَةُ بَيْنَ الْمَعْطُوفِ وَالْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ .

الثَّانِي: عَلِمْنَا بِأَنَّ الْمَمْدُوحِينَ أَوَّلًا هُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ ، وَبِهَذَا يَلْزَمُ جَوَازُ وَصْفِهِمْ بِالْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى وَالْإِنْفَاقِ وَإِقَامَةِ الصَّلَاةِ إِلَى حَالِ بَعْثَتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنْ ذِكْرِهِ لَهُمْ تَعَالَى بِذَلِكَ .

الثَّالِثُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ التَّقْوَى لَيْسَتْ هِيَ نَفْسَ الْهِدَايَةِ الْخَاصَّةِ ، إِنَّمَا هِيَ مِنَ

الأَسْبَابِ المُوصِلَةِ لَهَا، وَإِلَّا لَمَا كَانَ الكِتَابُ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ .

الرَّابِعُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ المُوقِنِينَ هُمُ المُهْتَدُونَ حَقِيقَةً، وَأَمَّا المُؤْمِنُونَ فَهُمْ سَائِرُونَ فِي سَبِيلِ الهِدَايَةِ مِنْ وَصْفِهِ تَعَالَى الأَوَّلِينَ بِالإِيمَانِ وَتَخْصِيصِهِ الآخَرِينَ بِمَزِيدِ الإِيقَانِ، وَبَعْدُ قَالَ: أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ.

الخَامِسُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ كَانَ أَكْثَرُهُمْ عَلَى دَرَجَةِ الإِيقَانِ، وَلِهَذَا ذَكَرَهُمْ بِهِ، وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ .

السَّادِسُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ أَعْمَالَ القَلْبِ هِيَ أَشْرَفُ مِنْ أَعْمَالِ الجَوَارِحِ، وَإِنَّهُ يُسْتَغْنَى بِذِكْرِهَا فِي المَدْحِ عَمَّنْ سِوَاهَا مَهْمَا تَحَقَّقَتْ فِي شَخْصٍ مِنْ وَصْفِهِ تَعَالَى أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ بِالإِيقَانِ، قَاطِعًا النَّظَرَ عَنِ الإِنْفَاقِ وَإِقَامَةِ الصَّلَاةِ حَسْبَ ذِكْرِهِ فِي الأَوَّلِينَ مَعَ تَحَقُّقِ الِاشْتِرَاكِ بَيْنَهُمْ.

السَّابِعُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ الصَّحَابَةَ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مِنْ أَهْلِ الشُّهُودِ وَالعِيَانِ، كَمَا أَنَّهُمْ أَهْلُ إِيقَانٍ فِي الأُخْرَوِيَّاتِ، وَأَهْلُ إِيمَانٍ فِيمَا هُوَ كَالوَقَائِعِ الغَابِرَةِ وَالأَحْكَامِ السَّالِفَةِ، وَذَلِكَ يُسْتَفَادُ مِنْ ذِكْرِهِ تَعَالَى إِيمَانَهُمْ مُنْفَصِلًا، ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّهُمْ بِالآخِرَةِ يُوقِنُونَ، وَلَمَّا لَمْ يَذْكُرْ عَقِيدَتَهُمْ فِي الإِلَهِ

عَلِمْنَا أَنَّهُمْ عَلَى شُهُودٍ وَعِيَانٍ، وَإِلَّا لَزِمَ أَنْ يَكُونَ وُجُودُ الآخِرَةِ أَوْضَحَ مِنْ وُجُودِهِ تَعَالَى عِنْدَهُمْ لَا يَدْخُلُ فِي الإِيمَانِ بِالْغَيْبِ.

الإِشَارَةُ: فِي قَوْلِهِ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ تَرَى التَّفْخِيمَ عَائِدًا عَلَى مَنْ آمَنَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى النَّبِيِّ فِي خَاصَّةِ نَفْسِهِ مِنَ الْعُلُومِ الْمَكْتُومَةِ إِلَّا عَلَى أَهْلِهَا، وَهَذَا هُوَ وَجْهُ التَّخْصِيصِ، وَإِلَّا فَمَا فَائِدَةُ التَّخْصِيصِ لِأَنَّ الْحُكْمَ الْعَامَّ نَزَلَ عَلَيْهِمْ كَمَا نَزَلَ عَلَيْهِ، ثُمَّ أَنَّ الإِيمَانَ بِسِرِّ الْخُصُوصِيَّةِ هُوَ مِنْ أَعْلَى دَرَجَةٍ فِي الَّذِي عَزَمْنَا لَهَا لِلْعُمُومِ، وَلِهَذَا قَالَ فِي الصَّحَابَةِ: أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ. وَقَدْ أَشَارَتْ أَقْوَالُ الأَكَابِرِ بِمِثْلِ ذَلِكَ. قَالَ بَعْضُهُمْ: مَنْ صَدَّقَ بِهَذَا الْعِلْمِ يَعْنِي بِهِ مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ فَهُوَ مِنَ الْخَاصَّةِ، وَمَنْ فَهِمَهُ فَهُوَ مِنْ خَاصَّةِ الْخَاصَّةِ، وَمَنْ عَبَّرَ عَنْهُ وَتَكَلَّمَ فِيهِ فَهُوَ النَّجْمُ الَّذِي لَا يُدْرَكُ، وَالْبَحْرُ الَّذِي لَا يُتْرَكُ، وَبِالْجُمْلَةِ إِنَّ الإِيمَانَ بِذَلِكَ يَعْتَبِرُونَهُ كَالرُّكْنِ فِي الدِّينِ، حَتَّى قَالَ بَعْضُهُمْ: مَنْ لَيْسَ لَهُ نَصِيبٌ مِنْ عِلْمِ الْقَوْمِ يُخْشَى عَلَيْهِ مِنْ سُوءِ الْخَاتِمَةِ، وَأَقَلُّ نَصِيبٍ مِنْهُ التَّصْدِيقُ بِأَهْلِهِ، وَمَنْ فَاتَتْهُ الْهِمَّةُ فِي نَفْسِهِ فَلَا تَفُوتُهُ أَنْ يُصَدِّقَ بِهَا غَيْرَهُ.

لِسَانُ الرُّوحِ : فِي مَعْنَى الإِهْتِدَاءِ يَقُولُ : مِنَ النَّاسِ مَنْ هُوَ سَائِرٌ فِي سَبِيلِ الْهِدَايَةِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ هُوَ فِي نَفْسِ الْهِدَايَةِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ هُوَ عَلَى هُدًى ، فَإِذَا حَصَلَ لَهُ الإِسْتِعْلَاءُ عَلَيْهَا فَمَا يَبْقَى لَهُ إِلَّا التَّجَاوُزُ ، فَتَصِيرُ الْهِدَايَةُ تَطْلُبُهُ ، كَمَا يَطْلُبُهُ الضَّلَالُ ، وَكِلَاهُمَا فِي حَقِّهِ مُحَالٌ .

التَّفْسِيرُ : وَلَمَّا أَنْهَى الْكَلَامَ عَلَى الصِّنْفَيْنِ الأَوَّلَيْنِ ذَكَرَ الصِّنْفَ الثَّالِثَ الَّذِي هُوَ أَبْعَدُ مِنْ أَنْ يُرْسَلَ إِلَيْهِ كِتَابٌ لِبُعْدِ تَأَهُّلِهِ لِلْخِطَابِ فَقَالَ :

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ

أَيْ لَيْسُوا مُسْتَعِدِّينَ لِذَلِكَ . فَإِنْذَارُكَ وَعَدَمُهُ عَلَى السَّوَاءِ ، وَمِنْ هُنَا يَتَّضِحُ أَنَّ الْكِتَابَ مَبْعُوثٌ لِمَنْ سَبَقَتْ لَهُ صِلَةٌ مَعَ اللَّهِ ، فَهُوَ عَلَى كُلِّ حَالٍ أَقْرَبُ إِلَى الْهِدَايَةِ مِنْ غَيْرِهِ ، وَرُبَّمَا بِنُزُولِ الْكِتَابِ يَزْدَادُ هُدًى ، وَأَمَّا مَنْ لَمْ تَسْبِقْ لَهُ صِلَةٌ مَعَ اللَّهِ ، وَلَمْ يَعْتَنِ بِالرَّسُولِ الْمَبْعُوثِ إِلَيْهِ فَيَكُونُ مُتَهَيِّئًا لِنُزُولِ الْحَدِيدِ الَّذِي فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ، وَقَوْلُنَا أَنَّ هَذَا الصِّنْفَ غَيْرُ مُسْتَعِدٍّ لِنُزُولِ الْكِتَابِ يُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : **خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ** . أَيْ خَتَمَ عَلَيْهَا فَلَا يَصِلُهَا الإِنْذَارُ ، وَلَا يَلْحَقُهَا الإِعْتِبَارُ **وَعَلَى سَمْعِهِمْ** لَا يُصْغُونَ لِلْحَقِّ

كَيْفَمَا كَانَ، وَلَوْ جِئْتَهُمْ بِكُلِّ حُجَّةٍ وَبَيَانٍ، **وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ**، وَالْمُرَادُ بِهَا الْبَصَائِرُ **غِشَاوَةٌ**، أَيْ جِجَابٌ وَغِطَاءٌ، وَهُوَ الْمُعَبَّرُ عَلَيْهِ بِالرَّانِ، فَلَا يُبْصِرُونَ الْحَقَّ أَيْنَمَا كَانَ. **وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** فِي الدُّنْيَا بِالْقَتْلِ وَالسَّبْيِ وَبِمَا لَحِقَهُمْ مِنَ الْهَوَانِ وَضَرْبِ الْجِزْيَةِ، وَفِي الْآخِرَةِ بِالنَّارِ وَبِئْسَ الْقَرَارِ، إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ.

الِاسْتِنْبَاطُ: يُسْتَخْرَجُ مِنْ قَوْلِهِ: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا، إِلَى قَوْلِهِ عَظِيمٌ خَمْسَةُ أَحْكَامٍ:

الْأَوَّلُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ الْإِنْذَارَ هُوَ صَالِحٌ لِمَنْ فِي قَلْبِهِ وَلَوْ أَدْنَى حُشَاشَةٍ مِنَ الْإِيمَانِ بِالْغَيْبِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ بِالْأَصَالَةِ فَهُوَ أَبْعَدُ مِنْ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهِ بِمَا خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قَلْبِهِ وَعَلَى سَمْعِهِ وَعَلَى بَصَرِهِ. بمجرد الترغيب والترهيب الا وكان في قلبه شيء من الايمان

الثَّانِي: عَلِمْنَا بِأَنَّ جَمِيعَ مَنْ دَخَلَ فِي الْإِسْلَامِ بِمُجَرَّدِ الْإِنْذَارِ يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ فِي حَقِّ الْكَافِرِينَ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ. والا لما انتقد

الثَّالِثُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ الْكُفْرَ وَمَا فِي مَعْنَاهُ هُوَ بِإِرَادَتِهِ تَعَالَى، كَغَيْرِهِ مِنَ الْأَفْعَالِ مِنْ إِسْنَادِهِ تَعَلُّقَ الْفِعْلِ لِنَفْسِهِ فِي قَوْلِهِ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ

وَعَلَى سَمْعِهِمْ إِلَى آخِرِهِ.

الرَّابِعُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ الْأَبْصَارَ الْمَذْكُورَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى، وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ الْمُرَادُ بِهَا الْبَصَائِرُ، لِأَنَّهَا هِيَ الَّتِي تُدْرَكُ بِهَا الْحَقَائِقُ.

الْخَامِسُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ الْعَذَابَ الْمُدَّخَرَ لِمَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ هُوَ أَبْعَدُ مِنْ أَنْ يُتَصَوَّرَ فِي الْفِكْرِ مِنْ قَوْلِهِ: وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ..

الْإِشَارَةُ: لَا تُعْتَبَرُ هَذَا الصِّنْفَ الْبَتَّةَ لِأَنَّهُمْ بِمَنْزِلَةِ الْعَوَامِ، إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ إِنَّمَا نُعْتَبَرُ صِنْفًا آخَرَ كَانَ بِالطَّاغُوتِ كَافِرًا، وَبِمَا سِوَى اللَّهِ فِي الْجُمْلَةِ لَا يَرَى مَعَ اللَّهِ سِوَى اللَّهَ خَارِجٌ عَنْ دَائِرَةِ الْإِنْذَارِ وَالتَّبْشِيرِ، لَا يَزْدَادُ إِيمَانُهُ بِتَرْغِيبٍ وَلَا تَرْهِيبٍ، خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ أَنْ يَدْخُلَهَا سِوَاهُ، وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ مِنْ أَنْ تَسْمَعَ أَوْ تَرَى غَيْرَهُ، وَلَهُمْ عَذَابٌ. قَالَ مُحْيِي الدِّينِ بْنُ الْعَرَبِيِّ، هُوَ مِنَ الْعُذُوبَةِ يَعْنِي بِالنَّظَرِ لِلْمُشَارِ إِلَيْهِ.

لِسَانُ الرُّوحِ: بَعْدَمَا تَفَرَّسَ فِي الْكُفْرَانِ وَجَدَهُ مُقَابِلًا لِلْعِيَانِ، وَوَجَدَ الْإِيمَانَ فِي الطَّرَفَيْنِ هَالِكًا، لَوْلَا أَنْ كَانَ مَرْكَزُهُ فِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ.

التَّفْسِيرُ: وَلَمَّا ذَكَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْأَصْنَافَ الثَّلَاثَةَ أَعْقَبَهَا بِذِكْرِ

الرَّابِعِ، وَهُوَ أَخْبَثُ سَرِيرَةٍ مِمَّنْ كَفَرَ: **وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ**. فِي نَفْسِ الْأَمْرِ إِنَّمَا قَالُوا ذَلِكَ لِيَعْصِمُوا دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَفِي ظَنِّهِمْ **يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا** بِمَا يُظْهِرُونَ مِنَ الْإِيمَانِ، وَيُضْمِرُونَ مِنَ الْكُفْرِ، وَفِي حَقِيقَةِ الْأَمْرِ **وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ**، فَوَبَالُ أَمْرِهِمْ رَاجِعٌ عَلَيْهِمْ **وَمَا يَشْعُرُونَ** بِذَلِكَ، وَيَظُنُّونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا، إِلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ **فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ** أَيْ دَاءٌ مُتَوَطِّنٌ، وَهُوَ عِبَارَةٌ عَنِ الشُّكُوكِ وَالْوَسَاوِسِ فِي عَقِيدَتِهِمُ السَّالِفَةِ **فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا** بِمَا أَصَابَهُمْ مِنَ التَّكْذِيبِ فِي بِعْثَةِ النَّبِيِّ وَنُزُولِ الْقُرْآنِ، **وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**، أَيْ مُؤْلِمٌ فِي الدُّنْيَا بِالشُّكُوكِ وَالْوَسَاوِسِ وَبِخَسِ الْغَنِيمَةِ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ، وَفِي الْآخِرَةِ بِالدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ. ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّ النِّفَاقَ دَاءٌ كَامِنٌ فِي النَّوْعِ الْإِنْسَانِيِّ يَتَوَارَثُ، وَلَنْ تَزَالَ رَاسِخَتُهُ بَيْنَ أَفْرَادِ الْأُمَّةِ تَتَزَايَدُ، وَبِالْأَخَصِّ فِي عَصْرِنَا تَجِدُ الْبَعْضَ مِمَّنْ يَنْتَسِبُ إِلَى الْإِسْلَامِ مُهْمَا تَغَذَّى مِنْ لَبَنِ الْأَجَانِبِ، وَلَوْ سَرَى أَدْنَى شَوْطٍ فِي

تَرْبِيَتِهِمْ يَظْهَرُ فِيهِ وَصْفُ مَنْ تَقَدَّمَ سَوَاءً بِسَوَاءٍ، تَجِدُهُ مُتَزَيِّيًا بِزِيِّ الْمُسْلِمِينَ ظَاهِرًا فِي الصُّورَةِ، وَيُخْفِي فِي بَاطِنِهِ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ، وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ، تَجِدُهُ يَقْتَرِحُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَعَلَى عَقَائِدِهِمْ وَعَوَائِدِهِمْ كُلَّ الِاقْتِرَاحِ وَيَذْكُرُ مِنْ كُلِّ مَنْ عَدَاهُمْ بِوَصْفٍ حَمِيدٍ، وَيَزْعُمُ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ غَيْرَتِهِ عَلَى الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ، وَيَدَّعِي أَنَّ الْإِسْلَامَ هُوَ عِبَارَةٌ عَنْ أَخْلَاقٍ شَرِيفَةٍ، وَهَذَا مِنَ الْمُحْتَمَلِ صِدْقُهُ إِنْ وَجَدْنَاهُ عَامِلًا بِسُنَنِ الْإِسْلَامِ، لِأَنَّ الْإِسْلَامَ لَيْسَ هُوَ مُجَرَّدُ كَلَامٍ. الصِّنْفُ الثَّانِي هُوَ أَخْبَثُ طَوِيَّةً مِنَ الْأَوَّلِ، تُؤَدِّيهِ قَرِيحَتُهُ الذَّمِيمَةُ وَجَرَاءَتُهُ الْوَخِيمَةُ إِلَى إِلْقَاءِ الشُّكُوكِ وَالْوَسَاوِسِ بَيْنَ عَوَامِّ الْمُسْلِمِينَ بِمَا يُبْدِيهِ مِنَ الشُّبَهِ فِي كِتَابِ اللَّهِ، وَيَزْعُمُ أَنَّهُ يَبْحَثُ عَنْ وَجْهِ التَّطَابُقِ بَيْنَ الْمُتَنَاقِضَيْنِ بَعْدَمَا يُبَرْهِنُ عَنْ وُجُودِهِ، وَيُرِيدُ أَنْ يَعْرِفَ مَا هِيَ الْحِكْمَةُ فِي صَوْمِ رَمَضَانَ وَفِي الصَّلَاةِ، وَهَكَذَا فِي سَائِرِ الْعِبَادَاتِ، لِيَعْمَلَ وَهُوَ عَلَى بَصِيرَةٍ وَالْحَالَةُ أَنَّهُ يُحَرِّضُ حِزْبَهُ أَنْ لَا يَعْمَلَ، فَوُجُودُ هَؤُلَاءِ أَدْهَى وَأَمَرُّ عَلَى الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ مِنْ وُجُودِ الْمُنَافِقِينَ الْأَوَّلِينَ لِوُجُودِ فَسَادِهِمْ فِي الدِّينِ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ** بِإِظْهَارِ الشُّبَهِ فِي دِينِ اللَّهِ

وَاتَّقُوا اللَّهَ مِنَ الفَسَادِ **قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ** بِمَا نُرِيدُ مِنَ البَحْثِ لِنَكُونَ مِنَ الدِّينِ عَلَى بَصِيرَةٍ، وَهَذَا مِنَ الصَّلَاحِ فِي أَقْصَى غَايَتِهِ. قَالَ تَعَالَى: «**أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ**» عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ **وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ** بِفَسَادِهِمْ لِمَا يَعْتَقِدُونَهُ فِي أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْحَذَاقَةِ وَالذَّوْقِ السَّلِيمِ، وَإِنَّهُمْ أَرْسَخُ قَدَمًا فِي مَقَامِهِمْ لَا يَرْجِعُونَ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: «**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ**» أَيِ الْمُسْلِمُونَ، وَادْخُلُوا بِقُلُوبِكُمْ فِيمَا دَخَلُوا وَاعْمَلُوا بِجَوَارِحِكُمْ مَا عَمِلُوهُ، وَفَوِّضُوا مَا وَرَاءَ ذَلِكَ لِلَّهِ **قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ**، أَيْ أَتُرِيدُونَ مِنَّا أَنْ نُؤْمِنَ إِيمَانَ هَؤُلَاءِ السُّفَهَاءِ ضُعَفَاءِ الرَّأْيِ لِأَنَّهُمْ يَظُنُّونَ أَنَّ مَا عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ هُوَ مِنَ السَّفَاهَةِ وَضَعْفِ الرَّأْيِ فَرَدَّ عَلَيْهِمْ تَعَالَى فَقَالَ: «**أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ**» فِي تَصَرُّفِهِمْ حَيْثُ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى «**وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ**» سَفَاهَتَهُمْ لِظَنِّهِمْ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا، ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى وَصْفًا آخَرَ مِنْ أَوْصَافِهِمْ فَقَالَ: «**وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا**» الْإِيمَانَ الْكَامِلَ «**قَالُوا آمَنَّا**» أَيْ يَتَظَاهَرُونَ لَهُمْ بِالْإِيمَانِ وَيَقْصِدُ الصَّلَاحَ فِي الدِّينِ، وَأَنَّ جَمِيعَ مَا ظَهَرَ مِنْهُمْ لَيْسَ هُوَ إِلَّا

غِبْطَةٌ فِي الدِّينِ شَفَقَةً عَلَى الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ «وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ» وَانْفَرَدُوا بِهِمْ، وَهُمْ أَهْلُ الْكُفْرِ الصَّرِيحِ يَلُومُونَهُمْ عَلَىٰ مُقَالَتِهِمْ ذَلِكَ، وَعَنْ بَقَاءِ وَصْلَتِهِمْ مَعَ الْمُسْلِمِينَ، وَسَأَلُوهُمْ عَنْ مَاهِيَ وِجْهَتُهُمْ فِي ذَلِكَ «قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ» بِالْمُسْلِمِينَ وَمَا حَمَلَنَا عَلَى مُوَاصَلَتِهِمْ إِلَّا مَا بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ مِنَ الْعَلَائِقِ وَالرَّوَابِطِ «اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ» الْجَزَاءُ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ، وَمِنِ اسْتِهْزَائِهِ بِهِمْ أَنْ يُمْهِلَهُمْ وَيَتْرُكَهُمْ «وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ» أَيْ يَتَرَدَّدُونَ وَلَا يُعْبَأُ بِهِمْ لِأَنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا «أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ» أَيِ اسْتَبْدَلُوا الرُّشْدَ بِالْغَيِّ، وَالْعِزَّ بِالذُّلِّ، وَالْإِيمَانَ بِالْكُفْرِ، «فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ» وَبِئْسَ مَا فَعَلُوهُ «وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ» فِي تَصَرُّفِهِمْ هَذَا، ثُمَّ ضَرَبَ اللَّهُ لَهُمْ مَثَلًا فِي سُوءِ التَّصَرُّفِ فَقَالَ: «مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا» لِيَسْتَضِيءَ لَهُ بِهَا سَبِيلُ الْهُدَىٰ، وَهُوَ عِبَارَةٌ عَنْ تَمَسُّكِهِمْ بِأَوَّلِ جُزْءٍ مِنَ الْإِسْلَامِ كَكَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ الظَّاهِرِ «فَلَمَّا أَضَاءَتْ» لَهُ تِلْكَ النَّارُ الْمُوقَدَةُ «مَا حَوْلَهُ» بِأَنْ أَوْضَحَتْ لَهُ

مَا يَتَّقِيهِ وَمَا يَفْعَلُهُ ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ أَيْ بِحَظِّهِمْ مِنْ نُورِ تِلْكَ النَّارِ لَا بِنُورِ النَّارِ، فَهِيَ لَنْ تَزَالَ نُورًا عَلَى نُورٍ، وَلِهَذَا لَمْ يَقُلْ تَعَالَى ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهَا بَلْ ذَهَبَ بِنُورِهِمْ، ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ شَيْئًا مِمَّا كَانُوا يُبْصِرُونَهُ بِسَبَبِ تَلَفُّظِهِمْ بِكَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ، لِأَنَّ نُورَهَا لَا يَدُومُ إِلَّا بِمُوَافَقَةِ اللَّفْظِ الِاعْتِقَادَ، وَحَيْثُ لَمْ يُوَافِقْ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ ﴿صُمٌّ﴾ عَنِ اسْتِمَاعِ الْحَقِّ عَلَى أَيِّ لِسَانٍ بَرَزَ، ﴿بُكْمٌ﴾ عَنِ النُّطْقِ بِهِ ﴿عُمْيٌ﴾ عَنْ سُلُوكِ سَبِيلِ الرَّشَادِ، وَلَمَّا كَانَ الْأَعْمَى قَدْ يَنْقَادُ لِمَنْ يَقُودُهُ نَفَى عَنْهُمْ تَعَالَى الِانْقِيَادَ مُبَالَغَةً فِي تَمَرُّدِهِمْ فَقَالَ: ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ مِنْ غَيِّهِمْ، وَبِهَذَا عَلِمْنَا أَنَّ عَمَى الْقَلْبِ أَشَدُّ مِنَ الْبَصَرِ. وَلَمَّا كَانَ فِي الطَّائِفَةِ أَصْنَافٌ ذَكَرَهُمُ اللَّهُ بِمِثَالٍ آخَرَ فَقَالَ: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أَيْ أَوْ مَثَلُهُمْ كَصَاحِبِ صَيِّبٍ، أَيْ مَطَرٍ مِنَ السَّمَاءِ، وَهُوَ تَشْبِيهٌ فِي نُزُولِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ وَوُقُوعِهِ عَلَى الْقُلُوبِ، فَقَدْ يَنْفَعُهَا كَمَا يَنْفَعُ الْمَطَرُ الْأَرْضَ الْخِصْبَةَ، وَفِي ذَلِكَ الْمَطَرِ النَّازِلِ مِنَ السَّمَاءِ ﴿فِيهِ ظُلُمَاتٌ﴾ وَهُوَ عِبَارَةٌ عَمَّا اسْتَشْكَلُوهُ مِنْ مُتَشَابِهِ الْقُرْآنِ ﴿وَرَعْدٌ﴾ وَهُوَ عِبَارَةٌ

عَمَّا هَدَّدَهُمْ القُرْآنُ بِهِ مِنَ الزَّوَاجِرِ وَالوَعِيدِ، **وَبَرْقٌ**، عِبَارَةٌ عَنْ لَمَعَانِ بَرَاهِينِهِ البَيِّنَاتِ، وَحُجَجِهِ الوَاضِحَاتِ، وَبِمَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنَ التَّهْدِيدَاتِ **(يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ)** عِبَارَةٌ عَنْ إِعْرَاضِهِمْ بِقُلُوبِهِمْ، لِئَلَّا يُؤَثِّرَ فِيهَا شَيْءٌ **(مِنَ الصَّوَاعِقِ)**، أَيِ الزَّوَاجِرِ يَفْعَلُونَ ذَلِكَ **حَذَرَ** أَيْ خَشْيَةَ **المَوْتِ**، لِعِلْمِهِمْ أَنَّ كُلَّ مَنْ فَتَحَ سَمْعَهُ لِلْقُرْآنِ العَظِيمِ انْقَادَ وَانْطَرَحَ بَيْنَ يَدَيِ المُصْطَفَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كَأَنَّهُ مَيِّتٌ لِأَنَّ الإِسْلَامَ يَقْضِي بِمَوْتِ النُّفُوسِ وَإِبْطَالِ شَهَوَاتِهَا البَهِيمِيَّةِ، وَالمُنَافِقُونَ لَا يَرْضَوْنَ بِذَلِكَ، **وَاللَّهُ**، الَّذِي لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ، **مُحِيطٌ بِهِمْ** وَبِالكَافِرِينَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِوَقْتٍ مَعْلُومٍ، وَمِنْ سُوءِ حَظِّهِمْ قَدْ يَظْهَرُ لَهُمْ شَيْءٌ وَتَغِيبُ عَنْهُمْ أَشْيَاءُ وَهُوَ قَوْلُهُ: **(يَكَادُ البَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ)**، أَيْ تَقْرُبُ لَمَعَانُ بَرَاهِينِ القُرْآنِ العَظِيمِ أَنْ تَجْنَحَ بِأَبْصَارِهِمْ لِرُؤْيَةِ الحَقِّ بِدُونِ اخْتِيَارٍ مِنْهُمْ لِوُضُوحِ دَلَائِلِهِ **مَشَوْا فِيهِ** خُطُوَاتٍ فِي سَبِيلِ الهُدَى وَطَلَبِ الحَقِّ **وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا**، أَيْ وَقَفُوا وَنَكَسُوا عَلَى أَعْقَابِهِمْ، وَتَرَدَّدُوا فِي مُعْتَقَدِهِمْ **وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ** هِدَايَتَهُمْ **لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ**

إِلَى رُؤْيَةِ الْحَقِّ وَاسْتِمَاعِهِ **إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**. أَيْ فَلَا يَعْجِزُهُ إِضْلَالُ الْمُهْتَدِي وَلَا هِدَايَةُ الْمُضِلِّ.

الِاسْتِنْبَاطُ: يُسْتَخْرَجُ مِنْ قَوْلِهِ وَمِنَ النَّاسِ إِلَى قَوْلِهِ قَدِيرٌ سَبْعَةَ عَشَرَ حُكْمًا:

الْأَوَّلُ: عَلِمْنَا بِأَنَّهُ تَعَالَى يُرِيدُ مِنَ الدَّاعِي إِلَيْهِ التَّنْصِيصَ عَنْ وُجُودِ الْمُفْسِدِينَ بِذِكْرِ صِفَتِهِمْ مُبْهَمَةً، لَا وَجْهِ التَّعْيِينِ الشَّخْصِيِّ، تَغْلِيبًا لِجَانِبِ السَّتْرِ عَلَى الْفَضِيحَةِ مِنْ قَوْلِهِ: وَمِنَ النَّاسِ إِلَى آخِرِهِ، وَهُوَ تَعَالَى قَادِرٌ عَلَى تَعْيِينِ الْقَائِلِ بِعَيْنِهِ، وَكُلُّ ذَلِكَ تَفَضُّلٌ وَرَحْمَةٌ مِنْهُ بِخَلْقِهِ.

الثَّانِي: عَلِمْنَا بِأَنَّ الْمُنَافِقِينَ مَا حَمَلَهُمْ عَلَى النِّفَاقِ فِي الْغَالِبِ إِلَّا الطَّمَعُ، يَفْعَلُونَ ذَلِكَ لِيَتَوَصَّلُوا لِبَعْضِ أَغْرَاضِهِمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِقَوْلِهِ: يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا.

الثَّالِثُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ الْمُنَافِقَ كَيْفَمَا كَانَ كَيْدُهُ إِلَّا وَهُوَ رَاجِعٌ عَلَيْهِ، فَكُلٌّ يُعَامِلُهُ اللَّهُ بِقَصْدِهِ مِنْ قَوْلِهِ: **وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ**.

الرَّابِعُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ الْمُنَافِقِينَ كَانَتْ لَهُمْ أَمْرَاضٌ قَلْبِيَّةٌ مِنَ الشُّكُوكِ

وَالْوَسَاوِسِ قَبْلَ اجْتِمَاعِهِمْ بِالنَّبِيِّ وَإِنْ كَانُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ ، وَلَمَّا جَاءَ الإِسْلَامُ زَادَهُمْ مَرَضًا عَلَى مَرَضٍ ، مِنْ قَوْلِهِ : فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا .

الخَامِسُ : عَلِمْنَا بِأَنَّ فِي المُؤْمِنِينَ مَنْ كَانَ لَهُ إِطِّلَاعٌ عَنِ المُنَافِقِينَ بِأَشْخَاصِهِمْ وَقَدْ كَانَ يَنْصَحُ لَهُمْ فِي السِّرِ ، وَلَكِنَّهُمْ لَا يُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ، مِنْ قَوْلِهِ : وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ ، وَمِنَ المَعْلُومِ أَنَّهُ قَوْلُ بَعْضِ المُؤْمِنِينَ لَهُمْ عَلَى مَا يَتَضَمَّنُهُ جَوَابُهُمْ .

السَّادِسُ : عَلِمْنَا بِأَنَّ القَائِلَ الثَّانِي لَهُمُ المَأْخُوذُ مِنْ قَوْلِهِ : وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا هُوَ فِي الغَالِبِ مِنْ غَيْرِ المُؤْمِنِينَ ، كَأَنْ يَقُولَ لَهُمُ الكَافِرُ حَيْثُ أَنَّكُمْ تُوَاصِلُونَ المُسْلِمِينَ آمِنُوا إِيمَانَهُمْ ، وَإِلَّا لَمَا اسْتَطَاعُوا مُوَاجَهَةَ المُؤْمِنِينَ بِقَوْلِهِمْ : أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ .

السَّابِعُ : عَلِمْنَا بِأَنَّ المُنَافِقِينَ كَانَتْ تَخْرُصُ أَلْسِنَتُهُمْ بِحَضْرَةِ المُؤْمِنِينَ الإِيمَانَ الخَالِصَ لِرَبِّ العَالَمِينَ ، مِنْ قَوْلِهِ : وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا .

الثَّامِنُ : عَلِمْنَا بِأَنَّ قَوْلَ الْمُنَافِقِينَ كَانَ مُتَرَكِّبًا مِنْ صِدْقٍ وَكَذِبٍ، فَقَوْلُهُمْ لِلْمُؤْمِنِينَ كَذِبٌ ، وَقَوْلُهُمْ لِلْكَافِرِينَ إِنَّا مَعَكُمْ صِدْقٌ ، وَلَوْ عَكَسُوا لَكَانَ حُكْمًا آخَرَ ، وَلَا يَكُونُ الْإِيمَانُ إِيمَانًا إِلَّا إِذَا ارْتَبَطَ الْقَلْبُ بِاللِّسَانِ .

التَّاسِعُ : عَلِمْنَا بِأَنَّ الْأَلْفَاظَ الَّتِي لَا تَجُوزُ نِسْبَتُهَا لِلَّهِ ، كَالِاسْتِهْزَاءِ وَنَحْوِهِ تُطْلَقُ عَلَيْهِ فِي كِتَابِهِ عَلَى طَرِيقَةِ الْمُشَاكَلَةِ ، مِنْ قَوْلِهِ : اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ .

الْعَاشِرُ : عَلِمْنَا بِأَنَّ الْمُرَادَ بِالِاسْتِهْزَاءِ هُوَ أَنْ يَمُدَّ اللَّهُ فِي عُمُرِ الْمُسْتَهْزَئِ بِهِ بِحَيْثُ لَا يَعْبَأُ بِهِ ، مِنْ قَوْلِهِ : وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ .

الْحَادِي عَشَرَ : عَلِمْنَا بِأَنَّ النِّفَاقَ هُوَ تِجَارَةٌ مَعْدُومَةُ النَّتِيجَةِ أَيْ لَا يَتَوَصَّلُ بِهِ الْمُنَافِقُ لِغَرَضِهِ ، مِنْ قَوْلِهِ : فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ .

الثَّانِي عَشَرَ : عَلِمْنَا بِأَنَّ الْأَمْثَالَ الْمَضْرُوبَةَ لِلسَّامِعِينَ هِيَ أَسْرَعُ فِي وُصُولِ الْمَعَانِي لِلْأَذْهَانِ ، وَإِنَّهَا مِنْ أَنْوَاعِ الْبَيَانِ الَّذِي يَزِيدُ فِي الْحَقِّ وُضُوحًا ، وَإِلَّا لَمَا اسْتَجْلَبَهَا تَعَالَى فِي مَعْرِضِ كَلَامِهِ ، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ : مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا .. إِلَى آخِرِهِ .

الثَّالِثُ عَشَرَ : عَلِمْنَا بِأَنَّ الإِقْرَارَ بِمُجَرَّدِ اللِّسَانِ هُوَ عَلَى كُلِّ حَالٍ نُورٌ لَكِنْ لَا يَمْتَدُّ ضِيَاؤُهُ إِلَّا إِذَا اتَّصَلَ بِالْجَنَانِ ، وَإِنْ لَمْ يَتَّصِلْ عَلَى الْفَوْرِ يَكُنْ سَرِيعَ الزَّوَالِ ، وَتَعْقُبُهُ ظُلْمَةٌ أَشَدُّ مِنْ ذِي قَبْلُ، مِنْ قَوْلِهِ : كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا ، وَلَا شَكَّ أَنَّهَا عِبَارَةٌ عَنِ النُّطْقِ بِكَلِمَةِ الإِخْلَاصِ .

الرَّابِعُ عَشَرَ : عَلِمْنَا بِأَنَّ الْمُصَابَ بِدَاءِ النِّفَاقِ لَا يَتَأَتَّى رُجُوعُهُ لِلْحَقِّ فِي الْغَالِبِ ، فَيَكُونُ رُجُوعُهُ أَبْعَدَ مِنَ التَّظَاهُرِ بِالْكُفْرِ ، مِنْ قَوْلِهِ: فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ

الْخَامِسُ عَشَرَ : عَلِمْنَا بِأَنَّ فِي الْمُنَافِقِينَ أَصْنَافًا ، وَذَلِكَ يُؤْخَذُ مِنْ تَلْوِينِهِ الْمِثَالَ بِقَوْلِهِ : أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ .

السَّادِسُ عَشَرَ : عَلِمْنَا بِأَنَّ الْكُفْرَ هُوَ أَعَمُّ مِنَ النِّفَاقِ ، فَكُلُّ مُنَافِقٍ كَافِرٌ وَلَا عَكْسَ ، مِنْ قَوْلِهِ عَقِبَ ذِكْرِ الْمُنَافِقِينَ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ .

السَّابِعُ عَشَرَ : عَلِمْنَا بِأَنَّ الْمُنَافِقِينَ قَدْ كَانَتْ تَقْدَحُ فِي بَوَاطِنِهِمْ مِنْ أَشِعَّةِ الإِيمَانِ أَحْيَانًا بِسَبَبِ مُجَالَسَتِهِمْ لِلنَّبِيِّ ، غَيْرَ أَنَّهَا سَرِيعَةُ الِانْقِلَابِ مِنْ قَوْلِهِ: كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ .

الإِشَارَةُ : لَا تَحْصُرِ النِّفَاقَ فِي الصِّنْفِ السَّابِقِ ، وَلَا تَعْتَبِرْ صَاحِبَهُ لِسُقُوطِهِ

مِنْ عَيْنِ اللَّهِ وَدُخُولِهِ فِي حَيِّزِ الْكُفْرِ، إِنَّمَا تَعْتَبِرُ فُرُوعَهُ الْكَامِنَةَ فِي أَهْلِ الْمُعَبَّرِ عَلَى صَاحِبِهَا فِي لِسَانِ الشَّرْعِ بِذِي الْوَجْهَيْنِ، كَمَا أَنَّهَا لَا تَعْتَبِرُ الشِّرْكَ الصَّرِيحَ، إِنَّمَا تَعْتَبِرُ فُرُوعَهُ أَيِ الشِّرْكَ الْمُؤَوَّلَ، الْمُشَارَ لَهُ فِي الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ بِقَوْلِهِ: الشِّرْكُ فِي أُمَّتِي أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ عَلَى الصَّخْرَةِ الصَّمَّاءِ، وَقَدْ يُعَبِّرُونَ عَنْهُ بِشِرْكِ الْأَعْرَاضِ، وَعَلَى هَذَا يَكُونُ الْمُنَافِقُ فِي مَقَامِ الْإِحْسَانِ مُسْلِمًا بِخِلَافِهِ فِي مَقَامِ الْإِسْلَامِ فَإِنَّهُ كَافِرٌ لِأَنَّ الْعِبْرَةَ بِالضَّمَائِرِ، وَقَوْلُنَا فِي الْأَوَّلِ مُسْلِمٌ، أَيْ لَنْ يَحْكُمَ لَهُ بِالْإِحْسَانِ الْمُتَرَبِّي بِهِ ظَاهِرًا، ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّ هَذَا الصِّنْفَ هُوَ الْمُتَرَدِّدُ بَيْنَ أَهْلِ اللَّهِ وَبَيْنَ مَنْ يُنْكِرُ سِرَّ الْخُصُوصِيَّةِ فِي الْأُمَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ، كَالْقَدَرِيَّةِ وَمَنْ نَحَا نَحْوَهُمْ مِمَّنْ يَدَّعِي السُّنَّةَ، وَبَيَانُ قَوْلِهِمْ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ لَيْسَ فِي الشَّرْعِ إِلَّا مَا وَصَلَ إِلَيْنَا مِنْ جِهَةِ الظَّوَاهِرِ، وَيُنْكِرُونَ مَا تَدَّعِيهِ الْقَوْمُ فِي جَمِيعِ مَعْلُومَاتِهِمْ، وَلَوْ كَانَ هَذَا الْفَرِيقُ كَافِرًا بِسِرِّ الْخُصُوصِيَّةِ كَانَ الْمُتَرَدِّدُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَهْلِ اللَّهِ الْمُتَظَاهِرِ لِكُلِّ فَرِيقٍ بِمَا يَسْتَحْسِنُهُ مُنَافِقًا بِهَذَا الِاعْتِبَارِ وَالَّذِي يَدُلُّكَ عَلَى أَنَّهُمْ جَحَدُوا مَا يَقْرُبُ أَنْ يُعْرَفَ مِنَ الدِّينِ بِالضَّرُورَةِ

هُوَ قَوْلُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: إِنَّ مِنَ الْعِلْمِ كَهَيْئَةِ الْمَكْنُونِ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا الْعُلَمَاءُ بِاللَّهِ، فَإِذَا أَظْهَرُوهُ أَنْكَرَتْهُ أَهْلُ الْغِرَّةِ بِاللَّهِ. وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي صَدْرِ الْكِتَابِ مَا يُغْنِي عَنِ الْإِطْنَابِ، وَبِمَا اعْتَادَهُ هَذَا الْفَرِيقُ مِنَ الْكُفْرِ لِهَذِهِ النِّعْمَةِ تَعَيَّنَ الْإِسْتِتَارُ وَكِتْمَانُ الْأَسْرَارِ، وَقَدْ نَصَّ الْقَوْمُ عَلَى عَدَمِ جَوَازِ التَّكَلُّمِ بِمَا خَفِيَ مِنَ الْأَسْرَارِ إِلَّا مَعَ أَهْلِهَا عَمَلًا بِالْحَدِيثِ. قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ، أَتُرِيدُونَ أَنْ يُكَذِّبُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ. نَقَلَهُ فِي الْجَامِعِ الصَّغِيرِ. وَقَالَ أَيْضًا: مَا أَنْتَ مُحَدِّثٌ قَوْمًا حَدِيثًا لَا تَبْلُغُهُ عُقُولُهُمْ إِلَّا كَانَ عَلَى بَعْضِهِمْ فِتْنَةً. وَعَنِ ابْنِ الطُّفَيْلِ قَالَ: سَمِعْتُ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى الْمِنْبَرِ يَقُولُ: أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللَّهُ وَالرَّسُولُ، لَا تُحَدِّثُوا النَّاسَ إِلَّا بِمَا يَعْلَمُونَ

وَمِنْ هَذَا الْقَبِيلِ قَوْلُ الْإِمَامِ مُحَمَّدِ بْنِ إِدْرِيسَ الشَّافِعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

خَاطِبِ النَّاسَ بِالَّذِي أَلِفُوهُ ... وَتَجَنَّبْ خِلَافَ مَا أَلِفُوهُ

إِنَّ فِي الْجَاهِلِينَ غَوْرًا عَظِيمًا ... لَوْ يَرَوْنَ التَّحْقِيقَ مَا عَرَفُوهُ

مَنْ نَهَاهُمْ عَنْ غَيِّهِمْ وَهَوَاهُمْ ... رَمَوْهُ بِالزُّورِ وَتَلَفُوهُ

تَجَهَّلْ مَعَ الْجُهَّالِ وَسَلِّمْ ... لَهُمْ فِي الْمُحَالِ مُذْ مَدَحُوهُ

فَإِذَا كُنْتَ مُبْصِرًا عِنْدَ أَعْمَى ... فَاكْتُمِ الْحَقَّ حَيْثُ لَمْ يَعْرِفُوهُ

ثُمَّ إِنِّي مَهْمَا ذَكَرْتُ مِثْلَ هَذَا الْفَرِيقِ بِالْكُفْرِ فَلَا نَعْنِي بِهِ إِلَّا الْكُفْرَ الْأَصْغَرَ كَمَا تَقَدَّمَ فِي النِّفَاقِ وَالشِّرْكِ، وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ مِنْ إِطْلَاقِ ذَلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِ كَقَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: قَتْلُ الْمُؤْمِنِ كُفْرٌ، وَسَبُّهُ فُسُوقٌ، وَكَقَوْلِهِ: مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ أَشْرَكَ. وَعَلَى هَذَا فَلَا تُهْمَةَ فِي تَعْبِيرِنَا عَنِ الْبَعْضِ مِنْ عُمُومِ أَهْلِ الْقِبْلَةِ بِالْكُفْرِ وَالشِّرْكِ وَنَحْوِهِ، فَلِكُلِّ مَقَامٍ كَلَامٌ وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ: حَسَنَاتُ الْأَبْرَارِ سَيِّئَاتُ الْمُقَرَّبِينَ، وَإِذَا صَحَّ هَذَا. فَلَا مَحْظُورَ فِي إِطْلَاقِنَا الْكُفْرَ عَلَى مَنْ نَفَى الْخُصُوصِيَّةَ بَيْنَ الْأَئِمَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ وَإِطْلَاقِنَا النِّفَاقَ عَلَى الْمُتَظَاهِرِ لِأَهْلِ اللَّهِ بِخِلَافِ مَا يُضْمِرُهُ فِيهِمْ، وَلَعَلَّكَ تَقُولُ مَنْ يُنْكِرُ ذَلِكَ مِنْ أَهْلِ اللَّهِ وَالْحَقُّ يَقُولُ فِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ الْقُدْسِيَّةِ مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَلَوْلَا تَكْذِيبُهُمْ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ لَمَا قَالَ الذَّهَبِيُّ فِي ابْنِ الْفَارِضِ يَنْعِقُ بِالْإِتِّحَادِ الصَّرِيحِ. وَقَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةَ فِي ابْنِ الْعَرَبِيِّ الْحَاتِمِيِّ بِالْكُفْرِ الصَّرِيحِ. وَقَالَ فِيهِ إِبْرَاهِيمُ الْجَعْبَرِيُّ: هُوَ شَيْخٌ نَجِسٌ يُكَذِّبُ بِكُلِّ كِتَابٍ. وَقَالَ فِيهِ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ السَّلَامِ: هُوَ شَيْخٌ

سُوءٍ مَقْبُوحٌ، وَقَالَ قَاضِي الْجَمَاعَةِ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ فِي ابْنِ سَبْعِينَ وَابْنِ الْفَارِضِ، وَأَبِي فَارِسِي، وَابْنِ مَرْجَانَةَ، وَالْعَفِيفِ التِّلِمْسَانِي. وَنَقَلَ الْقُشَيْرِي عَنْ فَارِسَ الصُّوفِي أَنَّهُ قَالَ فِي الْغَزَالِي: مَثَلُهُ كَحَاطِبِ اللَّيْلِ، يَجْمَعُ فِيمَا يَحْطِبُ الْحَيَّاتِ وَالْعَقَارِبَ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ. وَقَالَ فِي الْجُنَيْدِ بِالْجَهْلِ الْمُرَكَّبِ، وَفِي الشَّيْخِ عَبْدِ الْقَادِرِ بِالتَّخَبُّطِ فِي كَلَامِهِ، وَقَالَ فِي ابْنِ الْفَارِضِ بِالْكُفْرِ وَالْإِلْحَادِ وَمِنْ هَذَا الْكَلَامِ مَا يَفُوقُ الْحَصْرَ، وَمَنْ أَرَادَ الِاسْتِطْلَاعَ عَلَى أَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَلْيَنْظُرِ الْكِتَابَ الْمُسَمَّى بِالْعَالَمِ الشَّامِخِ فِي إِيثَارِ الْحَقِّ عَلَى الْآبَاءِ وَالْمَشَايِخِ، فَقَدْ جَمَعَ فِيهِ صَاحِبُهُ مَا يَقْضِي بِسُقُوطِهِ مِنْ عَيْنِ اللَّهِ هُوَ وَمَنْ عَلَى شَاكِلَتِهِ، إِنْ لَمْ يَتَدَارَكْهُمُ اللَّهُ بِلُطْفِهِ، وَمَا ذَكَرْتُ هَذِهِ الْجُمْلَةَ إِلَّا اسْتِدْلَالًا عَلَى بَقَاءِ هَذِهِ الطَّائِفَةِ بَيْنَ أَفْرَادِ الْمُسْلِمِينَ، وَبِهَذِهِ الْمُنَاسَبَةِ يَصِحُّ التَّطَابُقُ فِي جَمِيعِ مَا تَقَدَّمَ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ فِي الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ عَلَى الصِّنْفَيْنِ الْمُشَارِ لَهُمُ الْآنَ وَلَوْلَا خَشْيَةُ التَّطْوِيلِ لَتَتَبَّعْنَا ذَلِكَ، فَتَجِدُ الْمَعْنَى شَمَلَتْ بِكِلَيْهِمَا سَوَاءً بِسَوَاءٍ، وَمَقَامُهُمْ حَيْثُ أَقَامَهُمْ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِلَى رُؤْيَةِ الْحَقِّ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٍ

وَقَدْ ضَرَبَ اللَّهُ تَعَالَى مَثَلاً لِلْمُتَرَدِّدِينَ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ لِيَسْتَطْلِعَ عَلَى مَعْلُومَاتِهِمْ، وَيَأْخُذَ قَبَسًا مِنْ مُعْتَقَدَاتِهِمْ، فَقَالَ: مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا، وَهِيَ عِبَارَةٌ عَنِ الِانْقِيَادِ ظَاهِرًا، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ بِأَنِ اتَّضَحَ لَهُ مِنَ الْحَقِّ مَا يَسِيرُ عَلَى مِنْوَالِهِ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ أَكْثَرَ مِمَّا كَانُوا عَلَيْهِ قَبْلَ الِانْقِيَادِ، صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ عِبَارَةٌ عَلَى إِسْرَارِ الْقَوْمِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَهُوَ غَوَامِضُهُ وَرَعْدٌ عِبَارَةٌ عَنْ سَطْوَتِهِ وَقَهْرِيَّتِهِ فِي الْقُلُوبِ، وَبَرْقٌ عِبَارَةٌ عَنْ ظُهُورِ أَنْوَارِهِ وَلَمَعَانِ أَسْرَارِهِ، وَبِمُوجِبِ مَا تَحَقَّقُوهُ مِنْ أَنَّهُ عَلَى خِلَافِ مَعْلُومَاتِهِمْ وَإِنَّهُ قَاضٍ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالدَّمَارِ، وَإِعْدَامِهَا بِالْمَرَّةِ، يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ، وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ وَبِكُلِّ شَيْءٍ، عَرَفَ الْمُنَافِقُونَ أَمْ جَهِلُوا، يَكَادُ الْبَرْقُ الْمُشَارُ إِلَيْهِ سَابِقًا يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ إِلَى رُؤْيَةِ الْحَقِّ وَمُشَاهَدَتِهِ بِدُونِ اخْتِيَارٍ مِنْهُمْ عَلَى مَا يَقْتَضِيهِ الظُّهُورُ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ شَيْءٌ مِمَّا يَقْتَضِيهِ التَّوْحِيدُ الْخَاصُّ كَقَوْلِهِمْ: لَا فَاعِلَ إِلَّا اللَّهُ، وَهَذَا مِمَّا يُعْتَبَرُ مَصْدَقُهُ لَوْ تَبَتَّلُوا لَهُ وَتَأَمَّلُوا مَعْنَاهُ، فَهُوَ أَوَّلُ شَرْطٍ

في الفاعل ولم يبق الا ان يلاحظوه

فِي سَبِيلِ الإِحْسَانِ، وَقَدْ عَرَفُوا اللَّهَ فِي وِجْهَةٍ، أَيْ لاَحَظُوهُ فِي المَفْعُولِ، وَلَكِنَّهُ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ مَا عَرَفُوهُ مِنْ أَنَّ لاَ فَاعِلَ إِلاَّ اللَّهُ، مِنْ جِهَةِ مَا اشْتَبَهَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَفْعَالِ الْعَبِيدِ، وَلُزُومِ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ، فَوَقَفُوا حَيَارَى، وَهُوَ قَوْلُهُ: وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا مُتَرَدِّدِينَ عَنْ مَقَالَتِهِمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ رَجَعَ إِلَى القَدَرِيَّةِ وَقَالَ الْعَبْدُ يَخْلُقُ أَفْعَالَ نَفْسِهِ الإِخْتِيَارِيَّةِ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَثْبَتَ الأَفْعَالَ الْكَسْبِيَّةَ، وَكُلُّ هَذَا مِنَ التَّحَكُّمَاتِ الْعَقْلِيَّةِ عَلَى مَا اقْتَضَتْهُ الْحِكْمَةُ الأَزَلِيَّةُ مِنْ لُزُومِ الإِسْتِتَارِ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَبِجَمِيعِ صِفَاتِهِمْ وَاسْتَبْدَلَهَا بِصِفَاتِهِ، فَصَارُوا يَسْمَعُونَ بِاللَّهِ، وَيُبْصِرُونَ بِهِ، كَمَا قَالَ لِنَبِيِّهِ أَسْمِعْ بِهِ وَأَبْصِرْ وَإِنْ مَعَ اعْرَاضِهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ: إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَمِنْ قُدْرَتِهِ الْبَاهِرَةِ وَسَطْوَتِهِ الْقَاهِرَةِ أَنْ احْتَجَبَ فِي ظُهُورِهِ وَظَهَرَ فِي بُطُونِهِ.

لِسَانُ الرُّوحِ: بَعْدَ مَا اسْتَفْسَرْتُهُ فِي دَائِمِ التِّفَاقِ فَوَجَدْتُهُ يُفْهِمُ بِهِ مَا سِوَاهُ عَلَى الإِطْلاَقِ، فَقُلْتُ وَكَيْفَ الْمَفَرُّ، فَقَالَ: إِلاَّ إِذَا عَرَفْتَ الْبَاطِنَ فِي الظَّاهِرِ، وَتَكَلَّمْتَ بِمَا فِي نَفْسِ الأَمْرِ.

التفسير : وَلَمَّا قَدَّمَ تَعَالَى ذِكْرَ الأَصْنَافِ الأَرْبَعَةِ ، وَذِكْرَ كُلِّ صِنْفٍ بِمَا يَسْتَحِقُّهُ مِنْ مَدْحٍ وَقَدْحٍ ، رَجَعَ الْجَمِيعَ بِطَرِيقَةِ الإِسْتِعْطَافِ فَضْلاً مِنْهُ وَمِنَّةً ، وَلِئَلَّا يَكُونَ حَرُوجًا عَمَّا يَقْتَضِيهِ الرِّفْقُ بِالْجَمِيعِ فَقَالَ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ**» خِطَابًا لِعُمُومِ الْمُكَلَّفِينَ مِنْ عَابِدٍ وَجَاحِدٍ «**اعْبُدُوا رَبَّكُمْ**» وَاعْرِفُوهُ أَنَّهُ هُوَ «**الَّذِي خَلَقَكُمْ وَ**» خَلَقَ «**الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ**» مِنَ الْقُرُونِ لأَجْلِ الْعِبَادَةِ ، فَإِنْ عَبَدْتُمُوهُ عَلَى أَنَّهُ خَالِقُكُمْ ، مُخْلِصِينَ فِي عِبَادَتِكُمْ ، لاَ لِغَرَضٍ يَشُوبُهَا مِنَ الطَّمَعِ فِي الْجَنَّةِ وَخَوْفٍ مِنَ النَّارِ «**لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**» ، أَيْ تَصِلُونَ إِلَى دَرَجَةِ الْمُتَّقِينَ الْمُكْرَمِينَ ، الْمُشَارِ لَهُمْ بِقَوْلِهِ: «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ» ، فَالْمُتَّقِي حَقِيقَةً هُوَ مَنْ يَتَّقِي اللَّهَ لِذَاتِهِ ، وَالْمُتَّقِي مَجَازًا هُوَ مَنْ يَتَّقِيهِ لِنَارِهِ ، وَلِهَذَا دَعَا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عُمُومَ الْمُكَلَّفِينَ إِلَى أَعْلَى دَرَجَةِ التَّقْوَى ، فَكَأَنَّهُ تَعَالَى يَقُولُ فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَتَّقُونِي عَلَى أَنِّي أَهْلُ التَّقْوَى فَهُوَ الأَوْلَى ، وَإِلاَّ فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ، وَالْمَعْنَى أَنَّ النَّاسَ الْمُنْقَادِينَ لِلَّهِ عَلَى ثَلاَثَةِ أَقْسَامٍ: قِسْمٌ انْقَادَ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَاتَّقَاهُ عَلَى أَنَّهُ أَهْلٌ لِلتَّقْوَى ، وَأَهْلٌ أَنْ

يُعْبَدَ بِمُوجِبِ حَقِّهِ عَلَى الْعَبْدِ وَنِعْمَتِهِ عَلَيْهِ الَّتِي مِنْ أَعْظَمِهَا إِخْرَاجُهُ مِنَ الْعَدَمِ إِلَى الْوُجُودِ ، فَهُوَ فِي أَدَاءِ شُكْرِ هَذِهِ النِّعْمَةِ مُرْتَهَنٌ ، وَإِنْ اسْتَغْرَقَ الْأَبَدَ فِي الْعِبَادَةِ ، وَهَذَا الْقِسْمُ هُوَ أَهْلُ الْمُرُوءَةِ ، وَلِهَذَا دَعَا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِهَذِهِ النِّعْمَةِ لَعَلَّ تَكُونَ عِبَادَةُ الْكُلِّ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ .

الْقِسْمُ الثَّانِي وَهُوَ أَهْلُ الطَّمَعِ فِي الْجَنَّةِ ، فَإِنَّهُ تَعَالَى بَعْدَمَا انْتَخَبَ الْمُخْلِصِينَ لِحَضْرَتِهِ وَشَرَدَ الْبَاقُونَ عَنْ بَابِهِ نَصَبَ شَبَكَةً لِيَقْتَنِصَ بِهَا مَنْ غَلَبَ الطَّمَعُ عَلَيْهِ ، فَوَضَعَ الْجَنَّةَ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ، فِيهَا أَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ، فِيهَا نَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ، فِيهَا زَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ، فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ ، فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ ، وَكُلُّ ذَلِكَ رَحْمَةٌ مِنْهُ بِخَلْقِهِ ، وَلَمَّا وَقَعَ فِيهَا خَلْقٌ كَثِيرٌ ، وَوُضِعَتْ فِي أَعْنَاقِهِمْ رِبْقَةُ التَّكْلِيفِ ، وَقَامُوا فِي طَلَبِ الْجَنَّةِ ، وَمَا أَعَدَّ اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِينَ فَأَضْنَاهُمُ الصِّيَامُ وَأَعْيَاهُمُ الْقِيَامُ ، فَفَرَّ الْقِسْمُ الثَّالِثُ خَشْيَةَ أَنْ يَحُلَّ بِهِ مَا حَلَّ بِهِمْ ، فَإِنَّهُ لَمْ يَعْتَبِرْ مَا أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ فِيمَا يُكَابِدُونَهُ مِنْ أَجْلِهِ ، وَلَمَّا اسْتَقَرَّ الْفَرِيقَانِ عَلَى بَسَائِطِ الْعُبُودِيَّةِ وَبَقِيَ فَرِيقٌ هُنَاكَ لَمْ تُقَاوِمْهُ الدَّعَوَاتُ فَاسْتَرْجَعَهُ تَعَالَى بِصَوْتِ التَّهْدِيدِ وَأَنْوَاعِ الْوَعِيدِ ، فَرَجَعَ بَاكِيًا حَزِينًا ،

فَهُوَ وَاقِفٌ عَلَى بَابِ اللَّهِ، وَالسَّوْطُ مِنْ خَلْفِهِ، ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ» مِنْ حُسْنِ الدَّعْوَةِ وَأُسْلُوبِ الِاسْتِجْلَابِ مَا يُسْتَحْسَنُ ذِكْرُهُ، وَمِنْ ذَلِكَ دُعَاءُ عُمُومِ النَّاسِ، مَعَ أَنَّ فِيهِمُ الْعَابِدِينَ رَحْمَةً بِالْجَاحِدِ عَسَى أَنْ يَنْهَضَ بِهِ ضَمِيرُ الْجَمْعِ فَيَدْخُلُ فِيمَا دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ، بِخِلَافِ مَا لَوْ دَعَا بِالِانْفِرَادِ، فَقَدْ يَسْتَوْحِشُ غَالِبًا، وَالثَّانِي أَنَّهُ دَعَاهُمْ لِعِبَادَتِهِ بِاسْمِ الرَّبِّ لَا بِغَيْرِهِ مِنَ الْأَسْمَاءِ، لِمَا بَيْنَ الرَّبِّ وَالْمَرْبُوبِ مِنَ الرَّابِطَةِ وَالتَّلَازُمِ، فَهُوَ يَمِيلُ إِلَيْهِ بِالطَّبْعِ غَالِبًا، أَلَا تَرَى أَنَّ الْإِنْسَانَ مَهْمَا اشْتَدَّتْ أُزْمَتُهُ بِمَرَضٍ أَوْ نَحْوِهِ فَأَوَّلُ اسْمٍ يَتَعَلَّقُ بِهِ جَنَانُهُ وَيَلْتَصِقُ بِهِ لِسَانُهُ قَائِلًا: يَا رَبِّي، فَكَانَ هَذَا الِاسْمُ أَدْعَى فِي انْقِيَادِ الْمَرْبُوبِ إِلَيْهِ. الثَّالِثُ أَنَّهُ تَعَالَى دَعَى عِبَادَهُ عَلَى اخْتِلَافِ مَرَاتِبِهِمْ إِلَى أَعْلَى دَرَجَةِ الْعُبُودِيَّةِ وَهُوَ أَنْ يُعْبَدَ مِنْ حَيْثُ أَنَّهُ خَالِقُهُمْ أَيْ أَدَاءً لِشُكْرِ مَا فِي ذِمَّتِهِمْ، وَإِنْ كَانَ هُنَاكَ مَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَعْبُدَهُ بِتِلْكَ الصِّفَةِ فَيَكُونُ مَطْلُوبًا عَلَى كُلِّ حَالٍ مَهْمَا أَمْكَنَهُ، ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى أَخَذَ فِي تَعْدِيدِ بَعْضِ النِّعَمِ الَّتِي تَسْتَوْجِبُ الشُّكْرَ فَقَالَ: «الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا» أَيْ

صَيَّرَهَا لَكُمْ فِرَاشًا إِكْرَامًا لَكُمْ، مَعَ أَنَّهَا لَيْسَتْ بِفِرَاشٍ، فِي نَفْسِ الْأَمْرِ وَبِمِثْلِ ذَلِكَ كَمَنْ اسْتَضَافَ إِنْسَانًا، فَمِنَ الْبُرُورِ بِهِ أَنْ فَرَشَ لَهُ مَا هُوَ أَجَلُّ أَنْ يَكُونَ فِرَاشًا، وَالْمَعْنَى تُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ: «جَعَلَ لَكُمْ» لِأَنَّهَا بِمَعْنَى صَيَّرَ، لَا بِمَعْنَى خَلَقَ، فَتَكُونَ مِنْ أَوَّلِ خَلْقَةٍ فِرَاشًا، فَكَلَّا إِنَّمَا خِلْقَتُهَا تَقَدَّمَتْ عَلَى خَلْقِ الْبَشَرِ بِمَا يَتَعَذَّرُ حَصْرُهُ، وَهِيَ وَمَنْ سِوَاهَا مِنَ الْأَجْرَامِ الْعُلْوِيَّاتِ وَالطِّبَاقِ السَّمَاوِيَّاتِ، وَالْجَوَاذِبِ الْفَلَكِيَّةِ، كَانُوا وَلَنْ يَزَالُوا فِي طَاعَةِ اللَّهِ مُسَخَّرِينَ، وَإِذْ قَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾، قَالَتَا: ﴿أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾. وَمِنْ كَرَامَةِ اللَّهِ لِعَبْدِهِ أَنْ صَيَّرَهَا لَهُ فِرَاشًا كَافِلَةً بِاسْتِقْرَارِهِ تَحْمِلُ مِنْ أَذَاهُ، وَتَسْتُرُ مِنْ عَوْرَاتِهِ، وَلَوْ تَرَكَهَا اللَّهُ وَشَأْنَهَا مَعَ الْعَبْدِ لَفَطَّتْهُ وَخَرَّتْ مِنْ تَحْتِهِ، أَوْ سَقَطَتْ السَّمَاءُ كِسْفًا عَلَيْهِ لِوُجُودِ مُخَالَفَةٍ لِرَبِّهِ وَمُنْشِئِهِ، ثُمَّ قَالَ: «وَالسَّمَاءَ بَنَاهَا»، أَيْضًا أَنْ جَعَلَ لَكُمُ السَّمَاءَ بِمَنْزِلَةِ الْبِنَاءِ، كَأَنَّكُمْ تَرَوْنَهَا رَأْيَ الْعَيْنِ، مَعَ أَنَّ السَّمَاءَ لَيْسَتْ مَرْئِيَّةً لَكُمْ، إِنَّمَا الْمَرْئِيُّ مَا حَدَّهُ الْبَصَرُ مِنَ الْفَرَاغِ الْمَوْهُومِ، وَالسَّمَاءُ مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ، وَهِيَ أَلْطَفُ مِنْ أَنْ يُدْرِكَهَا

البَصَرُ، وَمِنْ رَأْفَتِهِ تَعَالَى بِكُمْ أَنْ صَيَّرَ لَكُمْ مَا عَلَاكُمْ بِمَنْزِلَةِ الْبِنَاءِ لِتَطْمَئِنَّ النُّفُوسُ، بِخِلَافِ مَا لَوْ وَقَعَ الْبَصَرُ عَلَى فَرَاغٍ غَيْرِ مُتَنَاهٍ لَوَقَعَتِ الْوَحْشَةُ، وَطَاشَتِ النُّفُوسُ، فَكَانَتْ رُؤْيَةُ السَّمَاءِ لَنَا بِمَا فِيهَا مِنَ النُّجُومِ أَمْنًا لَنَا، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «النُّجُومُ أَمَانٌ لِأَهْلِ الْأَرْضِ». ثُمَّ قَالَ: «وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً»، أَيْ مِنَ السَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَكَوْنُهُ سَمَاءً لُغَةً إِنَّ كُلَّ مَا عَلَاكَ فَهُوَ سَمَاءٌ «فَأَخْرَجَ بِهِ» أَيْ بِسَبَبِهِ «مِنَ الثَّمَرَاتِ» بِأَنْ أَوْدَعَ فِيهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قُوَّةً فَاعِلِيَّةً، كَمَا أَوْدَعَ فِي الْأَرْضِ قُوَّةً انْفِعَالِيَّةً، وَبِاجْتِمَاعِ الْقُوَّتَيْنِ أُخْرِجَتِ الثِّمَارُ «رِزْقًا لَكُمْ» وَلِأَنْعَامِكُمْ، وَالْكُلُّ لَكُمْ، وَإِذَا صَحَّ عِنْدَكُمْ مَا قَرَّرْنَاهُ مِنَ النِّعَمِ أَنَّهَا حَصَلَتْ مِنَ اللَّهِ لَكُمْ «فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا» أَيْ شُرَكَاءَ «وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ» أَنَّهُ الْمُنْفَرِدُ بِالْوُجُودِ وَالْإِيجَادِ، ثُمَّ أَقُولُ إِنَّهُ تَعَالَى لَمَّا بَلَغَ فِي تَعْدِيدِ النِّعَمِ إِلَى أَنْ ذَكَرَ فِي جُمْلَتِهَا تَوَقُّفَ إِخْرَاجِ الثِّمَارِ عَلَى نُزُولِ الْمَاءِ، وَهُوَ بَيَانٌ لِوَجْهِ الْحِكْمَةِ فِي نُزُولِهِ حَسُنَ أَنْ تَكُونَ ذَرِيعَةً فِي التَّعَلُّقِ بِالْأَسْبَابِ،

فَتَشْتَدُّ بِذَلِكَ القَاطِعَةُ، وَيَنْسَدِلُ الحِجَابُ، فَجَاءَ مَا يُزِيلُ الإِشْكَالَ، فَقَالَ لَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا أَيْ شُرَكَاءَ فِي الأَفْعَالِ، فَإِنَّهُ تَعَالَى المُنْفَرِدُ بِالوُجُودِ وَالإِيجَادِ الفَعَّالِ، ثُمَّ أَنَّ الحِكْمَةَ فِي وَضْعِ الأَسْبَابِ وَارْتِبَاطِهَا بِمُسَبِّبِهَا، مِثْلُ تَوَقُّفِ بَعْضِ الأَشْيَاءِ عَلَى وُجُودِ المَوَادِّ، كَتَوَقُّفِ الثِّمَارِ عَلَى نُزُولِ المَاءِ مَثَلًا وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى وُجُودِ الأَشْيَاءِ بِدُونِ مَوَادٍّ، كَوُجُودِ أُصُولِهَا، غَيْرَ أَنَّ ارْتِبَاطَ الأَسْبَابِ بِمُسَبِّبَاتِهَا أَبْلَغُ فِي الإِعْجَازِ وَالدَّلَالَةِ عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِهِ، وَالمَعْنَى أَنَّ المَزِيَّةَ لَيْسَتْ فِي تَكْوِينِ الأَشْيَاءِ (بدون مواد) وَفِي الخَارِجِ عَلَى نَظَرِ العِبَادِ، إِنَّمَا المَزِيَّةُ فِي تَكْوِينِ الشَّيْءِ بَيْنَ يَدَيْكَ وَقِبَالَةَ نَظَرِكَ، وَبِالأَشْيَاءِ الَّتِي عَلِمْتَ أَنَّهَا مَوَادُّ لَهُ، فَكَأَنَّهُ يَقُولُ: إِنْ كُنْتَ فِي رَيْبٍ مِنَ التَّكْوِينِ فَدُونَكَ المَاءُ وَالطِّينَ وَضَعْ مَا شِئْتَ مِنَ الثِّمَارِ وَالتِّينِ، فَمَا جِئْتَكَ بِهَا مِنْ بَعِيدٍ فَهَا هِيَ صُنِعَتْ بَيْنَ يَدَيْكَ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ شَهِيدٌ، فَابْصِرْ، فَبَصَرُكَ اليَوْمَ حَدِيدٌ.

الإِسْتِنْبَاطُ: يُسْتَخْرَجُ مِنْ قَوْلِهِ: «قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ» إِلَى قَوْلِهِ:

«وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ» خَمْسَةُ أَحْكَامٍ:

الْأَوَّلُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ الْعِبَادَةَ هِيَ أَبْلَغُ دَاعٍ فِي حُصُولِ التَّقْوَى لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُتَّقِينَ مِنْ قَوْلِهِ: «اعْبُدُوا رَبَّكُمْ» إِلَى قَوْلِهِ: «لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ».

الثَّانِي: عَلِمْنَا بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ يَقْبَلُ الْعِبَادَةَ مِنْ غَيْرِ الْمُتَّقِينَ كَمَا يَأْمُرُهُمْ بِهَا مِنْ دَعْوَتِهِ تَعَالَى لَهُمْ قَبْلَ حُصُولِ التَّقْوَى مِنْهُمْ، وَلَوْ لَمْ تُقْبَلْ إِلَّا بِهَا لَمَا كَانَتْ عِلَّةً فِي وُجُودِهَا.

الثَّالِثُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ الْأَوْلَى لِلنَّاسِ أَنْ يَعْبُدُوا رَبَّهُمْ شُكْرًا، أَدَاءً لِوَاجِبِ مَا فِي ذِمَّتِهِمْ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ أَوْلَى مِنْ أَنْ تَكُونَ عِبَادَتُهُمْ لِحَظٍّ فِي الْأَجَلِ، كَطَلَبِ الْجَنَّةِ مَثَلًا، مِنْ قَوْلِهِ: «اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ» إِلَى آخِرِهِ، حَيْثُ اسْتَلْفَتَهُمْ لِنِعَمِهِ عَلَيْهِمْ، الَّتِي مِنْ أَعْظَمِهَا نِعْمَةُ الْإِيجَادِ.

الرَّابِعُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ الْأَوْلَى لِلْمُعَلِّمِ أَنْ يَنْقُلَ تَلَامِذَتَهُ لِلْبَسَائِطِ، ثُمَّ الْمُرَكَّبَاتِ، لِيَكُونَ أَدْعَى لِلْفَهْمِ، مِنْ قَوْلِهِ: «الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ» إِلَى آخِرِهِ، حَيْثُ اسْتَلْفَتَهُمْ لِلْأَجْرَامِ، ثُمَّ إِلَى كَيْفِيَّةِ خَلْقِ النَّبَاتِ.

الخَامِسُ : عَلِمْنَا بِأَنَّ التَّوْحِيدَ هُوَ مِنَ العِبَادَاتِ الَّتِي يُؤْجَرُ عَلَيْهَا العَبْدُ يَوْمَ الجَزَاءِ ، مِنْ تَفْسِيرِهِ لَهَا تَعَالَى بَعْدَمَا طَلَبَهَا مِنَ النَّاسِ بِقَوْلِهِ : « فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا » .

الإِشَارَةُ : تَرَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَدْعُو عِبَادَهُ فِي الْغَالِبِ إِلَّا لِمَعْرِفَتِهِ الخَاصَّةِ ، وَلِهَذَا فَسَّرَتِ العِبَادَةُ المَدْعُوُّونَ لَهَا بِقَوْلِهِ : « فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا » ، وَلَيْسَ المُرَادُ بِالنِّدِّ إِلَهًا آخَرَ ، فَذَلِكَ لَا يُعْقَلُ ، لِأَنَّ الخِطَابَ رَاجِعٌ لِأَهْلِ العِلْمِ ، المُشَارِ لَهُمْ بِقَوْلِهِ : وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ وَمَنْ يَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا عِلْمَ لَهُ وَعَلَيْهِ فَيَكُونُ نَهْيًا لِلْمُتَوَجِّهِ أَنْ يَرَى كَيْنُونَةً لِأَحَدٍ مَعَ اللَّهِ ، فَيَكُونَ مُتَّخِذَهُ نِدًّا .

لِسَانُ الرُّوحِ : سَأَلْتُهُ عَنِ النِّدِّ فَقَالَ لِي : لَمْ يُوجَدْ . فَقُلْتُ : مَا بَالُ وُقُوعِ النَّهْيِ عَلَيْهِ ؟ قَالَ : لِأَنَّهَا مُكَابَرَةٌ حَيْثُ ادَّعَى العَبْدُ بِجَعْلِهِ مَا عَجَزَتِ القُدْرَةُ عَنْ مِثْلِهِ .

التَّفْسِيرُ : وَبَعْدَ تَوَجُّهِ الخِطَابِ لِعُمُومِ المُكَلَّفِينَ اسْتَثْنَتْهُ لِبَعْضِهِمْ مِمَّنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مَا يَخْلُجُ مِنْ رَيْبِ النُّزُولِ وَبِعْثَةِ

الْمَرْسُولِ، غَيْرَ أَنَّهُ أَجْمَلَ فِي الْخِطَابِ جَبْرًا لِخَوَاطِرِهِمْ وَمُحَافَظَةً عَنْ قُلُوبِهِمْ، وَهَذَا مِنْ حُسْنِ أُسْلُوبِ التَّبْلِيغِ مُخَاطَبَةُ الْكُلِّ وَإِرَادَةُ الْبَعْضِ، فَقَالَ: «وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ» أَيْ فِي شَكٍّ «مِمَّا نَزَّلْنَا» مِنَ الْكِتَابِ «عَلَى عَبْدِنَا» مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِأَنْ قُلْتُمْ رُبَّمَا تَقَوَّلَهُ، أَوْ هُوَ مِنْ وَضْعِ الْبَشَرِ، وَعَلَى هَذَا فَالْأَمْرُ أَسْهَلُ «فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ»، وَهَذَا أَهْوَنُ شَيْءٍ وَأَبْلَغُ فِي التَّيْسِيرِ، إِذْ أَنْتُمْ مِنْ فُصَحَاءِ الْعَرَبِ «وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» فِي دَعْوَاكُمْ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ، وَاسْتَعِينُوا بِمَنْ شِئْتُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ، مَهْمَا أَمْكَنَكُمْ ذَلِكَ «فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا» كَمَا هُوَ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ «وَلَنْ تَفْعَلُوا» فِي الْمُسْتَقْبَلِ أَيْضًا، وَهَذَا مِنْ أَهَمِّ مُعْجِزَاتِ الْقُرْآنِ، فَبَعْدَ مَا قَرَّرَ إِعْجَازَهُمْ عَلَى أَنْ لَا يَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ فِي ذَلِكَ الْحَالِ نَفَى عَنْهُمْ وُجُودَ الْإِتْيَانِ فِي الِاسْتِقْبَالِ، فَكَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَصْدُرْ مُنْذُ أَرْبَعَةَ عَشَرَ قَرْنًا مَنْ يَتَجَاسَرُ لِأَنْ يَأْتِيَ بِسُورَةٍ مِنْ

مِثْلِهِ، أَوْ بِمَا يَقْرُبُ مِنْ شَكْلِهِ، وَالتَّارِيخُ أَعْدَلُ شَاهِدٍ، فَدَلَّ هَذَا عَلَى صِدْقِ الْقُرْآنِ بِأَبْلَغِ دَلَالَةٍ «فَاتَّقُوا النَّارَ» أَيُّهَا الْمُلْحِدُونَ فِي كِتَابِ اللَّهِ «الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ» أَمْتَالُكُمْ «وَالْحِجَارَةُ» الْمُوَافِقَةُ لِقَسْوَةِ قُلُوبِكُمْ «أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ»، أَيْ هُيِّئَتْ لِمَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ. وَفِي قَوْلِهِ: وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أَبْلَغُ تَرْهِيبٍ وَدَلَالَةٍ عَلَى مُبَايَنَتِهَا لِنَارِ الدُّنْيَا، فَهِيَ لَا تَذَرُ رَطْبًا وَلَا يَابِسًا إِلَّا أَحْرَقَتْهُ. ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّ الرَّيْبَ الْمُحْتَرَزَ مِنْهُ هُوَ شَامِلٌ كُلَّ مَنْ يُخَالِجُ فِكْرَهُ أَدْنَى شَيْءٍ مِنْ كَوْنِ الْقُرْآنِ رُبَّمَا فِيهِ مِنْ جِهَةِ مَا يَتَعَلَّقُ بِتَنْظِيمِ أَلْفَاظِهِ مَا هُوَ مِنْ صُنْعِ الْبَشَرِ، فَلْيَحْتَرِزْ أَوْ فَلْيَأْتِ بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ. وَبَعْدَ مَا ذَكَرَ الْمُرْتَابِينَ فِي كِتَابِ اللَّهِ، وَمَا أَعَدَّ لَهُمْ إِنِ اسْتَمَرُّوا عَلَى ارْتِيَابِهِمْ، اسْتَلْفَتَ الْخِطَابَ لِلْمُؤْمِنِينَ بِهِ فَقَالَ: «وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا» بِالْكِتَابِ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَأَنْ لَيْسَ لِلْبَشَرِ فِيهِ أَدْنَى اكْتِسَابٍ «وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» بِأَنِ اتَّبَعُوا مَا جَاءَ بِهِ مِنِ امْتِثَالِ الْأَوَامِرِ وَاجْتِنَابِ

المَنَاهِي «أَنَّ لَهُمْ جَنَاتٍ» جَزَاءً مِنَ اللَّهِ لَهُمْ عَلَى حُسْنِ صُنْعِهِمْ مِنْ نَعْتِهَا وَصِفَاتِهَا «تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا» أَيْ خِلَالَهَا وَمِنْ تَحْتِ أَشْجَارِهَا «الأَنْهَارُ» المُخْتَلِفَاتُ المَذَاقِ، وَإِنَّ أَهْلَهَا «كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا» لِبَعْضِهِمْ بَعْضًا عَلَى وَجْهِ التَّفَكُّهِ وَالإِعْجَابِ «هَذَا» الرِّزْقُ الَّذِي رُزِقْنَاهُ الآنَ هُوَ «الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ» فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَكُلُّ فَاكِهَةٍ تُشْبِهُ فَاكِهَةَ الدُّنْيَا، فَمَا بَالُهُ مُخْتَلِفُ المَذَاقِ «وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا» سَوَاءً بِسَوَاءٍ، وَالحِكْمَةُ فِي التَّشَابُهِ بَيْنَ الرِّزْقَيْنِ فِي الصُّورَةِ، إِذِ الإِنْسَانُ بِالطَّبْعِ مَائِلٌ لِفَوَاكِهِ أَرْضِهِ، وَبِالأَخَصِّ إِذَا انْفَصَلَ عَنْهَا إِلَى أَرْضٍ لَيْسَتْ فِيهَا مِنْ تِلْكَ الفَاكِهَةِ، فَهُوَ يَوَدُّ أَنْ يَرَاهَا فَضْلًا عَنْ أَنْ يَتَنَاوَلَهَا بِالأَكْلِ، حَتَّى إِذَا رَآهَا فِي الجَنَّةِ يَكُونُ سَرِيعَ التَّنَاوُلِ مِنْهَا، فَالتَّشَابُهُ زِيَادَةٌ فِي التَّجَاسُرِ وَالمَيْلِ إِلَيْهَا بِخِلَافِ مَا لَوْ رَأَى فَاكِهَةً لَمْ تَسْبِقْ لَهُ صُورَتُهَا وَلَا مَذَاقُهَا، فَهُوَ أَبْعَدُ مِنْ أَنْ يَتَنَاوَلَهَا عَلَى الفَوْرِ، إِلَّا بَعْدَ التَّدْرِيبِ، وَلَمَّا كَانَتِ الأَزْوَاجُ مِمَّا تَأْلَفُهَا النُّفُوسُ غَيْرَ أَنَّ

فِيهَا مَا تَسْتَقْذِرُهُ مِنْهَا غَالِبًا، وَبِالْأَخَصِّ مَا هُوَ كَدَمِ الْحَيْضِ الْمَانِعِ مِنْ مُبَاشَرَتِهِنَّ طَبْعًا وَشَرْعًا، فَذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهَا عَلَى خِلَافِ أَزْوَاجِ الدُّنْيَا بِقَوْلِهِ: «وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ» مِنْ دَمِ الْحَيْضِ وَمَا فِي مَعْنَاهُ كَالْبَوْلِ وَالْغَائِطِ، وَمَا هُوَ مِنْ قَبِيلِ الْقَذَرَاتِ، فَنَفَى الشَّبَهَ بَيْنَهُنَّ مِنْ جِهَةِ التَّطْهِيرِ لَيْسَ فِيهِ إِلَّا مَزِيدُ الرَّغْبَةِ مِنْ جِهَةِ الْمَيْلِ إِلَيْهِنَّ، وَلَيْسَ فِيهِ اسْتِيحَاشٌ، وَلَمَّا كَانَ الْإِنْسَانُ إِذَا كَانَ فِي نِعْمَةٍ قَدْ يَتَخَيَّلُ زَوَالَهَا غَالِبًا فَيَنْغَصُ عَيْشُهُ حَالَ التَّخَيُّلِ، نَفَى ذَلِكَ تَعَالَى عَنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ لِتَتِمَّ لَهُمُ النِّعْمَةُ، وَيَدُومَ لَهُمُ السُّرُورُ بِقَوْلِهِ: «وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ»، وَلَيْسَ دُخُولُ الْجَنَّةِ عِنْدَ أَهْلِ الْجَنَّةِ بِأَعْظَمَ نِعْمَةً مِنْ نِعْمَةِ الْخُلُودِ.

الْإِسْتِنْبَاطُ: يُسْتَخْرَجُ مِنْ قَوْلِهِ: «وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ» إِلَى قَوْلِهِ: «خَالِدُونَ» تِسْعَةُ أَحْكَامٍ:

الْأَوَّلُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ الْقُرْآنَ هُوَ أَبْلَغُ شَيْءٍ فِي الْإِعْجَازِ، بِمَعْنَى أَنَّ نِظَامَهُ يَخْرُجُ عَنْ طَوْقِ الْبَشَرِ مِنْ قَوْلِهِ: فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ.

الثَّانِي : عَلِمْنَا بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى نَزَّهَ جَانِبَ القُرْآنِ مِنْ أَنْ يَلْتَفِتَ إِلَيْهِ أَحَدٌ لِيَأْتِيَ بِمِثْلِهِ إِلَى الأَبَدِ مِنْ قَوْلِهِ: « وَلَنْ تَفْعَلُوا ».

الثَّالِثُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُرِيدُ مِنَ المُتَّقِينَ أَنْ تَكُونَ تَقْوَاهُمْ لَهُ لِذَاتِهِ هَيْبَةٌ مِنْهُ ، وَإِلَّا فَلْتَكُنْ خَشْيَةً مِنْ عُقُوبَتِهِ ، مِنْ قَوْلِهِ: « فَاتَّقُوا النَّارَ » بَعْدَمَا أَطْلَقَ التَّقْوَى فِيمَا سَبَقَ .

الرَّابِعُ : عَلِمْنَا بِأَنَّ جَهَنَّمَ هِيَ حَامِيَةٌ لِذَاتِهَا ، أَيْ لَا تَتَوَقَّفُ حَرَارَتُهَا عَلَى وُجُودِ الحَطَبِ مَثَلاً ، لَكِنَّهَا تَتَقَوَّى بِوُقُوعِ النَّاسِ فِيهَا ، مِنْ قَوْلِهِ: « وَقُودُهَا النَّاسُ وَالحِجَارَةُ ».

الخَامِسُ : عَلِمْنَا بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَضَعِ النَّارَ مِنْ أَوَّلِ خَلْقَتِهَا لِلْمُؤْمِنِينَ ، مِنْ قَوْلِهِ: « أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ».

السَّادِسُ : عَلِمْنَا بِأَنَّ البِشَارَةَ تَحِقُّ لِمَنْ قَرَنَ إِيمَانَهُ بِالأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ مِنْ قَوْلِهِ: « وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ».

السَّابِعُ : عَلِمْنَا بِأَنَّ الإِيمَانَ بِانْفِرَادِهِ عَنِ العَمَلِ غَيْرُ كَافٍ فِي تَحْقِيقِ النَّجَاةِ ، مِنْ وُقُوعِ البِشَارَةِ فِي الآيَةِ بَعْدَ انْضِمَامِ العَمَلِ إِلَيْهِ .

الثَّامِنُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ ثِمَارَ الْجَنَّةِ فِيهِ مَا يُشَابِهُ ثِمَارَ الدُّنْيَا، وَلَعَلَّهُ فِي الصُّورَةِ مِنْ قَوْلِهِ: «هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ».

التَّاسِعُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ أَزْوَاجَ الآخِرَةِ عَلَى خِلَافِ أَزْوَاجِ الدُّنْيَا، مِنْ جِهَةِ الْعَذَارَةِ اللَّازِمَةِ لأَبْدَانِهِنَّ، مِنْ قَوْلِهِ: «وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ».

الإِشَارَةُ: تُومِيءُ إِلَى أَنَّ الْجَنَّةَ جَنَّتَانِ، كَمَا أَنَّ الْفَاكِهَةَ فَاكِهَتَانِ، فَفَاكِهَةُ الْعُقُولِ الأَسْرَارُ الْعِرْفَانِيَّةُ، وَفَاكِهَةُ النُّفُوسِ الشَّهْوَةُ الْبَهِيمِيَّةُ، وَكُلٌّ يَمِيلُ إِلَى مَطْلَبِهِ وَيَحِنُّ إِلَى مَرْغُوبِهِ.

لِسَانُ الرُّوحِ: فِي قَوْلِهِ: «فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ» يَدْخُلُ فِي الْخِطَابِ الْعَالِمُ بِأَسْرِهِ، حَتَّى النَّبِيُّ فِي نَفْسِهِ عَاجِزٌ عَلَى أَنْ يَأْتِيَ بِأَقَلِّ شَيْءٍ مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ.

التَّفْسِيرُ: قَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ مُؤَسَّسٌ فِي سَابِقِ عِلْمِهِ، وَإِنَّهُ مَبْعُوثٌ إِلَيْنَا عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ، وَلَمَّا كَانَ مُشْتَمِلاً عَلَى عِدَّةِ أَمْثَالٍ ضَرَبَهَا تَعَالَى تَقْرِيبًا لِلإِفْهَامِ نَوَّهَ لِذَلِكَ فِي صَدْرِ الْكِتَابِ لِيَكُونَ الْقَارِئُ

عَلَى بَصِيرَةٍ مِمَّا يَطْرُقُ سَمْعَهُ مِنَ الأَمْثَالِ فَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي» أَيْ لَا يَمْتَنِعُ «أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً» مَهْمَا كَانَ فِيهَا مَا يَنْهَضُ بِالْعُقُولِ السَّلِيمَةِ لِمَقَاصِدِ الْقُرْآنِ «فَمَا فَوْقَهَا» أَيْ فَمَا بَالُكَ بِمَا فَوْقَهَا مِمَّا هُوَ كَالرَّعْدِ وَالْبَرْقِ وَالْمِشْكَاةِ الْمَضْرُوبِ بِهَا الْمِثَالُ لِنُورِهِ فِي قَوْلِهِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ «فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ» الثَّابِتُ، وَلَا يَشُكُّونَ أَنَّهُ «مِنْ رَبِّهِمْ» صَرَّبَهُ لِيَتَوَصَّلُوا بِهِ لِمَا هُوَ الأَعْلَى مِنْ مُرَادِهِ تَعَالَى «وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا» بِالْقُرْآنِ وَبِمَنْ نَزَلَ عَلَيْهِ «فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا» أَيْ فَأَيُّ شَيْءٍ هَذَا الْمِثَالُ حَتَّى يَضْرِبَهُ تَعَالَى، وَمَا أَرَادَ بِهِ يَقُولُ ذَلِكَ اسْتِخْفَافًا بِالْقُرْآنِ، وَكُلُّ مَنْ لَمْ تَقُمْ عِنْدَهُ أَلْفَاظُ الْقُرْآنِ جَمِيعُهَا أَجَلَّ مَقَامٍ يُخْشَى أَنْ يَشْمَلَهُ هَذَا الْحُكْمُ بِأَنْ يَكُونَ ذَلِكَ اللَّفْظُ سَبَبًا فِي ضَلَالَتِهِ، بِقَوْلِهِ تَعَالَى: «يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا»، فَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ الْكَثِيرَ مِمَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ بِسَبَبِ مَا اسْتَشْكَلَهُ مِنْ بَعْضِ أَلْفَاظِ الْقُرْآنِ بِأَنْ لَمْ يَتَلَقَّاهَا بِالتَّسْلِيمِ «وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا» أَيْ بِذَلِكَ

اللَّفْظِ وَالمِثَالِ نَفْسِهِ، فَتَكُونُ حِكْمَةُ نُزُولِهِ لِهِدَايَةِ البَعْضِ، وَهُوَ الغَالِبُ المَضْرُوبُ المِثَالُ مِنْ أَجْلِهِ وَضَلَالَةُ البَعْضِ، وَلَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّ مِنَ القُرْآنِ مَا يُضِلُّ بِهِ اقْشَعَرَّتِ الجُلُودُ وَتَشَوَّشَتِ القُلُوبُ لِمَا تَعْلَمُهُ مِنَ القُرْآنِ أَنَّهُ هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُتَّقِينَ، فَأَتَى تَعَالَى بِمَا يُزِيلُ الإِشْكَالَ، وَيُنَزِّهُ جَانِبَ الهِدَايَةِ عَلَى جَانِبِ الضَّلَالِ فَقَالَ: «وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الفَاسِقِينَ» وَالسُّفَهَاءُ وَالمُرْتَدِّينَ «الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ»، فَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ هَؤُلَاءِ يَكُونُ لَهُمْ عَهْدٌ وَتَمَسُّكٌ بِالدِّينِ وَبِمَا يَسْتَبْعِدُونَهُ مِنْ أَمْثَالِ القُرْآنِ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ «وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ» مِنْ صِلَةِ أَرْحَامِ المُؤْمِنِينَ وَمُوَالَاتِهِمْ، وَيَسْتَبْدِلُونَهَا بِمُوَالَاةِ أَعْدَائِهِمْ، «وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ» بِبَثِّ أَفْكَارِهِمْ، وَخُبْثِ انْقِيَادِهِمْ عَلَى الإِسْلَامِ وَالمُسْلِمِينَ، وَلَنْ تَخْلُوَ الأُمَّةُ مِنْ هَؤُلَاءِ بَيْنَ أَظْهُرِهَا «أُولَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ» بِمَا فَاتَهُمْ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ بِسَبَبِ انْقِيَادِهِمْ، وَقِلَّةِ انْقِيَادِهِمْ، وَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ.

الإِسْتِنْبَاطُ: يُسْتَخْرَجُ مِنْ قَوْلِهِ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي» إِلَى قَوْلِهِ: «الخَاسِرُونَ» ثَمَانِيَةُ أَحْكَامٍ:

الأَوَّلُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ الأَمْثَالَ يُسْتَحْسَنُ الإِتْيَانُ بِهَا مِنَ الحَكِيمِ لِتَتَمَكَّنَ حِكْمَتُهُ فِي الأَذْهَانِ، مِنْ قَوْلِهِ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً».

الثَّانِي: عَلِمْنَا أَمْثَالَ القُرْآنِ قَدْ تَمَكَّنَتْ مِنْ قُلُوبِ المُؤْمِنِينَ، مِنْ قَوْلِهِ: «وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ».

الثَّالِثُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ المُسْتَخِفَّ بِأَيِّ لَفْظٍ مِنْ أَلْفَاظِ القُرْآنِ يُطْلَقُ عَلَيْهِ الكُفْرُ، مِنْ قَوْلِهِ: «وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا.

الرَّابِعُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ أَمْثَالَ القُرْآنِ جَاءَتْ حِكْمَتُهَا لِهِدَايَةِ البَعْضِ وَضَلَالَةِ البَعْضِ، مِنْ قَوْلِهِ: «يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا».

الخَامِسُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ القُرْآنَ لَا يَضِلُّ بِهِ إِلَّا فَاسِقٌ، مِنْ قَوْلِهِ: «وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الفَاسِقِينَ».

السَّادِسُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ الضَّالَّ بِأَمْثَالِ الْقُرْآنِ كَانَ لَهُ عَهْدٌ مَعَ اللَّهِ ثُمَّ نَقَضَهُ، مِنْ قَوْلِهِ: «الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ».

السَّابِعُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ مِنْ وَصْفِ الْفَاسِقِ نَقْضَ الْعَهْدِ، وَقَطْعَ مَا أَمَرَ اللَّهُ أَنْ يُوصَلَ، وَالْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ.

الثَّامِنُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ مَنْ وُجِدَتْ فِيهِ هَذِهِ الصِّفَاتُ أَوْ مِثْلُهَا يَصِحُّ أَنْ يُقَالَ فِيهِ خَاسِرٌ، مِنْ قَوْلِهِ: «أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ».

الإِشَارَةُ: تُفِيدُ أَنَّ الْوُجُودَ جَمِيعَهُ ضَرَبَهُ تَعَالَى وَنَصَبَهُ مِثَالًا مُوصِلًا لِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَعَظَمَتِهِ، لَيْسَ هُوَ مَقْصُودًا بِذَاتِهِ، فَمَنْ تَتَبَّعَهُ وَنَظَرَ مَا فِيهِ تَوَصَّلَ إِلَى غَايَتِهِ، قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَوْهَرًا وَعَرَضًا، إِذْ مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا وَفِيهِ دَلِيلٌ وَحْدَانِيٌّ وَنِدَاءٌ رَبَّانِيٌّ، وَمَدَدٌ رُوحَانِيٌّ، بِعَوْضَةٌ فَمَا فَوْقَهَا، عَرَفَ مَنْ عَرَفَ وَجَهِلَ مَنْ جَهِلَ، فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ الْمُنَزَّلُ بِاسْمِ الْخَلْقِ لَا غَيْرُ، زِيَادَةً عَلَى أَنْ يَكُونَ مُوصِلًا إِلَيْهِ، وَهَذَا مِنْ حَيْثُ حَقِيقَتُهُ النُّورَانِيَّةُ الْمُتَنَزِّلَةُ مِنْ رَبِّهِمْ، الْمُعَبَّرُ عَنْهَا بِالْقَبْضَةِ

الْمُحَمَّدِيَّةِ، فَهِيَ مِرْآةُ ظُهُورِ الْحَقِّ، فَمَنْ نَظَرَ فِيهَا فَلَا تَقَعُ بَصِيرَتُهُ إِلَّا عَلَى وُجُودِ الْحَقِّ، فَيَعْلَمُ أَنَّهُ الْحَقُّ، وَأَمَّا الْمَحْجُوبُ فَلَا يَقَعُ بَصَرُهُ إِلَّا عَلَى الْمِرْآةِ، لِأَنَّهُ يَرَاهَا مِنْ خَلْفِهَا فَيَقُولُ: مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا، وَأَيُّ شَيْءٍ هَذَا، فَلَا يَرَى الْوُجُودَ إِلَّا بِأَخَسِّ نَظْرَةٍ، يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا، وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا، وَلِهَذَا يُقَالُ: مَنْ نَظَرَ الْأَشْيَاءَ بِعَيْنِ التَّعْظِيمِ اسْتَمَدَّ مِنْهَا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا، وَمَنْ نَظَرَ بِعَيْنِ الِاحْتِقَارِ اسْتَمَدَّتْ مِنْهُ، وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ حَقِيرًا.

لِسَانُ الرُّوحِ: فِي قَوْلِهِ: فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ، وَأَمَّا الَّذِينَ أَحْسَنُوا فَيَشْهَدُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ.

التَّفْسِيرُ: وَبَعْدَ مَا حَاوَلَ تَعَالَى كُلَّ الْمُحَاوَلَةِ عَلَى أَنْ لَا يَذْكُرَ أَيَّ فَرِيقٍ مِنْ عِبَادِهِ بِصِفَةِ الْكُفْرِ فِي صَدْرِ الْكِتَابِ، وَأَتَى بِكُلِّ أُسْلُوبٍ يُؤَدِّي بِالتَّغَلْغُلِ عَنْ مُعْتَقَدَاتِهِمْ، مُحَافَظَةً مِنْ كَسْرِ قُلُوبِهِمْ أَنْ يُوَاجِهَهُمْ بِاسْمِ الْكُفْرِ، فَأَبَوْا إِلَّا كُفُورًا، وَإِنْ مَعَ كُلِّ حُجَّةٍ وَبُرْهَانٍ، فَقَالَ مُشَافَهَةً لَهُمْ: «كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ»، وَالِاسْتِفْهَامُ إِنْكَارِيٌّ، يُشْعِرُ بِانْحِطَاطِهِمْ إِلَى غَايَةٍ

لَا مَزِيدَ عَنْهَا فِي الْكُفْرِيَاتِ، وَهِيَ الْكُفْرُ بِاللَّهِ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يُهْمِلْهُمْ تَعَالَى وَمَا هُمْ عَلَيْهِ حَتَّى أَتَى بِمَا فِيهِ اسْتِعْطَافُهُمْ، وَمِنْ رَأْفَتِهِ وَرَحْمَتِهِ أَنْ تَوَلَّى اسْتِمَالَتَهُمْ بِنَفْسِهِ، فَقَالَ: «وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا» أَيْ مَعْدُومِينَ وَهَذَا غَيْرُ مُحْتَاجٍ إِلَى بَيِّنَةٍ «فَأَحْيَاكُمْ» مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ بِأَنْ جَاءَ بِكُمْ إِلَى الْوُجُودِ، وَهَذَا مُسَلَّمٌ أَيْضًا، وَلَمْ يَكْفِ هَذَا فِي الدَّلَالَةِ عَلَى وُجُودِ مُنْشِئِكُمْ «ثُمَّ يُمِيتُكُمْ» عِنْدَ انْقِضَاءِ أَجَلِكُمْ، كَمَا أَمَاتَ آبَاءَكُمْ، أَوَلَيْسَ فِي ذَلِكَ دَلَالَةٌ عَلَى وُجُودِ الْقَادِرِ «ثُمَّ يُحْيِيكُمْ» بِنَفْخَةِ الْبَعْثِ، وَهَذَا هُوَ الْمُسْتَبْعَدُ عِنْدَهُمْ، وَلَكِنْ لَوْ صَحَّ عِنْدَهُمُ الدَّلِيلُ الْأَوَّلُ لَصَحَّ مَا بَعْدَهُ لِأَنَّ الْقَادِرَ عَلَى الْإِحْيَاءِ أَوَّلًا فَقُدْرَتُهُ عَلَى الثَّانِي بِالْأَحْرَوِيَّةِ «ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا» تَقْرِيرًا مِنْهُ تَعَالَى لِلْإِنْكَارِ الْأَوَّلِ، وَسَرَدَ بَعْضَ النِّعَمِ عَلَيْهِمْ عَسَى أَنْ يَدْعُوَهُمْ دَاعِي الْإِعْتِرَافِ فَيُؤْذِنُوا بِالْإِنْصَافِ، وَكَوْنُهُ خَلَقَ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا إِنْ آمَنُوا، وَإِلَّا فَهُمْ يَتَرَفَّقُونَ بِصِفَةِ الْغَضَبِ لَا بِصِفَةِ الْمُلْكِ «ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ» أَيْ قَصَدَ إِلَى تَسْوِيَةِ

السَّمَاءِ عَلَى وِفْقِ إِرَادَتِهِمْ، ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّ «ثُمَّ» لَيْسَتْ هُنَا لِتَرْتِيبٍ، إِنَّمَا جَاءَتْ فِي سِيَاقِ تَعْدِيدِ النِّعَمِ، فَلَا تُفِيدُ تَقَدُّمَ خَلْقَةِ الْأَرْضِ عَلَى خَلْقَةِ السَّمَاءِ، لِمَا جَاءَ فِي سُورَةِ النَّازِعَاتِ، وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا، وَلِأَنَّ اللَّطَائِفَ تَتَقَدَّمُ الْكَثَائِفَ عَادَةً، وَالْأَوْلَى الرُّجُوعُ وَالْوُقُوفُ عِنْدَ قَوْلِهِ: «وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ»، لِأَنَّ الْعَبْدَ لَا يَعْلَمُ بِكُلِّ شَيْءٍ، إِنَّمَا يَعْلَمُ بِالْبَعْضِ إِنْ عَلِمَهُ.

الْإِسْتِنْبَاطُ: يُسْتَخْرَجُ مِنْ قَوْلِهِ: «كَيْفَ تَكْفُرُونَ» إِلَى قَوْلِهِ: «عَلِيمٌ» سِتَّةُ أَحْكَامٍ:

الْأَوَّلُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ الْمُخَاطَبِينَ بِقَوْلِهِ: كَيْفَ تَكْفُرُونَ، الْغَالِبُ فِيهِمْ كَانَ مِمَّنْ يُنْكِرُ وُجُودَ الْمُدَبِّرِ، مِنْ قَوْلِهِ: وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا، حَيْثُ اسْتَجْلَبَ دَلِيلَ الْوُجُودِ.

الثَّانِي: عَلِمْنَا بِفَسَادِ مَذْهَبِ مَنْ يَقُولُ الْمَحْيَا هِيَ بِفِعْلِ اللَّهِ، وَأَمَّا الْإِمَاتَةُ فَهِيَ مَوْقُوفَةٌ عَلَى نَفَاذِ مَا أَوْدَعَهُ اللَّهُ فِي الْعَبْدِ مِنَ الْقُوَّةِ، مِنْ قَوْلِهِ: ثُمَّ يُمِيتُكُمْ، حَيْثُ أَسْنَدَ فِعْلَ الْإِمَاتَةِ لِنَفْسِهِ، كَمَا أَسْنَدَ فِعْلَ الْحَيَاةِ.

الثَّالِثُ : عَلِمْنَا بِأَنَّ هَذِهِ الْحَيَاةَ الثَّانِيَةَ الْمُشَارَ لَهَا بِقَوْلِهِ : ثُمَّ يُحْيِيكُمْ، عِبَارَةٌ عَنْ شُعُورِ لَيْلَةِ الْقَبْرِ أَوْ حَيَاةِ الْبَرْزَخِ ، مِنْ قَوْلِهِ : ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ، لِأَنَّهُ رَتَّبَ عَنْهَا الرُّجُوعَ إِلَيْهِ ، الَّذِي هُوَ الْبَعْثُ .

الرَّابِعُ : عَلِمْنَا بِأَنَّ اللَّهَ صَرَّفَ جِنْسَ الْبَشَرِ فِي جَمِيعِ مَا عَلَى الْأَرْضِ ، مِنْ قَوْلِهِ : هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا .

الْخَامِسُ : عَلِمْنَا بِأَنَّ السَّمَاءَ كَانَتْ مَوْجُودَةً قَبْلَ خَلْقِ مَا عَلَى الْأَرْضِ إِنَّمَا قَصَدَ بَعْدَ ذَلِكَ تَسْوِيَتَهَا ، مِنْ قَوْلِهِ : ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ .

السَّادِسُ : عَلِمْنَا بِأَنَّ عِلْمَهُ تَعَالَى يَتَعَلَّقُ بِالْجُزْئِيَّاتِ كَتَعَلُّقِهِ بِالْكُلِّيَّاتِ ، مِنْ قَوْلِهِ : وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ، لِأَنَّ إِسْمَ الشَّيْءِ شَامِلٌ لِكُلِّ مَوْجُودٍ بِانْفِرَادِهِ كَيْفَمَا كَانَ .

الْإِشَارَةُ : فِي قَوْلِهِ : كَيْفَ تَكْفُرُونَ ، فَإِنَّهَا تَتَوَقَّى الْكُفْرَانَ ، كَيْفَمَا كَانَ حَتَّى تَرَى الْمَحْجُوبِينَ عَنِ اللَّهِ كَفَرُوا بِالنِّعَمِ الَّتِي مِنْ أَعْظَمِهَا نِعَمُ الْإِيجَادِ ، حَيْثُ لَمْ يَرَوْهَا قَائِمَةً بِمُوجِدِهَا ، فَيَكُونُ الْخِطَابُ عَامًّ

عَلَيْهِمْ بِهَذَا الإِعْتِبَارِ، كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ بِأَنْ تَجْهَلُوهُ فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِكُمْ، وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فِي طَيِّ الْعَدَمِ الْمَحْضِ، هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا، فَأَحْيَاكُمْ بِنَفْخِهِ وَسَمْعِهِ وَبَصَرِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَظَهَرَ فِيكُمْ بِجَمِيعِ صِفَاتِهِ، خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ، ثُمَّ يُمِيتُكُمْ عَلَى مَا يَقْتَضِيهِ الْبُطُونُ وَالظُّهُورُ، وَالْغَيْبَةُ وَالْحُضُورُ، ثُمَّ يُحْيِيكُمْ بِهِ كَمَا أَمَاتَكُمْ بِأَنْفُسِكُمْ، ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ فِي كُلِّ الأَحْوَالِ عَدَمًا وَوَجْدًا، فَهُوَ الْمَرْجُوعُ إِلَيْهِ بِكُلِّ اعْتِبَارٍ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ.

لِسَانُ الرُّوحِ: فِي قَوْلِهِ: وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، يَقُولُ هُوِيَّةُ الشَّيْءِ غَيْبُهُ، وَهُوَ ذَاتُ كُلِّ شَيْءٍ، فَلَهَا السَّرَيَانُ الْمُطْلَقُ فِي كُلِّ شَيْءٍ، فَلِهَذَا أُسْنِدَ الْعِلْمُ إِلَيْهَا، فَهِيَ أَحْوَطُ بِالشَّهَادَةِ مِنَ الشَّهَادَةِ بِالْغَيْبِ.

التَّفْسِيرُ: قَدْ تَقَدَّمَ مَا فِي ضِمْنِهِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَهْمَا أَوْرَدَ فِي كِتَابِهِ مِنَ الْحِكَايَاتِ، وَاسْتَطْرَدَ مِنَ الْقِصَصِ فَلَا تَحْمِلْهُ عَلَى مُجَرَّدِ التَّفَكُّهِ وَالإِسْتِطْلَاعِ عَلَى أَخْبَارِ مَنْ مَضَى، فَيَكُونُ كَلَامًا مُفْرَغًا عَمَّا هُوَ الأَهَمُّ وَكَلَامُ اللَّهِ أَنْفَعُ مِنْ ذَلِكَ، إِنَّمَا مُرَادُهُ تَعَالَى مِنَّا التَّأَسِّي وَالتَّسَلِّي بِذَلِكَ

وَاسْتِنْبَاطِ الْأَحْكَامِ وَاسْتِجْلَابِ الْأَخْلَاقِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا لَا يُحْصَرُ كُثْرَةُ زِيَادَتِهِ عَلَى إِيرَادِ الْحِكَايَةِ، فَتَشَبَّثْ فِيمَا سَيَرِدُ عَلَيْكَ، وَمِنْ ذَلِكَ قِصَّةُ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَوْلُهُ تَعَالَى: «وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ» أَيْ لِلْأَرْوَاحِ النُّورَانِيَّةِ وَالنُّفُوسِ الْأَقْدَسِيَّةِ «إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ» الَّتِي هِيَ مَقَرُّ الْحَيَوَانِ «خَلِيفَةً» أَيْ مِنْ ذَلِكَ الْجِنْسِ، وَهِيَ نِعْمَةٌ مِنْهُ تَعَالَى، شَامِلَةٌ لِلنَّوْعِ الْإِنْسَانِيِّ لِمَنْ تَأَمَّلَهُ مِنْ جِهَةِ تَخَصُّصِهِ بِالْخِلَافَةِ الْإِلَهِيَّةِ دُونَ بَقِيَّةِ الْأَجْنَاسِ الْعُلْوِيَّةِ وَالسُّفْلِيَّةِ، فَهِيَ مَكَانَةٌ أَبْعَدُ مِنْ أَنْ تَتَنَاوَلَهَا يَدُ الْبَشَرِ بِطَرِيقِ الْإِكْتِسَابِ، فَكَانَ مِنَّةً مِنَ اللَّهِ عَلَى النَّوْعِ الْإِنْسَانِيِّ تَسْتَوْجِبُ الشُّكْرَ، وَلِهَذَا أَصْدَرَ تَعَالَى بِذِكْرِهَا فِي أَوَائِلِ الْكِتَابِ عَقِبَ تَنْوِيهِهِ بِنِعْمَةِ الْإِيجَادِ الْمُشَارِ لَهَا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ»، وَمِنْ أَهَمِّ مَا تَضَمَّنَتْهُ الْخِلَافَةُ أَنَّ الْمُسْتَخْلَفَ بِفَتْحِ اللَّامِ يَنْزِلُ مَنْزِلَةَ الْمُسْتَخْلِفِ بِكَسْرِهَا. وَمِنْ ذَلِكَ الْقَبِيلِ سُجُودُ الْمَلَائِكَةِ لِآدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلَوْلَا أَهَمِّيَّةُ الْمَنْصِبِ لَمَا «قَالُوا» أَيِ الْمَلَائِكَةُ، تَنْزِيهًا لِجَانِبِ الْخِلَافَةِ

مِنْ أَنْ يَنَالَهَا مَنْ فُطِرَ عَلَى الْفَسَادِ وَسَفْكِ الدِّمَاءِ عَلَى مَا تَقْتَضِيهِ جِبِلِّيَّةُ الْجَوَابِ «أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ» خَلِيفَةً، وَتَتْرُكُ أَنْ تَكُونَ الْخِلَافَةُ مِنَّا «وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ»، وَكَانَ ذَلِكَ مِنْهُمُ اسْتِبْعَادًا أَنْ يَكُونَ مِنْ جِنْسِ الْحَيَوَانِ مَنْ يَسُوسُ غَيْرَهُ بِمَا تَقَرَّرَ لَدَيْهِمْ مِنْ هَمَجِيَّتِهِ وَفَسَادِهِ فِي الْأَرْضِ، فَصَارَتِ الْمَسْأَلَةُ عِنْدَهُمْ ذَاتَ نَظَرٍ مِنْ أَجْلِ أَنَّ النَّوْعَ وَإِنْ كَانَ مُنْفَصِلًا عَنِ الْجِنْسِ بِالْخَاصِّيَّةِ، فَهُوَ دَاخِلٌ فِيهِ بِالْحَقِيقَةِ فَصَارَ الْإِنْسَانُ كَيْفَمَا كَانَ لَا يَخْرُجُ عَنْ دَائِرَةِ الْحَيَوَانِ، وَالْحَيَوَانِيَّةُ كَانَتْ عِنْدَهُمْ أَبْعَدَ مِنْ مَنْصِبِ الْخِلَافَةِ الْإِلَهِيَّةِ، فَهَذَا وَجْهُ اسْتِغْرَابِ الْمَلَائِكَةِ وَاسْتِفْسَارِهِمْ لِجَانِبِ الْحَقِّ، وَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ الْفَضْلَ الَّذِي أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يُفَضِّلَ بِهِ الْإِنْسَانَ مِنْ جِنْسِ الْحَيَوَانِ هُوَ الْعِلْمُ، فَبِهِ يَرْتَبِطُ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى، وَلِهَذَا «قَالَ» لَهُمْ تَعَالَى «إِنِّي أَعْلَمُ» مِنْ أَمْرِ الْخِلَافَةِ «مَا لَا تَعْلَمُونَ»، فَكَأَنَّهُ يَقُولُ عُقُولُكُمْ لَا تَبْلُغُ كُنْهَ الْخَلِيفَةِ الَّذِي أَنَا جَاعِلُهُ، فَكَيْفَمَا تَخَيَّلْتُمُوهُ فَشَأْنُهُ

أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ ، وَبِعِبَارَةٍ أَدَقَّ وَنَظَرٍ أَدَقَّ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً أَيْ جَاعِلٌ فِيهَا مَنْ يَخْلُفُنِي فِي مُبَاشَرَةِ الأَفْعَالِ الحَيَوَانِيَّةِ ، وَالأَخْلَاقِ النَّفْسَانِيَّةِ ، وَنَبْسُطُ لَهُ فِي الإِخْتِيَارِ ، فَتُنْسَبُ إِلَيْهِ تِلْكَ الأَفْعَالُ وَيَسْتَتِرُ الْمُخَيَّلُ بِوُجُودِ الْخَيَالِ ، مَعَ أَنَّهُ تَعَالَى هُوَ الْمُنْفَرِدُ بِالأَفْعَالِ ، غَيْرُ أَنَّ مَنْصِبَ الأُلُوهِيَّةِ أَجَلُّ مِنْ أَنْ يُبَاشِرَهَا كَالأَفْعَالِ الحَيَوَانِيَّةِ مِنَ الفَسَادِ وَسَفْكِ الدِّمَاءِ بِدُونِ مَا يَتَسَتَّرُ بِاسْمِ الخَلِيفَةِ . أَلَا تَرَى أَنَّ المَلِكَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُحْدِثَ فِي مَمْلَكَتِهِ شَيْئًا لِحِكْمَةٍ هُوَ أَعْلَمُ بِهَا ، وَخَشِيَ أَنْ لَا يَقَعَ ذَلِكَ الْفِعْلُ مَوْقِعًا حَسَنًا فِي نَظَرِ الْعُمُومِ لِعَدَمِ إِطِّلَاعِهِمْ عَنْ وَجْهِ الحِكْمَةِ فَيَعْمَلُهُ بِاسْمِ الخَلِيفَةِ أَوْ نَائِبِهِ ، حَتَّى لَا يَتَوَجَّهُ عَلَيْهِ لَوْمٌ شَفَقَةً عَنْ عَمِيدَةِ الْعُمُومِ أَنْ تَتَغَيَّرَ فِي أَمِيرِهَا ، وَأَمَّا الخُصُوصُ فَإِنَّهُمْ عَلَى عِلْمٍ مِنْ أَنَّ الخَلِيفَةَ لَا فِعْلَ لَهُ مَعَ فِعْلِ المَلِكِ ، وَمِنَ المَعْلُومِ أَنَّ عَامَّةَ المَلَائِكَةِ أَقْصَرُ نَظَرًا مِنْ خَاصَّتِهِمْ وَهُمُ الكُرُبِيُّونَ ، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ عَدَمِ إِطِّلَاعِهِمْ عَلَى الْغَيْبِ نَقْصٌ فِي مَنْصِبِهِمْ ، لِأَنَّ المُلْكَ لَا يَشْتَرِطُ أَنْ تَحُوطَ جِبِلِّيَّتُهُ بِالْجُزْئِيَّاتِ ، إِنَّمَا كَانُوا عَلَى عِلْمٍ مِمَّا يَرْتَكِبُهُ جِنْسُ

الْبَشَرِ فِي الْأَرْضِ أَيًّا كَانَ، وَلِهَذَا قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ إِلَى آخِرِهِ خَلِيفَةً، فَمَا هِيَ الْحِكْمَةُ وَتَتْرُكُ أَنْ تَكُونَ الْخِلَافَةُ مِنَّا، وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ، وَلَمَّا كَانَ الِاطِّلَاعُ عَلَى تَفْصِيلِ الْحِكْمَةِ مُتَعَذِّرًا، وَسِرُّ الْقَضَاءِ فِي الْخَلْقِ مُتَسَتِّرًا قَالَ: إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ. وَبَعْدَمَا تَعَلَّقَتْ إِرَادَتُهُ بِتَنْجِيزِ خِلْقَةِ آدَمَ عَلَى وِفْقِ عِلْمِهِ رَتَّبَ فِي فِطْرَتِهِ جَمِيعَ مَا تَقْتَضِيهِ الْأَسْمَاءُ الْإِلَهِيَّةُ وَالصِّفَاتُ الْأُقْدُسِيَّةُ، جَلَالِيَّةً وَجَمَالِيَّةً وَكَمَالِيَّةً. فَحَقِيقَتُهُ تَطْلُبُ تِلْكَ الْمُقْتَضَيَاتِ بِالْجِبِلِّيَّةِ، ثُمَّ أَطْلَعَهُ عَلَى حَقَائِقِ تِلْكَ الْأَسْمَاءِ وَلَوَازِمِهَا، وَهُوَ قَوْلُهُ: «**وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا**» مِمَّا تَقَدَّمَ مِنَ الْجَمَالِيَّةِ وَالْجَلَالِيَّةِ، زِيَادَةً عَلَى مَا وَصَلَ إِلَيْهِ عِلْمُ الْمَلَائِكَةِ وَانْطَوَى فِي جِبِلِّيَّتِهِمْ مِنَ الْأَسْمَاءِ الْجَمَالِيَّةِ وَالصِّفَاتِ التَّنْزِيهِيَّةِ، لِأَنَّهُ تَعَالَى كَانَ مُتَعَرِّفًا لَهُمْ بِمَا هُوَ كَالْهَادِي وَالنَّافِعِ لَا بِمَا هُوَ كَالضَّارِّ وَالْمَانِعِ، وَبَعْدَ مَا جَعَلَ فِي آدَمَ مِنَ الِاسْتِعْدَادِ مَا يَتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى إِدْرَاكِ حَقَائِقِ سَائِرِ الْأَسْمَاءِ «**ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ**» أَيْ عَرَضَ عَلَيْهِمْ مُسَمَّيَاتِ مَا تَقْتَضِيهِ تِلْكَ الْأَسْمَاءُ الْجَلَالِيَّةُ وَالْكَمَالِيَّةُ

فَلَمَّا هُيِّئَتْ لَدَيْهِمْ عَلَى مَا سَبَقَ فِي عِلْمِهِ مَصَادِرُ جَمِيعِ الْأَسْمَاءِ كَالْعَفْوِ وَالْإِنْتِقَامِ، وَالْعَطَاءِ وَالْمَنْعِ، وَالنَّفْعِ وَالضُّرِّ، إِلَى آخِرِ مَصَادِرِ الْأَسْمَاءِ الْإِلَهِيَّةِ « فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ » عَلَى مَا تَقَعُ إِنْ لَمْ يَكُنْ فِي الْأَرْضِ مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ « إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » فِي دَعْوَاكُمْ مِنْ أَنَّكُمْ عَلَى عِلْمٍ بِجَمِيعِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ وَعُمُومِ التَّجَلِّيَاتِ « قَالُوا سُبْحَانَكَ » جَلَّتْ حِكْمَتُكَ وَتَقَدَّسَتْ إِرَادَتُكَ « لَا عِلْمَ لَنَا » بِعُمُومِ الْأَسْمَاءِ وَالتَّجَلِّيَاتِ « إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ » وَأُشْغِلْتَنَا بِهِ مِنَ التَّسْبِيحِ وَالتَّقْدِيسِ، وَلَمَّا حَصَلَ مِنْهُمُ الِاعْتِرَافُ وَأَذْعَنُوا بِالتَّقْصِيرِ وَأَذِنُوا بِالِانْصَافِ « قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ » مِنَ الْأَنْبَاءِ بِالْغَيْبِ، فَلَمَّا أَطْلَعَهُمْ عَلَى مَا اسْتَتَرَ عَنْهُمْ مِنْ جِهَةِ حَقَائِقِ الْأَسْمَاءِ وَمُقْتَضَيَاتِهَا مِنْ أَنَّ كُلَّ اسْمٍ يَطْلُبُ مُتَعَلَّقًا، وَلَا بُدَّ مِنْ ظُهُورِ الْأَسْمَاءِ عُمُومِهَا، وَإِلَّا تَعَطَّلَ بَعْضُهَا وَأَفْصَحَ غَايَةَ الْإِفْصَاحِ، وَجَادَ وَأَفَادَ بِمَا أَوْدَعَهُ اللَّهُ فِيهِ مِنَ الِاسْتِعْدَادِ فَظَهَرَتْ لَهُمْ صِفَةُ الْخُصُوصِيَّةِ، وَاسْتَتَرَتْ أَوْصَافُ الْبَشَرِيَّةِ، وَالْعِلْمُ أَخْرَى

بِالسِّتْرِ لِكُلِّ وَصْفٍ ذَمِيمٍ ، وَبِمَا اتَّضَحَ لَدَيْهِمْ « قَالَ » تَعَالَى تَبْكِيتًا لَهُمْ عَلَى مَا اقْتَرَفُوهُ مِنْ عَدَمِ التَّفْوِيضِ « أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ » الَّتِي هِيَ مَقَرُّكُمْ « وَالْأَرْضِ » الَّتِي هِيَ مَقَرُّ الْخِلَافَةِ وَمَا يَقَعُ فِيهَا مِنَ الْفَسَادِ وَسَفْكِ الدِّمَاءِ ، وَهَلْ ظَنَنْتُمْ أَنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ حَتَّى تُذَكِّرُونِي ، كَلَّا إِنِّي عَلَى عِلْمٍ مِنْ ذَلِكَ « وَأَعْلَمُ » مِنْكُمْ « مَا تُبْدُونَ » مِنَ الطَّاعَةِ وَالتَّسْبِيحِ « وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ » فِي أَنْفُسِكُمْ مِنَ الِاعْتِرَاضِ عَلَى أَنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً . وَلَمَّا تَحَقَّقَ مِنْهُمُ الِاعْتِرَافُ وَدَعَنُوا بِالْحَقِّ وَدَنُوا بِالْإِنْصَافِ ، أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يُحَقِّقَ صِدْقَهُمْ بِذَلِكَ فَيَسْتَعْبِدُهُمْ لِآدَمَ وَيَبْلِيهِمْ بِالسُّجُودِ ، حَتَّى لَا يَقَعَ مِنْهُمْ عَلَيْهِ اعْتِرَاضٌ بَعْدَ ذَلِكَ ، فَضْلًا أَنْ يَقَعَ مِنْهُمْ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى ، امْتَحَنَهُمْ بِالسُّجُودِ فَقَالَ « وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ » الْمُسْتَشَارِينَ أَوَّلًا لَا لِغَيْرِهِمْ مِنَ الْعَالَمِينَ لِأَنَّهُ لَمْ تَحْصُلْ لَهُمْ مَشَاوَرَةٌ ، وَلَمْ يَقَعْ مِنْهُمْ اعْتِرَاضٌ « اسْجُدُوا لِآدَمَ » وَاخْضَعُوا لَهُ ، وَلَا تَعْتَرِضُوا عَلَيْهِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ ، فَقَدْ اسْتَبَانَ أَنَّهُ أَوْسَعُ مِنْكُمْ عِلْمًا « فَسَجَدُوا » مِنْ غَيْرِ اسْتِفْسَارٍ عَمَّا هِيَ الْحِكْمَةُ فِي السُّجُودِ كَمَا اسْتَفْسَرُوا

أَوَّلاً عِنْدَ قَوْلِهِمْ: أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا، وَلَوْ اسْتَفْسَرُوا ثَانِيًا لَحَقَّتْ بِهِمُ الْعُقُوبَةُ، لِأَنَّهُمُ الْآنَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ شَأْنِ آدَمَ، فَإِنَّ زَلَّةَ الْعَالِمِ أَشْنَعُ مِنْ زَلَّةِ غَيْرِهِ، وَلَمَّا كَانَ إِبْلِيسُ لَمْ يَدْخُلْ فِي الْمَشُورَةِ أَوَّلاً عِنْدَ قَوْلِهِ: وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً، وَلَمْ يَسْمَعْ مِنْ آدَمَ مِنْ عِلْمِ الْأَسْمَاءِ شَيْئًا، إِنَّمَا أَحْضَرَ وَقْتَ الْأَمْرِ بِالسُّجُودِ، فَامْتَنَعَ لِذَلِكَ، وَهُوَ قَوْلُهُ: «إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى» أَيْ امْتَنَعَ، وَالِاسْتِثْنَاءُ مُنْقَطِعٌ هُنَا، لِأَنَّهُ مِنَ الْجِنِّ، وَالِامْتِنَاعُ كَانَ مِنْهُ لِعِلَلٍ اعْتَمَدَهَا فَقَطَعَ النَّظَرَ عَنِ السَّابِقِيَّةِ. أَوَّلاً: إِنَّهُ لَمْ يَحْضُرِ الْمَشُورَةَ. ثَانِيًا: إِنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ مِنْ آدَمَ مِنَ الْعِلْمِ مَا يَسْتَوْجِبُ خُضُوعَهُ لَهُ بِأَنْ يَكُونَ لَهُ عَلَيْهِ حَقٌّ. وَثَالِثًا: كَوْنُهُ مُتَعَبَّدًا وَآدَمُ لَمْ يَسْبِقْ مِنْهُ عَمَلٌ يَسْتَوْجِبُ الْأَفْضَلِيَّةَ عَلَى إِبْلِيسَ. وَرَابِعًا: إِنَّهُ خَيْرٌ مِنْهُ عَلَى مَا اعْتَقَدَهُ إِبْلِيسُ مِنْ جِهَةِ الْفِطْرَةِ النَّارِيَّةِ بِالنِّسْبَةِ لِلْفِطْرَةِ التُّرَابِيَّةِ. وَخَامِسًا: إِنَّ الْخِطَابَ كَانَ لِلْمَلَائِكَةِ وَإِبْلِيسُ مِنَ الْجِنِّ. وَسَادِسًا: احْتَجَبَ عَنْ شُهُودِ الْحَقِّ فِي آدَمَ. وَسَابِعًا: اعْتَمَدَ عَلَى نَهْيِ اللَّهِ تَعَالَى عِبَادَهُ عَنِ السُّجُودِ لِغَيْرِهِ. وَثَامِنًا: ظَنَّ أَنَّ مَكَانَتَهُ عِنْدَ اللَّهِ لَا تَسْقُطُ بِمُجَرَّدِ

امْتِنَاعِهِ عَنِ السُّجُودِ لِمَخْلُوقٍ. وَتَاسِعًا: أَرَادَ أَنْ يَسْتَفْسِرَ كَمَا اسْتَفْسَرَتِ الْمَلَائِكَةُ فِي أَوَّلِ خَلْقَةِ آدَمَ. وَعَاشِرًا: مَا اسْتَفَزَّهُ مِنَ الْكِبْرِ. وَالْحَادِي عَشَرَ: مُوَافَقَةً لِمَا جَرَى بِهِ الْقَدَرُ، وَلِهَذَا سَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ، إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى «وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ» فِي عِلْمِ اللَّهِ «مِنَ الْكَافِرِينَ» بِسَبَبِ مَا جَحَدَهُ مِنْ وُجُودِ السُّجُودِ لِآدَمَ وَالِاعْتِرَافِ بِأَفْضَلِيَّتِهِ، لَا كَوْنُهُ كَافِرًا بِاللَّهِ وَبِصِفَاتِهِ، فَهُوَ أَبْعَدُ مِنْ أَنْ يَجْحَدَ وَحْدَانِيَّةَ اللَّهِ بِمَا سَبَقَ لَهُ مِنَ الِانْقِيَادِ، إِنَّمَا كُفْرُهُ عِنَادٌ. ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ الْمَأْمُورِينَ بِالسُّجُودِ لِآدَمَ لَنْ يَزَالُوا سَاجِدِينَ سُجُودَ طَاعَةٍ وَامْتِثَالٍ لِآدَمَ، لِأَنَّهُ تَعَالَى لَمْ يُخْبِرْنَا عَنْهُمْ بِالرَّفْعِ مِنَ السُّجُودِ، كَمَا أَخْبَرَنَا بِأَنَّهُمْ سَجَدُوا، وَسُجُودُهُمْ هَذَا الْآنَ لِآدَمَ هُوَ عِبَارَةٌ عَنْ خُضُوعِهِمْ وَامْتِثَالِهِمْ، وَنَعْنِي بِهِمُ الْمَلَائِكَةَ الْمُوَكَّلِينَ بِجِنْسِ الْبَشَرِ. وَقَدْ وَرَدَ فِي الْخَبَرِ أَنَّ فِي الْإِنْسَانِ ثَلَاثَمِائَةٍ وَسِتَّةً وَسِتِّينَ عِرْقًا، مَعَ كُلِّ عِرْقٍ مَلَكٌ مُسَخَّرٌ فِي حِفْظِ الْإِنْسَانِ، وَكَفَى بِذَلِكَ طَاعَةً وَسُجُودًا، فَتَجِدُ الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِهِ، لَا يَأْلُونَ مِنْ نُصْحِهِمْ وَحِفْظِهِمْ لَهُ، وَحَتَّى لَوْ أَرَادَ ابْنُ آدَمَ أَنْ يَقْتَرِفَ مُخَالَفَةً كَمَا

هِيَ عَادَتُهُ يَتْرُكُونَهُ وَشَأْنَهُ، وَلَا يَنْقُصُ شَيْءٌ مِنَ اعْتِنَائِهِمْ بِهِ، فَيَالَهَا مِنْ طَاعَةٍ وَيَالَهُ مِنْ سُجُودٍ لَوْلَا أَنْ يَكُونُوا عَلَيْهِ فِي الآخِرَةِ مِنْ شُهُودٍ.

الإِسْتِنْبَاطُ : يُسْتَخْرَجُ مِنْ قَوْلِهِ: «وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ» إِلَى قَوْلِهِ: «وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ» إِثْنَانِ وَعِشْرُونَ حُكْمًا :

الأَوَّلُ : عَلِمْنَا بِمَشْرُوعِيَّةِ الْمَشُورَةِ وَإِنْ مِنَ الْفَاضِلِ لِلْمَفْضُولِ، مِنْ قَوْلِهِ: «وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً».

الثَّانِي : عَلِمْنَا بِجَوَازِ الإِسْتِفْسَارِ، وَإِنْ مِنَ الأَدْنَى إِلَى الأَعْلَى، مِنْ قَوْلِ الْمَلَائِكَةِ: أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا.

الثَّالِثُ : عَلِمْنَا بِجَوَازِ ذِكْرِ مَعَايِبِ النَّاسِ عِنْدَ الْمُهِمَّةِ، مِنْ قَوْلِهِمْ أَيْضًا: أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ.

الرَّابِعُ : عَلِمْنَا بِجَوَازِ الإِنْصَاتِ للمعـ إِنْ كَانَ بِقَصْدِ النُّصْحِ، مِنِ اسْتِمَاعِهِ تَعَالَى لَهُمْ وَعَدَمِ اعْتِرَاضِهِ عَلَيْهِمْ.

الْخَامِسُ : عَلِمْنَا بِجَوَازِ نِسْبَةِ الْفِعْلِ لِلْعَبْدِ وَالإِفْتِخَارِ بِالطَّاعَةِ، مِنْ قَوْلِهِمْ: وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ.

السَّادِسُ: عَلِمْنَا بِتَعْيِينِ كِتْمَانِ مَا يَتَعَذَّرُ بَيَانُهُ، مِنْ قَوْلِهِ: «إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ».

السَّابِعُ: عَلِمْنَا بِجَوَازِ تَخْصِيصِ الْمُعَلِّمِ أَحَدَ التَّلَامِذَةِ بِمَا لَا يُخَصَّصُ بِهِ غَيْرُهُ، مِنْ قَوْلِهِ: «وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا» دُونَ الْمَلَائِكَةِ.

الثَّامِنُ: عَلِمْنَا بِجَوَازِ امْتِحَانِ التَّلَامِذَةِ، مِنْ قَوْلِهِ: «أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ».

التَّاسِعُ: عَلِمْنَا بِوُجُوبِ اعْتِرَافِ الْمُقَصِّرِ بِتَقْصِيرِهِ، مِنْ قَوْلِهِمْ: لَا عِلْمَ لَنَا.

العَاشِرُ: عَلِمْنَا بِمَشْرُوعِيَّةِ الْإِجَازَةِ، مِنْ قَوْلِهِ: «أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ».

الحَادِي عَشَرَ: عَلِمْنَا بِجَوَازِ افْتِخَارِ الْمُعَلِّمِ بِتِلْمِيذِهِ، مِنْ قَوْلِهِ أَيْضًا: «أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ».

الثَّانِي عَشَرَ: عَلِمْنَا بِوُجُوبِ إِظْهَارِ مَا يَعْلَمُهُ التِّلْمِيذُ إِذَا أُمِرَ بِذَلِكَ مِنْ جَوَابِ آدَمَ لِمَا يَعْلَمُهُ مِنَ الْأَسْمَاءِ.

الثَّالِثُ عَشَرَ: عَلِمْنَا بِجَوَازِ تَبْكِيتِ مَنْ نَسَبَ لِنَفْسِهِ أَكْثَرَ مِمَّا لَهُ

مِنْ قَوْلِهِ: «أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ».

الرَّابِعُ عَشَرَ: عَلِمْنَا بِوُجُوبِ التَّفْوِيضِ لِلَّهِ الْمُسْتَفَادِ مِنْ عُمُومِ القِصَّةِ.

الخَامِسُ عَشَرَ: عَلِمْنَا بِثُبُوتِ الأَفْضَلِيَّةِ بِالْعِلْمِ لَا بِمُجَرَّدِ الْعَمَلِ، مِنْ تَفْضِيلِهِ تَعَالَى آدَمَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ.

السَّادِسُ عَشَرَ: عَلِمْنَا بِأَنَّ الْخُصُوصِيَّةَ لَا تَتَوَقَّفُ عَلَى عَمَلٍ، لِأَنَّ آدَمَ لَمْ يَسْبِقْ لَهُ عَمَلٌ يُوجِبُ أَفْضَلِيَّةً عَلَى الْمَلَائِكَةِ.

السَّابِعُ عَشَرَ: عَلِمْنَا بِأَنَّ الْمَعَاصِي مُحْبِطَةٌ لِلْأَعْمَالِ مِنْ طَرْدِ إِبْلِيسَ بِمُجَرَّدِ مُخَالَفَتِهِ.

الثَّامِنُ عَشَرَ: عَلِمْنَا بِأَنَّ الْكِبْرَ أَكْبَرُ دَاءٍ فِي سُقُوطِ الْمَنْزِلَةِ وَوُجُوبِ الطَّرْدِ، مِنْ قِصَّتِهِ أَيْضًا.

التَّاسِعُ عَشَرَ: عَلِمْنَا بِأَنَّ الْجَاحِدَ لِوَاجِبٍ مَعْلُومٍ مِنَ الدِّينِ بِالضَّرُورَةِ يُكَفَّرُ بِمَا جَحَدَهُ إِبْلِيسُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ بِالسُّجُودِ لِآدَمَ أَنْ يَكُونَ وَاجِبًا.

تَمَامُ الْعِشْرِينَ: عَلِمْنَا بِأَنَّ التَّأْوِيلَ الْبَعِيدَ لَا تَقُومُ بِهِ الْحُجَّةُ، مِمَّا تَأَوَّلَهُ إِبْلِيسُ.

الْحَادِي وَالْعِشْرُونَ: عَلِمْنَا بِأَنَّ الْقِيَاسَ لَا يُعْمَلُ مَعَ النَّصِّ الصَّرِيحِ، مِنْ قِيَاسِ إِبْلِيسَ مَعَ وُجُودِ الْأَمْرِ إِلَيْهِ بِالسُّجُودِ.

الثَّانِي وَالْعِشْرُونَ: عَلِمْنَا بِأَنَّ التَّوْبَةَ أَقْرَبُ وَسِيلَةٍ فِي الرُّجُوعِ إِلَى اللَّهِ، مِنْ تَوْبَةِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِنَ التَّائِبِينَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

الْإِشَارَةُ: الْخَلِيفَةُ لِلْمَلِكِ هُوَ عِبَارَةٌ عَنِ الْمُتَوَلِّي لِأُمُورِ الْقَائِمِ بِشُؤُونِهِ بِمَعْنَى أَنَّهُ يَخْلُفُهُ فِي الْمَحَلِّ الْمُسْتَخْلَفِ فِيهِ، وَلَا بُدَّ وَأَنْ يَكُونَ فِيهِ مِنْ نُعُوتِ الْمَلِكِ مِنْ جِهَةِ الْعَطَاءِ وَالْمَنْعِ، وَالنَّفْعِ وَالضُّرِّ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ النُّعُوتِ الَّتِي تَرْبِطُهُ بِالْمَلِكِ، وَتُمَيِّزُهُ عَنِ الْمَمْلُوكِ، وَالْمَعْنَى أَنَّهُ يَكُونُ مَلِكًا مِنْ وَجْهَةٍ مَمْلُوكًا مِنَ الْأُخْرَى، وَبِهَذَا الْمُوجِبِ ظَهَرَ تَعَالَى فِي آدَمَ بِعُمُومِ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمَا سَجَدَتِ الْمَلَائِكَةُ لَهُ، فَمَنْ نَظَرَ وَجْهَ الْمَلِكِ فِي الْخَلِيفَةِ

فَقَدْ قَامَ بِحَقِّهِ، وَمَنْ لَمْ يَعْرِفْهُ بَاءَ بِغَضَبِهِ، وَمَا تَمَيَّزَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنَ الشَّيَاطِينَ إِلَّا بِذَلِكَ، فَمُلَاحَظَةُ الْحَقِّ فِي الْخَلْقِ حَظَّةُ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ وَعَدَمُ مُلَاحَظَتِهِ حَظَّةُ الشَّيَاطِينَ، وَالنَّاسُ جَاءَتْ عَلَى أَزْوَاجٍ ثَلَاثَةٍ، فَطَائِفَةٌ عَلَى نَعْتِ آدَمَ، وَهُمُ الْعَارِفُونَ وَالْجَاهِبَذَةُ الْوَاصِلُونَ، عَرَفُوا الْأَسْمَاءَ وَحَقَائِقَهَا، وَالصِّفَاتِ وَدَقَائِقَهَا، وَالذَّاتَ وَمُقْتَضَيَاتِهَا، فَاسْتَحَقُّوا بِذَلِكَ الْخِلَافَةَ الْإِلَهِيَّةَ وَالظُّهُورَ عَلَى جَمِيعِ الْبَرِيَّةِ. وَطَائِفَةٌ جَاءَتْ عَلَى حَظَّةِ الْمَلَائِكَةِ، وَهُمُ الْعُلَمَاءُ الْعَامِلُونَ، وَالزُّهَّادُ الصَّالِحُونَ، غَيْرَ أَنَّهُمْ مَحْجُوبُونَ عَمَّا وَرَاءَ السُّتُورِ فِيمَا يَقْتَضِي الشُّعُورُ، وَلِهَذَا تَجِدُهُمْ يَتَقَدَّمُونَ عَلَى الْقَوْمِ أَحْيَانًا فِيمَا يَظْهَرُ لَهُمْ فِي سِيَرِهِمْ مِنَ النَّقْصِ، كَمَا ظَهَرَ لِلْمَلَائِكَةِ فِي آدَمَ لَكِنْ قَبْلَ أَنْ يُطْلِعَهُمُ اللَّهُ عَلَى مَا لَهُمْ مِنَ الْمَزَايَا، وَيَسْتُرَ عَنْهُمْ أَوْصَافَ الْبَشَرِيَّةِ بِسِرِّ الْخُصُوصِيَّةِ، وَأَمَّا بَعْدَ الْإِطِّلَاعِ فَهُمْ أَبْعَدُ مِنْ أَنْ يَجْحَدُوا الْحَقَّ، لَكِنْ يَبْتَلِيهِمُ اللَّهُ بِالسُّجُودِ إِلَيْهِمْ، كَمَا ابْتَلَى الْمَلَائِكَةَ بِالسُّجُودِ لِآدَمَ، وَلِهَذَا لَا تَجِدُ عَالِمًا مِمَّنْ يَتَوَسَّمُ بِالصَّلَاحِ إِلَّا وَهُوَ يُدِينُ بِالِانْحِطَاطِ لِلْقَوْمِ وَبِالِاعْتِرَافِ بِعُلُومِهِمْ، وَلَا تَجِدُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ

إِلَّا كَمَا تَجِدُ الْمَلَائِكَةُ بِحَضْرَةِ آدَمَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وَهَذِهِ الطَّائِفَةُ أَقْرَبُ مِنَ الْوِلَايَةِ الْخَاصَّةِ. الطَّائِفَةُ الثَّالِثَةُ وَهِيَ أَبْعَدُ الطَّوَائِفِ عَنِ اللَّهِ سَارَتْ عَلَى خُطَّةِ الشَّيَاطِينِ، وَالْحَقُّ يَقُولُ: «وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ» فَإِنَّهَا لَمْ تَعْتَرِفْ بِالْأَيْمَانِ، وَلَا تُدِينُ بِالشُّهُودِ وَلَا بِالْعِيَانِ، تَرَى كَأَنَّ الْوُجُودَ فَارِغٌ مِنْ كُلِّ مَعْنًى رَاجِعَةٍ لِذَاتِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ - عَافَانَا اللَّهُ مِنَ الْإِحْتِجَابِ - ثُمَّ أَنَّ نَظِيرَ آدَمَ عَلَى مَا بِهِ الْإِشَارَةُ تَنْزِلُ اللَّطِيفَةُ الرُّوحَانِيَّةُ مِنْ سَمَاءِ الْحُرِّيَّةِ لِتَقُومَ بِالْخِلَافَةِ فِي هَذَا الْبَدَنِ عَلَى مُقْتَضَى الْعُبُودِيَّةِ فَبَعْدَ مَا تَعَلَّقَتْ بِهِ عَلَى كُرْهٍ حَسْبَمَا يَقْتَضِيهِ فِرَاقُ الْوَطَنِ وَمَا كَانَتْ عَلَيْهِ أَيَّدَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِمَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ، وَخَصَّهَا بِخَصَائِصَ كَانَتْ مَقْصُورَةً عَلَيْهِ، وَمِنْ ذَلِكَ أَنْ أَسْجَدَ لَهَا الْمَلَائِكَةَ، فَهِيَ إِلَى الْآنَ حَافَّةٌ مِنْ حَوْلِهِ، فَمِنْهَا سَاكِنَةٌ فِي بَدَنِهِ، وَمِنْهَا خَارِجَةٌ عَلَيْهِ، أَلَا تَرَى أَنَّ الْإِنْسَانَ فِي حَالَةِ النَّوْمِ وَالْأَنْفَاسُ تَجْرِي مَجْرَاهَا، وَالدِّمَاءُ تَسْلُكُ مَسْلَكَهَا، وَحَرَكَةُ الْعُرُوقِ مِثْلُ ذَلِكَ، وَلَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا مِنْ آثَارِ الْمُوَكَّلِينَ بِهِ، وَمِنْهُمْ سُكَّانُ الْقُوَّةِ الْفِكْرِيَّةِ، وَسُكَّانُ الْقُوَّةِ الْعَقْلِيَّةِ وَالْبَصَرِيَّةِ

وَالسَّمْعِيَّةِ. وَقِسْ عَلَى ذَلِكَ، وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ، وَكُلُّ هَذَا مِنْ آثَارِ السُّجُودِ لِآدَمَ، وَأَنَّ امْتِنَاعَ الشَّيْطَانِ مِنَ السُّجُودِ لِآدَمَ لِمَا تَقْتَضِيهِ حَقِيقَتُهُ النَّارِيَّةُ الْمُسْتَمِدَّةُ مِنْهَا الْقُوَّةُ الْغَضَبِيَّةُ وَالطَّبِيعِيَّةُ فَهِيَ مَالِكَةٌ بِالطَّبْعِ لَا تَنْطَوِي تَحْتَ الْقُوَّةِ التُّرَابِيَّةِ، وَلِهَذَا تَجِدُ الْإِنْسَانَ كَيْفَمَا كَانَ إِلَّا وَالْغَضَبُ يَسْتَفِزُّهُ، وَجَاءَ فِي الْخَبَرِ أَنَّ الْغَضَبَ شَيْطَانٌ وَأَمَّا مَقَرُّ آدَمَ فِي الْجَنَّةِ نَظِيرُهُ صَيْبُوبَةُ الْإِنْسَانِ، فَهِيَ جَنَّةٌ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ، بِحَيْثُ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ، وَلَمَّا اسْتُعْمِلَتْ فِيهِ الْغَرِيزَةُ الشَّهْوَانِيَّةُ وَاسْتَحْكَمَتْ مِنْهُ الْقُوَّةُ النَّارِيَّةُ الَّتِي هِيَ حَقِيقَةُ الشَّيْطَانِ دَعَتْهُ إِلَى شَجَرَةِ الْمُخَالَفَةِ، فَأَكَلَ مِنْهَا، فَأَهْبَطَهُ اللَّهُ إِلَى دَرَكَةِ التَّكْلِيفِ، وَحَصَلَ بَيْنَ الْقُوَّةِ الْعَقْلِيَّةِ وَالطَّبِيعِيَّةِ عَدَاوَةٌ أَبَدِيَّةٌ، فَمَنْ كَانَ تَعَلُّقُهُ بِالْقُوَّةِ الْعَقْلِيَّةِ كَانَ مَقَرُّهُ الْحَضْرَةَ الْإِلَهِيَّةَ الْمُشَارَ لَهَا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى، وَمَنْ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ قَالَ تَعَالَى: «نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى».

لِسَانُ الرُّوحِ: يُعْتَبَرُ مِنْ آدَمَ اللَّطِيفَةَ الْإِلَهِيَّةَ الْمُتَنَزِّلَةَ مِنْ

سَمَاءِ الْحُرِّيَّةِ إِلَى أَرْضِ الْعُبُودِيَّةِ بِمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ مِنَ الصِّفَاتِ الْكَمَالِيَّةِ عَلَى مُقْتَضَى أَنَّهُ جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ، خِطَابٌ مِنْ حَضْرَةِ الذَّاتِ الْأَقْدَسِيَّةِ إِلَى السَّمَاءِ الْأَزَلِيَّةِ ، فَأَجَابَ الْعَدْلُ بِلِسَانِ الْمُتَكَلِّمِ قَائِلًا : أَتَجْعَلُ فِي أَرْضِ الْعُبُودِيَّةِ مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ مُسْتَفْهِمًا عَمَّا تَقْتَضِيهِ إِرَادَةُ الْأَزَلِيَّةُ وَالْحِكْمَةُ الْأَبَدِيَّةُ ، وَكَانَ الْعَلِيمُ أَحْوَطَ بِالْجُزْئِيَّاتِ فَضْلًا عَنِ الْكُلِّيَّاتِ ، قَالَ : إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ . فَرَجَعَتِ الْأَسْمَاءُ لِصِفَاتِهَا ، وَالصِّفَاتُ لِذَاتِهَا قَائِلَةً : لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ .

التَّفْسِيرُ : فَبَعْدَ مَا انْتَهَتْ حِكَايَةُ مَا جَرَى بَيْنَهُ تَعَالَى وَبَيْنَ الْمَلَائِكَةِ وَإِبْلِيسَ ، وَأَخَذَ مِنْهَا كُلٌّ عَلَى قَدْرِ مَشْرُوبِهِ ، شَرَعَ فِي ذِكْرِ مَا جَرَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ آدَمَ فَقَالَ : « **وَقُلْنَا يَا آدَمُ** » هُوَ أَبُو الْبَشَرِ « **أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ** » حَوَّاءُ « **الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا** » أَيْ مِنْ ثِمَارِهَا « **رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا** » أَيْ أَكْلُ وَسْعٍ وَرَفَاهِيَةٍ « **وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ** » لِأَنْفُسِهِمْ بِارْتِكَابِكُمَا الْمَنْهِيَّ عَنْهُ ، ثُمَّ أَنَّهُ

اخْتُلِفَ فِي الشَّجَرَةِ مَا هِيَ ؟ هَلْ هِيَ الْحِنْطَةُ أَمِ التِّينُ أَمْ غَيْرُ ذَلِكَ؟ وَلَيْسَ تَحْتَ الِاخْتِلَافِ طَائِلٌ، لِأَنَّ الْمَقْصُودَ هُوَ ثُبُوتُ النَّهْيِ عَنْهَا « **فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا** » مِنْ زَلَلِ الْقَدَمِ حَرَكَتُهُ فَحَرَّكَهُمَا إِلَى أَنْ أَوْضَعَهُمَا فِي الْمُخَالَفَةِ « **فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَ فِيهِ** » مِنَ النَّعِيمِ « **وَقُلْنَا اهْبِطُوا** » الضَّمِيرُ يَشْمَلُ حَوَّاءَ وَآدَمَ وَالشَّيْطَانَ « **بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ** » فَبِذَلِكَ انْتَشَرَتِ الْعَدَاوَةُ بَيْنَ الصِّنْفَيْنِ الْإِنْسِ وَالشَّيَاطِينِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، فَالْبُغْضِيَّةُ رَاجِعَةٌ لِذُرِّيَّاتِ الْفَرِيقَيْنِ. الْبُغْضُ يَتَوَارَثُ وَالْحُبُّ مِثْلُهُ « **وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ** » مِنَ الدَّهْرِ، أَيْ مُدَّةٌ يَنْقَضِي فِيهَا أَجَلُكُمْ، وَلِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ « **فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ** » دُونَ حَوَّاءَ وَإِبْلِيسَ « **كَلِمَاتٍ** » وَهِيَ قَوْلُهُ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ، « **فَتَابَ عَلَيْهِ** » وَعَلَى حَوَّاءَ بِالتَّبَعِيَّةِ « **إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ** » ثُمَّ أَتَى تَعَالَى بِمَا فِيهِ تَكْرَارٌ لِلتَّأْكِيدِ، وَلِيُرَتِّبَ عَلَيْهِ غَيْرَهُ فَقَالَ: « **قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا** » أَيْ مِنَ الْجَنَّةِ « **جَمِيعًا** » حَتَّى لَا يَتَوَهَّمَ

أَنَّهُ أَهْبَطَ الشَّيْطَانَ دُونَ آدَمَ وَحَوَّاءَ لَمَّا وَقَعَتْ مِنْهُمَا التَّوْبَةُ « فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى » أَيْ مِنَ التَّنْصِيصِ عَلَى سَبِيلِ الْهِدَايَةِ، عَلَى لِسَانِ مَلَائِكَتِهِ أَوْ رُسُلِ الْبَشَرِ « فَمَنْ تَبِعَ » مِنْكُمْ « هُدَايَ » أَيْ تِلْكَ الطَّرِيقَةَ الْمَرْسُومَةَ « فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ » فِي الْآخِرَةِ « وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » فِي الدُّنْيَا عَلَى مَا فَاتَهُمْ مِنَ الْمُوَافَقَةِ قَبْلَ التَّوْبَةِ « وَالَّذِينَ كَفَرُوا » مِنْكُمْ أَوْ مِنْ ذُرِّيَّتِكُمْ « وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » ثُمَّ أَقُولُ أَنَّهُ تَعَالَى لَمْ يَتَعَرَّضْ لِبَيَانِ الْجَنَّةِ الَّتِي أَسْكَنَهَا آدَمَ، هَلْ هِيَ فِي الْأَرْضِ، وَبِهِ قَالَ أَبُو الْقَاسِمِ الْبَلْخِيُّ وَأَبُو مُسْلِمٍ الْأَصْبَهَانِيُّ وَغَيْرُهُمَا. ذَكَرَ الْفَخْرُ الرَّازِيُّ وَعَلَى فَرْضِ أَنَّهَا فِي السَّمَاءِ، فَهَلْ هِيَ دَارُ الْخُلْدِ أَمْ أَحَدُ الْأَجْرَامِ الْعُلْوِيَّاتِ وَعَلَى كُلِّ حَالٍ فَالدَّلِيلُ أَرْجَحُ فِي كَوْنِهَا لَيْسَتْ هِيَ الْجَنَّةَ الْمُدَّخَرَةَ بَعْدَ الْمَوْتِ لِوُجُوهٍ، مِنْهَا أَنَّ نَعِيمَ جَنَّةِ الْخُلْدِ غَيْرُ مُنْقَطِعٍ، وَهَذِهِ انْقَطَعَ نَعِيمُهَا. الثَّانِي: أَنَّ نَعِيمَهَا غَيْرُ مُقَيَّدٍ بِشَجَرَةٍ دُونَ الْأُخْرَى، وَهَذِهِ مُقَيَّدٌ نَعِيمُهَا. الثَّالِثُ: أَنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَى الشَّيْطَانِ أَنْ يَدْخُلَهَا مِنْ كُلِّ

الْوُجُوهِ، وَهٰذِهِ دَخَلَهَا . الرَّابِعُ : إِنَّهَا لَوْ كَانَتْ جَنَّةَ الْخُلْدِ لَمَا صَحَّ لِلشَّيْطَانِ أَنْ يُشَوِّشَ عَلَى آدَمَ بِقَوْلِهِ: هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى وَالْحَالَةُ أَنَّهُ فِيهَا . الْخَامِسُ : أَنَّ دَارَ الْخُلْدِ لَا يُعْصَى اللَّهُ فِيهَا، وَهٰذِهِ عَصَى آدَمُ فِيهَا . السَّادِسُ : أَنَّهَا لَا يَحْصُلُ فِيهَا حُزْنٌ، وَهٰذِهِ قَدْ حَصَلَ لِآدَمَ مِنَ الْحُزْنِ مَا اللَّهُ أَعْلَمُ بِهِ . السَّابِعُ : أَنَّهُ قَالَ لِلْمَلَائِكَةِ : إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً، وَلَمْ يَقُلْ فِي السَّمَاءِ، وَلَا فِي جَنَّةِ الْمَأْوَى. الثَّامِنُ : إِنَّ وَسْوَسَةَ الشَّيْطَانِ كَانَتْ لِآدَمَ بَعْدَ أَنْ قَالَ لَهُ تَعَالَى: اهْبِطْ مِنْهَا، فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا، فَكَيْفَ يُسَوَّغُ لَهُ الرُّقِيُّ إِلَى جَنَّةٍ سَقْفُهَا عَرْشُ الرَّحْمٰنِ بَعْدَ مَا حَلَّ لَهُ مِنَ الطَّرْدِ . التَّاسِعُ : أَنَّ خِلْقَةَ آدَمَ كَانَتْ فِي الْأَرْضِ وَمِنَ الْأَرْضِ، وَلَمْ يَبْلُغْنَا عَنْهُ أَنَّهُ أُعْرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ، وَأَمَّا الْهُبُوطُ فَمِنَ الْمُحْتَمَلِ أَنْ يَكُونَ عَلَى حَدِّ قَوْلِهِ تَعَالَى : اهْبِطُوا مِصْرًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ . وَالْأَحْوَطُ أَنْ نَعْتَقِدَ أَنَّ آدَمَ كَانَ فِي مَحَلٍّ يُسَمَّى بِالْجَنَّةِ، بِدُونِ تَعْيِينٍ، وَأَمَّا تَصَوُّرُ الْمَعْصِيَةِ فِي حَقِّ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَهُوَ فِي مَحَلِّ النِّزَاعِ، فَهَلْ هِيَ كَانَتْ قَبْلَ

نُبُوَّتِهِ أَوْ بَعْدَهَا، وَهَلْ هِيَ صَغِيرَةٌ أَوْ كَبِيرَةٌ، وَهَلْ صَدَرَتْ مِنْهُ عَمْدًا أَوْ اسْتِغْفَالًا. وَالطُّرُقُ فِي ذَلِكَ تَشَعَّبَتْ، وَالْمَسَالِكُ تَوَعَّرَتْ بَيْنَ الإِثْبَاتِ وَالنَّفْيِ، وَفِي كِلَا الْوَجْهَيْنِ ضَرَرٌ، لِأَنَّ الإِثْبَاتَ لِمُخَالَفَةِ الأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ تَقْضِي بِانْحِلَالِ عَقْدِ الشَّرَائِعِ، لِأَنَّهُمْ أُمَنَاءُ عَلَى أَسْرَارِ الْوَحْيِ، وَإِذَا ثَبَتَتِ الْخِيَانَةُ فِي شَيْءٍ سَرَتْ فِي جَمِيعِ الشَّرَائِعِ وَهَذَا لَا يَخْفَى ضَرُورَةً وَهُوَ الإِثْبَاتُ، وَأَمَّا النَّفْيُ لَا يَبْعُدُ ضَرَرًا مِنْهُ، لِمَا فِيهِ مِنْ رَدِّ النُّصُوصِ الصَّرِيحَةِ، كَقَوْلِهِ: وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ. وَعَلَيْهِ فَلَمْ يَبْقَ لَنَا إِلَّا التَّأْوِيلُ الْحَسَنُ مَهْمَا وَفَّقَنَا اللَّهُ إِلَيْهِ، فَأَقُولُ أَنَّ آدَمَ عِنْدَ النَّفْخِ فِيهِ فِي أَوَّلِ خِلْقَتِهِ لَمْ يَكُنْ مُسْتَعِدًّا كُلَّ الإِسْتِعْدَادِ وَلَنْ يَسْتَكْمِلَ قُوَاهُ الْعَقْلِيَّةَ وَالْفِكْرِيَّةَ إِلَّا شَيْئًا فَشَيْئًا، كَمَا هِيَ سُنَّةُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ، وَمَا أَسْكَنَهُ تَعَالَى الْجَنَّةَ إِلَّا لِيُكَمِّلَ قُوَاهُ الْحِسِّيَّةَ وَالْمَعْنَوِيَّةَ وَنَهْيُهُ تَعَالَى لَهُ عَنِ الأَكْلِ مِنَ الشَّجَرَةِ كَانَ نَهْيَ حِمْيَةٍ وَشَفَقَةٍ كَمَا يَحْمِي الْمَرِيضَ عَنِ الأَكْلِ بِوَاسِطَةِ الطَّبِيبِ، عَمَّا لَا يُوَافِقُ طَبْعَهُ وَرُبَّمَا كَانَ طَعْمُ الشَّجَرَةِ ثَقِيلًا لَا تَحْمِلُهُ مَعِدَتُهُمَا قَبْلَ الإِسْتِعْدَادِ لَهُ

وَلَمَّا وَقَعَ ذَلِكَ فِي الْوَقْتِ الَّذِي حَدَّدَتْهُ الإِرَادَةُ دَلَّ ذَلِكَ عَلَى اسْتِكْمَالِ الْقُوَّةِ وَوُجُودِ الْحِرْصِ فِيهِمَا، وَهِيَ دَلَالَةٌ تُنَبِّئُ عَنْ تَمَامِ اسْتِعْدَادِهِمَا لِلْقِيَامِ بِشُؤُونِهِمَا، وَلَوْ أَلْقَاهُمَا تَعَالَى فِي الأَرْضِ قَبْلَ وُجُودِ الأَهْلِيَّةِ مَعَ قَفْرَتِهَا لاخْتَلَّ نِظَامُهُمَا. وَأَمَّا تَشْنِيعُهُ تَعَالَى عَلَيْهِمَا بِالْمَعْصِيَةِ حِكْمَتُهُ لِيَتَرَتَّبَ عَلَيْهِ إِخْرَاجُهُمَا مِنَ الْجَنَّةِ، وَلَوْلاَ ذَلِكَ لَظَهَرَ لآدَمَ أَنَّ إِخْرَاجَهُ مِنَ الْجَنَّةِ لَيْسَ هُوَ مِنْ قَبِيلِ الإِحْسَانِ إِلَيْهِ، وَفِي ذَلِكَ مَا يُضِرُّ بِعَقِيدَتِهِ وَلَمَّا أَثْبَتَ فِي نَظَرِهِ تِلْكَ الْمُخَالَفَةَ رَجَعَ عَلَى نَفْسِهِ بِاللَّوْمِ وَالإِلْتِجَاءِ لِلَّهِ، وَفِيهَا أَيْضًا فَائِدَةٌ أُخْرَى وَهِيَ بَثُّ الْعَدَاوَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الشَّيْطَانِ حَتَّى لاَ يَأْمَنَهُ عِنْدَ مَقَرِّهِ عَلَى مَنْصِبِ الْخِلاَفَةِ. وَبِالْجُمْلَةِ إِنَّ تَحْذِيرَ اللَّهِ لآدَمَ مِنَ الشَّيْطَانِ كَانَ دَرْسًا بِالْفِعْلِ، وَهَذِهِ هِيَ الْحِكْمَةُ فِي إِدْخَالِهِ الْجَنَّةَ وَإِخْرَاجِهِ مِنْهَا وَفِي مَا وَقَعَ لَهُ مَعَ إِبْلِيسَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الإِسْتِنْبَاطُ

يُسْتَخْرَجُ مِنْ قَوْلِهِ: وَقُلْنَا يَا آدَمُ، إِلَى قَوْلِهِ: خَالِدُونَ، سَبْعَةُ أَحْكَامٍ:

الأوَّلُ: عَلِمْنا بِأنَ اسْتَقَرَّ فِي مَحَلٍّ يُسَمَّى بالْجَنَّةِ بُرْهَةً مِنَ الزَّمانِ فِي أَوَّلِ أَمْرِهِ، مِنْ قَوْلِهِ: «وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ».

الثَّانِي: عَلِمْنَا بِأَنَّ الْجَنَّةَ الَّتِي كَانَ فِيهَا لَحِقَتْهُ فِيهَا بَعْضُ التَّكَالِيفِ مِنْ قَوْلِهِ: «وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ» حَيْثُ عَبَّرَ بِالْقُرْبِ، فَيَكُونُ مَا أَكَلَهُ مُمْتَنِعٌ مِنْ طَرِيقِ الْأُخْرَوِيَّةِ.

الرَّابِعُ (1): عَلِمْنَا بِأَنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لَهُ نُفُوذٌ بِالْجَنَّةِ بَعْدَ خُرُوجِهِ مِنْهَا، وَقَبْلَ هُبُوطِهِ إِلَى الْأَرْضِ، وَإِلَّا لَمَا وَصَلَتْ وَسْوَسَتُهُ إِلَى آدَمَ وَهُوَ بِالْجَنَّةِ مِنْ قَوْلِهِ: «فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا».

الْخَامِسُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ الْخُرُوجَ مِنَ الْجَنَّةِ هُوَ غَيْرُ الْهُبُوطِ الْآتِي ذِكْرُهُ، وَلِهَذَا بَقِيَتْ يَدُ الشَّيْطَانِ فِي الْجَنَّةِ، مِنْ قَوْلِهِ: «فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ».

السَّادِسُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ الشَّيْطَانَ تَأَخَّرَ هُبُوطُهُ عَنْ خُرُوجِهِ مِنَ الْجَنَّةِ، حَتَّى أَهْبَطَهُ اللَّهُ مَعَ آدَمَ وَحَوَّاءَ، مِنْ قَوْلِهِ: «وَقُلْنَا اهْبِطُوا» حَيْثُ أَتَى بِضَمِيرِ الْجَمْعِ.

(1) تنبيه: لَمْ يُذْكَرِ الْحُكْمُ الثَّالِثُ نَظَرًا لِعَدَمِ وُرُودِهِ فِي النُّسْخَةِ الْأَصْلِيَّةِ.

السَّابِعُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ لِلشَّيْطَانِ فُرُوعًا وَأَبْنَاءً، كَمَا لِآدَمَ، مِنْ قَوْلِهِ: «بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ».

الإِشَارَةُ

فِي قَوْلِهِ: «وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ» حَيْثُ ذَكَرَهَا بِالْجِنْسِ، وَلَمْ يَذْكُرْهَا بِالنَّوْعِ تُفِيدُ وُجُوبَ التَّوَقِّي وَالْاِحْتِرَازِ مِنْ كُلِّ مُشْتَبَهٍ، فَضْلًا عَلَى الْمَنْصُوصِ عَلَيْهِ بِالْمَنْعِ، لِئَلَّا يَكُونَ دَخْلًا تَحْتَ الْجِنْسِ، وَفِي تَعْبِيرِهِ عَنِ الْأَكْلِ بِالْقُرْبِ كِفَايَةٌ، فَمَنْ حَامَ حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ.

لِسَانُ الرُّوحِ

يَقُولُ إِنَّ آدَمَ وَإِنْ أَسَاءَ فِي دَارِ الْإِحْسَانِ فَقَدْ أَحْسَنَ فِي دَارِ الْإِسَاءَةِ، لِيَعْلَمَ أَبْنَاؤُهُ احْتِمَالَ وُقُوعِ الشَّيْءِ فِي ضِدِّهِ، حَتَّى لَا يَأْمَنَ أَحَدُهُمْ مَعَ الْأَمْنِ، وَلَا يَيْأَسَ مَعَ الْخِذْلَانِ.

التَّفْسِيرُ

ثُمَّ بَعْدَ تَوْجِيهِ الْخِطَابِ لِعُمُومِ الْمُكَلَّفِينَ لَوَّنَ الْعِبَارَةَ تَعَالَى وَاسْتَلْفَتَ الْخِطَابَ لِطَائِفَةٍ مَخْصُوصَةٍ، كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا مُوَاصَلَةٌ،

تَحْرِيكًا لِحَبْلِ الْمَوَدَّةِ، فَعَسَى أَنْ يَلْتَحِقَ الْفَرْعُ بِأَصْلِهِ وَالْعَبْدُ بِرَبِّهِ، ثُمَّ أَنَّ تَخْصِيصَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِالذِّكْرِ هُوَ الَّذِي وَضَّحَ حُجَّةَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْعَالَمِينَ مِنْ أَنَّ كِتَابَهُ مِنَ اللَّهِ لَا مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ، كَمَا يَقُولُ الْكَافِرُونَ، فَلَوْ كَانَ كَمَا يَزْعُمُونَ لَمَا حَاجَّ أَهْلَ الْكِتَابِ فِي كِتَابِهِمُ الَّذِي بَيْنَ أَيْدِيهِمْ، يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ، وَالْعَالَمُ يَشْهَدُ بِأَنَّ مُحَمَّدًا أُمِّيٌّ فِي الْعَرَبِيَّةِ فَضْلًا عَنِ الْعِبْرَانِيَّةِ، فَكَيْفَ حَتَّى يُهَدِّدَهُمْ بِمَا فِي التَّوْرَاةِ بِقَوْلِهِ: قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ، وَمَعَ كَوْنِهِ خِطَابًا لَهُمْ فَحَظُّنَا مِنْهُ غَيْرُ مَعْدُومٍ، فَهِيَ حِكَايَةٌ لَنَا، وَتَقَدَّمَ أَنَّ الْحِكَايَةَ لَيْسَتْ هِيَ لِمُجَرَّدِ التَّفَكُّهِ، إِنَّمَا هِيَ لِنَأْخُذَ مِنْهَا أَحْكَامًا عَدِيدَةً يَعْقِلُهَا الْعَالِمُونَ، وَيَأْخُذُهَا الْمُسْتَنْبِطُونَ، وَزِيَادَةً إِنْ لَمْ يَشْمَلْنَا النِّدَاءُ مِنْ قَوْلِهِ: يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ، يَشْمَلُنَا الضَّمِيرُ مِنْ قَوْلِهِ: أُذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ، وَمَنِ الَّذِي لَمْ تَشْمَلْهُ نِعْمَتُهُ الَّتِي مِنْ أَعْظَمِهَا نِعْمَةُ الْإِيجَادِ، ثُمَّ نِعْمَةُ الْإِمْدَادِ، ثُمَّ نِعْمَةُ الِاسْتِعْدَادِ، ثُمَّ نِعْمَةُ التَّعَرُّفِ الَّذِي تَعَرَّفَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِعَبْدِهِ بِهَا، كُلٌّ عَلَى قَدْرِ طَاقَتِهِ،

قَالَ تَعَالَى: «يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ» هُوَ سَيِّدُنَا يَعْقُوبُ، وَمَعْنَاهُ بِالْعِبْرَانِيَّةِ صَفْوَةُ اللَّهِ، وَقِيلَ عَبْدُ اللَّهِ «اذْكُرُوا» مِنَ التَّذَكُّرِ، أَيِ اسْتَحْضِرُوا «نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ» بِإِدْرَاكِكُمْ زَمَنَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبِعْثَتُهُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ، لِيُجَدِّدَ لَكُمْ مَا انْدَرَسَ مِنَ الدِّينِ، وَيُمِدَّكُمْ بِسُنَنِ الْأَوَّلِينَ، وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُفَوِّتُوكُمْ هَذِهِ النِّعْمَةَ «وَأَوْفُوا بِعَهْدِي» الَّذِي عَاهَدْتُمُونِي عَلَيْهِ، إِذْ بَعَثْتُ فِيكُمْ رَسُولًا لِتَنْصُرُونَهُ، فَهَا هُوَ قَدْ حَلَّ أَوَانُهُ، وَجَاءَ أَبَانُهُ، فَآمِنُوا بِهِ وَبِمَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ، وَأَوْفُوا بِعَهْدِكُمْ مِنَ اللَّهِ «أُوفِ بِعَهْدِكُمْ» عِنْدِي بِمَا نَدَّخِرُهُ لَكُمْ مِنَ الثَّوَابِ «وَإِيَّايَ فَارْهَبُونَ» وَالرُّهْبَانِيَّةُ هِيَ أَعْلَى دَرَجَةِ الْخَائِفِينَ، أَيْ خَافُونِي وَلَا تَخَافُوا غَيْرِي، فَإِنَّهُ لَا يُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ نَقَضْتُمْ عَهْدَهُ «وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ» عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ الْقُرْآنُ «مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ» مِنَ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالزَّبُورِ وَسَائِرِ الصُّحُفِ السَّمَاوِيَّةِ، مِنْ جِهَةِ مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنَ الْأَحْكَامِ وَالْقِصَصِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، فَهُوَ يَذْكُرُ وَيُقَرِّرُ الْكَثِيرَ مِمَّا قَرَّرَتْهُ الْكُتُبُ السَّالِفَةُ، وَلَوْ كَانَ الْقُرْآنُ عَلَى خِلَافِ

ذَلِكَ لَقَالَتِ الْيَهُودُ إِنَّهُ مُخَالِفٌ لِكِتَابِنَا «وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ»، أَيْ كُفْرُكُمْ أَشَدُّ ضَرَرًا عَلَيْكُمْ وَعَلَى الْعَالَمِينَ مِنْ جِهَةِ مَا سَبَقَ لَكُمْ مِنْ دَلَائِلِ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ وَصِفَاتِهِ فِي التَّوْرَاةِ، وَاحْذَرُوا أَنْ تَكُونُوا ذَرِيعَةً مِنْ جِهَةِ التَّأَسِّي بِكُمْ لِنِسْبَتِكُمْ لِلْكِتَابِ، فَيَكُونُ جُرْمُكُمْ أَعْظَمَ، وَلَمَّا كَانَ تَعَالَى عَالِمًا مِنْ أَنَّ أَحْبَارَ الْيَهُودِ أَسْهَلُ مِنْ جِهَةِ الْمَيْلِ إِلَى الدُّنْيَا، فَقَدْ يَسْتَبْدِلُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ، جَاءَ بِمَا فِيهِ تَحْذِيرٌ، فَقَالَ: «وَلَا تَشْتَرُوا» أَيْ تَسْتَبْدِلُوا «بِآيَاتِي» الَّتِي جَاءَتْكُمْ فِي بَيَانِ صِفَةِ مُحَمَّدٍ بِأَنْ تُغَيِّرُوهَا وَتُحَرِّفُوا الْكِتَابَ لِأَجْلِ «ثَمَنًا قَلِيلًا»، فَكُلُّ شَيْءٍ فِي الدُّنْيَا قَلِيلٌ بِإِضَافَتِهِ لِجَانِبِ الْحَقِّ «وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ» أَيْ لَا تَتَّقُونَ غَيْرِي فِي مِثْلِ ذَلِكَ، وَإِنْ أَكْرَهَكُمْ عَلَى تَحْرِيفِ الْكِتَابِ وَتَغْيِيرِ الصَّوَابِ. أَلَا تَرَى أَنَّ هَذَا الْخِطَابَ وَمَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنَ التَّحْذِيرِ يَشْمَلُ كُلَّ مُدَاهِنٍ عَالِمٍ بِالْكِتَابِ، تَوْرَاةً كَانَ أَوْ إِنْجِيلًا، وَهُوَ فِي عَصْرِنَا بِالْقُرْآنِ أَجْمَلُ وَأَحْرَى، فَلْيَحْذَرْ عُلَمَاءُ الدِّينِ مِنَ الرُّخَصِ الْوَاهِيَةِ، وَالْمُدَاهَنَةِ فِي دِينِ اللَّهِ، فَإِنَّهُ تَعَالَى يَقُولُ لَهُمْ: «وَلَا تَلْبِسُوا» أَيْ تَسْتُرُوا «الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ» بِأَنْ تَخْلِطُوهُ

حَتَّى يَشْتَبِهَ عَلَى مَنْ لَا خِبْرَةَ لَهُ « **وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ** » أَيْ تَسْكُتُوا عَنْهُ « **وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ** » أَنَّهُ الْحَقُّ ، وَالْحَقُّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ . قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : مَنْ كَتَمَ عِلْمًا يَعْرِفُهُ أَلْجَمَهُ اللَّهُ بِلِجَامٍ مِنَ النَّارِ « **وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ** » فِي أَوْقَاتِهَا وَبِشُرُوطِهَا ، فَإِنَّهَا عِمَادُ الدِّينِ يَا مَعَاشِرَ الْمُسْلِمِينَ وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِالْقِيَامِ هُوَ مُجَرَّدَ الْإِتْيَانِ بِصُورَتِهَا وَإِنْ كَانَتْ خَالِيَةً مِنَ الْحُضُورِ ، وَوُجُودِ سِرِّ الْإِخْلَاصِ فِيهَا ، فَقَدْ تَكُونُ صُورَةً بِلَا مَعْنًى فَهِيَ إِذَنْ سَاقِطَةٌ غَيْرُ قَائِمَةٍ . قَالَ فِي الْحِكَمِ الْأَعْمَالُ صُوَرٌ قَائِمَةٌ ، وَأَرْوَاحُهَا وُجُودُ سِرِّ الْإِخْلَاصِ فِيهَا ، فَهَذِهِ هِيَ إِقَامَتُهَا ، « **وَآتُوا الزَّكَاةَ** » يَا أَهْلَ الْأَمْوَالِ فِيمَا وَجَبَتْ فِيهِ ، فَإِنَّهَا مِنْ أَرْكَانِ الدِّينِ « **وَارْكَعُوا** » وَاسْجُدُوا وَكُونُوا « **مَعَ الرَّاكِعِينَ** » أَيْ مَعَ جُمْلَةِ الْمُسْلِمِينَ ، زِيَادَةً عَلَى إِقَامِ الصَّلَاةِ فِي التَّمَامِ ، وَلَا يَخْفَى مَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ مِنَ الْخِطَابِ الشَّامِلِ لِكُلِّ مُتَظَاهِرٍ بِالْخَيْرِ مُتَكَاسِلٍ عَنْ فِعْلِهِ ، لَا يَأْتِي بِالصَّلَاةِ عَلَى وَجْهِهَا ، وَإِنْ أَتَى بِهَا لَا فِي أَوْقَاتِهَا ، وَإِنْ كَانَتْ فِي أَوْقَاتِهَا جَاءَتْ بِالْإِنْفِرَادِ غَالِبًا ، وَقَدْ عَمَّتْ

هَذِهِ البَلِيَّةُ فِي أَكْثَرِ المُعَلِّمِينَ ، يَأْمُرُونَ بِالخَيْرِ وَلَا يَأْتَمِرُونَ ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ وَلَا يَنْتَهُونَ ، فَلَاجَرَمَ يَتَنَاوَلُهُمْ قَوْلُهُ تَعَالَى « أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ » أَيْ بِفِعْلِ الخَيْرِ مُطْلَقًا « وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ » لَا تَأْمُرُونَهَا بِمِثْلِ ذَلِكَ « وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الكِتَابَ » وَتَعْرِفُونَ مَا فِيهِ مِنَ الأَحْكَامِ أَلَيْسَ هَذَا مِنَ النِّفَاقِ وَالخِذْلَانِ البَيِّنِ « أَفَلَا تَعْقِلُونَ » ، أَيْ أَلَيْسَ لَكُمْ عُقُولٌ تُمَيِّزُونَ بِهَا وَبَصَائِرُ تَعْتَمِدُونَ عَلَيْهَا ، حَتَّى بَلَغَتْ بِكُمْ شَقْوَتُكُمْ إِلَى هَذِهِ الغَايَةِ ، تَأْمُرُونَ وَلَا تَأْتَمِرُونَ ، ثُمَّ إِنْ أَرَدْتُمُ الخَلَاصَ فَاتَّقُوا اللَّهَ « وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ » عَلَى قَوْلِ الحَقِّ بِأَنْ لَا تَكْتُمُوهُ مَهْمَا عَرَفْتُمُوهُ « وَالصَّلَاةِ » إِنَّمَا تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالمُنْكَرِ « وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ » أَيْ ثَقِيلَةٌ عَلَى عُمُومِ النَّاسِ « إِلَّا عَلَى الخَاشِعِينَ » فَإِنَّهَا قُرَّةُ أَعْيُنِهِمْ . قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : « وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ » « الَّذِينَ يَظُنُّونَ » فِي صَلَاتِهِمْ « أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ » بِمَا اسْتَوْلَتْ عَلَيْهِمْ مِنَ الهَيْبَةِ فِي حَالِ وُقُوفِهِمْ مَعَ اللَّهِ ، وَإِلَيْهِمُ الإِشَارَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : « وَالَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ » « وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ

رَاجِعُونَ » بَعْدَ الْمَمَاتِ، فَيَجْزِيهِمْ بِمَا فَعَلُوهُ، وَلِهَذَا خَفَّتْ عَنْهُمُ الصَّلَاةُ فِي جَانِبِ مَا أَعَدَّهُ اللَّهُ لِلْمُصَلِّينَ، وَكَانَتْ ثَقِيلَةً عَلَى مَنْ لَمْ يَرْجُ ثَوَابًا، وَلَا يَخْشَى عِقَابًا.

الإِسْتِنْبَاطُ

يُسْتَخْرَجُ مِنْ قَوْلِهِ: (يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ) إِلَى قَوْلِهِ (رَاجِعُونَ) أَرْبَعَةَ عَشَرَ حُكْمًا:

الأَوَّلُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ الْخِطَابَ إِذَا كَانَ مِنَ الْإِنْسَانِ فَالْأَحْسَنُ أَنْ يَخُصَّ فِيهِ بِالذِّكْرِ مَنْ يَسْتَحِقُّ الذِّكْرَ، مِنْ قَوْلِهِ: (يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ) حَيْثُ خَصَّصَهُمْ تَعَالَى بِالذِّكْرِ فِي صَدْرِ الْكِتَابِ.

الثَّانِي: عَلِمْنَا مِنْ حُسْنِ أُسْلُوبِ الدَّعْوَةِ أَنْ تُذَكِّرَ الْمُخَاطَبَ بِمَا سَبَقَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ مِنَ الْوِدَادِ، مِنْ قَوْلِهِ: (أُذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ).

الثَّالِثُ: عَلِمْنَا بِأَنَّهُ يَجِبُ عَلَى مَنْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ بِنِعْمَةٍ أَنْ لَا يَجْحَدَهَا، مِنْ قَوْلِهِ أَيْضًا: (أُذْكُرُوا نِعْمَتِيَ)

الرَّابِعُ : عَلِمْنَا بِأَنَّهُ مَنْ أَرَادَ أَنْ يُوفِيَ اللَّهُ مَعَهُ بِعَهْدِهِ يُوفِي هُوَ بِعَهْدِهِ مَعَ اللَّهِ، مِنْ قَوْلِهِ: أَوفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ.

الخَامِسُ : عَلِمْنَا بِأَنَّ الْوَعْظَ أَحْسَنُهُ أَنْ يَكُونَ مُتَرَكِّبًا مِنْ تَرْغِيبٍ وَتَرْهِيبٍ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾، بَعْدَ مَا ذَكَرَ مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ.

السَّادِسُ : عَلِمْنَا بِأَنَّ الْقُرْآنَ جَاءَ مُصَدِّقًا لِلتَّوْرَاةِ طِبْقَ خَبَرِهَا، مِنْ قَوْلِهِ: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾.

السَّابِعُ : عَلِمْنَا كَيْفَمَا كَانَ عَلَى أَنْ يَتَحَاشَا بِهِ الْإِنْسَانُ عَنْ حُكْمٍ مِنْ أَحْكَامِ اللَّهِ، فَهُوَ قَلِيلٌ وَفَاعِلُهُ مَمْقُوتٌ، مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

الثَّامِنُ : عَلِمْنَا بِأَنَّ التَّدْلِيسَ فِي دِينِ اللَّهِ مُمْتَنِعٌ، مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾.

التَّاسِعُ : عَلِمْنَا بِأَنَّ كِتْمَانَ الْحَقِّ مَعَ الْعِلْمِ بِهِ أَنَّهُ حَقٌّ مُحَرَّمٌ، مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

العَاشِرُ : عَلِمْنَا بِمَطْلُوبِيَّةِ الْإِتْيَانِ بِالصَّلَاةِ جَمَاعَةً، مِنْ قَوْلِهِ: ﴿ارْكَعُوا

مَعَ الرَّاكِعِينَ) وَإِلَّا لَاكْتَفَى عَنْ ذِكْرِ هَذِهِ الْجُمْلَةِ بِمَا سَبَقَ مِنْ قَوْلِهِ: (وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ).

الْحَادِي عَشَرَ: عَلِمْنَا بِشَنَاعَةِ مَنْ يَأْمُرُ النَّاسَ وَلَا يَأْتَمِرُ، مِنْ قَوْلِهِ: (أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ).

الثَّانِي عَشَرَ: عَلِمْنَا بِأَنَّ الصَّبْرَ وَالصَّلَاةَ مُعِينَانِ عَلَى الْقِيَامِ بِحُدُودِ اللَّهِ مِنْ قَوْلِهِ: (وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ).

الثَّالِثُ عَشَرَ: عَلِمْنَا بِأَنَّ الصَّلَاةَ ثَقِيلَةٌ عَلَى الْعُمُومِ، بِقَدْرِ مَا خَفَّتْ عَلَى الْخُصُوصِ، مِنْ قَوْلِهِ: (وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ).

الرَّابِعُ عَشَرَ: عَلِمْنَا بِأَنَّ الْخَاشِعِينَ فِي صَلَاتِهِمْ هُمُ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ قَادِمُونَ عَلَى اللَّهِ فِيهَا، وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، وَهَذَا الْمُرَادُ بِالظَّنِّ، وَأَمَّا لَوْ رَجَعَ إِلَى الْآخِرَةِ لَمَا صَحَّ إِيمَانًا.

الإِشَارَةُ

فِي تَوَجُّهِ الْخِطَابِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ يَتَنَاوَلُ كُلَّ نَفْسٍ أَمَّارَةٍ، وَقَدْ يَشْمَلُ اللَّوَّامَةَ أَحْيَانًا، وَوَجْهُ الْجَمْعِ بَيْنَ الصِّنْفَيْنِ نَقْضُ الْعَهْدِ فِي

كُلٍّ مِنْهُمَا وَكُفْرَانِ النِّعَمِ وَخبثُ الطَّوِيَّةِ ، وَبِهَذِهِ الْمُنَاسَبَةِ أَرَادَ تَعَالَى أَنْ يُنَبِّهَ النُّفُوسَ الْمُدْبِرَةَ ، وَيَسْتَلْفِتَهَا لِبَابِهِ ، فَكَأَنَّهُ يَقُولُ يَا مَعَاشِرَ النُّفُوسِ أُذْكُرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ، بِالْإِضَافَةِ لِنُفُوسِ الْبَهَائِمِ وَالْجَمَادَاتِ ، وَأَوْفُوا بِعَهْدِيَ الَّذِي عَاهَدْتُمُونِي فِي عَالَمِ الْأَرْوَاحِ ، إِذْ قُلْتُمْ بَلَى أُوفِ بِعَهْدِكُمْ فِي عَالَمِ الْأَشْبَاحِ بِأَنْ نَكُونَ مِنْكُمْ قَرِيبٌ ، وَلَكُمْ مُجِيبٌ ، وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ، وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مِنَ الْمَعَارِفِ الْغَيْبِيَّةِ وَالْأَسْرَارِ الْقُدْسِيَّةِ عَلَى عَبْدِنَا ، وَهُوَ الْقَلْبُ الْخَالِصُ لِلَّهِ ، الْفَارِغُ مِمَّا سِوَاهُ ، الْمُشَارُ لَهُ فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ : لَا يَسَعُنِي أَرْضِي وَلَا سَمَائِي وَوَسِعَنِي قَلْبُ عَبْدِيَ الْمُؤْمِنِ ، فَالْإِنْسَانُ بِقَلْبِهِ لَا بِجِسْمِهِ ، وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ ، لِأَنَّكُمْ عَلَى عِلْمٍ مِنْ خَصَائِصِهِ ، وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي الدَّالَّةِ عَلَى مَعْرِفَتِي ، أَيْ تَسْتَبْدِلُونَهَا بِأَقَلِّ الثَّمَنِ ، فَإِنَّ كُلَّ مَا سِوَى اللَّهِ بِالْإِضَافَةِ إِلَيْهِ قَلِيلٌ ، دُنْيَاوِيٌّ أَوْ آخِرَاوِيٌّ ، وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ الثَّابِتَ الَّذِي هُوَ اللَّهُ بِالْبَاطِلِ الزَّائِلِ الَّذِي هُوَ الْخَلْقُ ، فَإِنْ يَقَعْ نَظَرُكُمْ عَلَى الْخَلْقِ قَبْلَ وُقُوعِهِ عَلَى الْحَقِّ ، وَهَذَا هُوَ اللَّبْسُ وَكِتْمَانُ الْحَقِّ بَعْدَ

مَعْرِفَتِكُمْ إِيَّاهُ ، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنْ لَيْسَ فِي الْوُجُودِ سِوَاهُ . وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ عَلَى إِظْهَارِ الْحَقِّ ، وَلَا تَأْخُذْكُمْ فِي اللَّهِ لَوْمَةُ لَائِمٍ ، وَاسْتَعِينُوا بِالصَّلَاةِ لِأَنَّهَا وَصْلَةٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ، وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ ، أَيْ ثَقِيلَةٌ عَلَى كُلِّ مَحْجُوبٍ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ الْعَارِفِينَ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ ، وَفِي مُصْحَفِ ابْنِ مَسْعُودٍ يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ عَلَى نَعْتِ الْمُشَاهَدَةِ ، وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ أَيْ فِي صَلَاتِهِمْ رَاجِعُونَ

لِسَانُ الرُّوحِ

فِي قَوْلِهِ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ يَقُولُ أَنَّ الْحَقَّ الَّذِي هُوَ الْخَالِقُ لَا يَلْتَبِسُ بِالْبَاطِلِ ، إِنَّمَا يَلْتَبِسُ بِالْحَقِّ الْمَخْلُوقِ وَهُوَ أَيْضًا بَاطِلٌ ، فَلْيَحْذَرْ أَنْ يَكْتُمُوا الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ

التَّفْسِيرُ

كُلُّ مَنْ يَتَأَمَّلُ الْخِطَابَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ فِي صَدْرِ الْكِتَابِ بِصِفَاتِ الْمَدْحِ وَأَنْوَاعِ الثَّنَاءِ يَعْلَمُ وَيَسْتَفِيدُ كَيْفِيَّةَ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ وَالدَّلَالَةَ عَلَيْهِ أَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِهَا ، وَهَذَا كُلُّهُ مِنْ نَتَائِجِ قَوْلِهِ تَعَالَى : « أُدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ » . وَأَيُّ أُسْلُوبٍ أَحْسَنُ

وَتَلَطُّفٍ أَمْكَنَ فِي الْقُلُوبِ مِنْ هَذَا الْأُسْلُوبِ، فَإِنَّهُ تَعَالَى خَاطَبَ فُرُوعَ الْإِسْرَائِيلِيِّينَ بِوَصْفِ أُصُولِهَا احْتِرَامًا لِجَنَابِهِمْ وَتَوْفِيرًا لِكِتَابِهِمْ وَتَغْلِيبًا لِجَانِبِ الصُّلَحَاءِ عَلَى جَانِبِ الظُّلَمَاءِ، وَتَعْلِيمًا لَنَا كَيْفِيَّةَ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ، فَطَفِقَ الْقُرْآنُ يَسْرُدُ مَا تَوَاتَرَ عَلَيْهِمْ مِنَ النِّعَمِ، تَارِكًا مَا حَلَّ بِهِمْ مِنَ النِّقَمِ بِنَقْضِهِمُ الْعُهُودَ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ الْحَقِّ، وَغَيْرِ ذَلِكَ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ. قَالَ تَعَالَى: «**يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا**» أَيِ انْتَبِهُوا وَتَنَبَّهُوا وَتَذَكَّرُوا «**نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ**» الْآنَ بِإِدْرَاكِكُمْ نُبُوَّةَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا تَقَدَّمَ، وَقَبْلَ الْآنَ بِمَا سَيَأْتِي «**وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ**» حَيْثُ جَعَلْتُ فِيكُمْ وَمِنْكُمُ النُّبُوَّةَ وَالرِّسَالَةَ وَالْمُلْكَ غَالِبًا فَلَنْ تَجِدْ طَائِفَةً انْحَصَرَ فِيهَا مَا انْحَصَرَ فِي الْإِسْرَائِيلِيِّينَ، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ هَذِهِ الْأَفْضَلِيَّةِ دُخُولُ جِنْسِ الْعَرَبِ فِي الْمَفْضُولِيَّةِ، كَمَا يُوهِمُهُ ظَاهِرُ اللَّفْظِ، وَغَايَةُ مَا فِيهِ أَنَّهُ جَاءَ عَلَى حَدِّ قَوْلِهِ تَعَالَى: «وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ» فَالْأَفْضَلِيَّةُ فِي الرِّزْقِ لَا تَسْتَلْزِمُ الْأَفْضَلِيَّةَ فِي الْعِلْمِ أَوْ فِي النَّسَبِ مَثَلًا، فَأَفْضَلِيَّةُ

الإسرائيليين كانت من جهة حصر النبوة فيهم غالبًا، وأفضلية العرب جاءت من حيث وقوع الخاتمة منهم، والعبرة بالخواتم. وبعدما استعطفهم واستمالهم بأنواع الملاطفة والترغيب هددهم الآن بشيء من الترهيب فقال: «**واتقوا يومًا**» يجمع له الناس، ومن نعمته أنه «**لا تجزى**» فيه «**نفس**» كيفما كانت في علو المقام «**عن نفس**» بأن تخفف عنها من العذاب «**شيئًا**» مما حل بها «**ولا يقبل منها شفاعة**» والمعنى أن الشفاعة معدومة فيمن كفر ومات على كفره، وأما المؤمن لا يحدم حظه منها «**ولا يؤخذ**» أي يقبل «**منها عدل**» أي بدل أو فداء، فكل امرئ بما كسبت يداه رهين «**ولا هم ينصرون**» أي يمنعون مما حل بهم بنصرة ناصر لهم كيفما كان.

الإستنباط

يستخرج من قوله: «يا بني إسرائيل» إلى قوله: «ينصرون» ثلاثة أحكام:

الأول: علمنا بأن الداعي إلى الله يستحسن منه أن لا يباشر

الْمَدْعُوِّينَ إِلاَّ بِأَحَبِّ الأَلْقَابِ إِلَيْهِمْ، وَأَنْ لا يَذْكُرَهُمْ أَوَّلاً إِلاَّ بِمَا يَسْتَحْسِنُونَهُ، مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَإِنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ فِي حَقِّ بَنِي إِسْرَائِيلَ.

الثَّانِي: عَلِمْنَا أَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لا تَجْزِي فِيهِ نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ كَيْفَمَا كَانَتْ.

الثَّالِثُ: عَلِمْنَا بِأَنَّهُ لا تُقْبَلُ شَفَاعَةُ الشُّفَعَاءِ فِيمَنْ كَفَرَ وَمَاتَ عَلَى كُفْرِهِ، مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾.

الإِشَارَةُ

إِنَّ النُّفُوسَ وَإِنْ كَانَتْ خَبِيثَةً تَتَعَيَّنُ اسْتِمَالَتُهَا بِكُلِّ مُلاطَفَةٍ، فَهِيَ أُخْتُ الإِسْرَائِيلِيَّةِ، تَرَى لِنَفْسِهَا أَفْضَلِيَّةً عَلَى الْعَالَمِينَ، فَمَنْ أَرَادَ اسْتِرْشَادَهَا يَذْكُرُهَا بِأَحَبِّ الأَلْقَابِ إِلَيْهَا، وَإِلَيْهَا الإِشَارَةُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ وَلَوْ لَمْ يَطْرُقْ سَمْعَ الإِسْرَائِيلِيِّينَ فِي الْقُرْآنِ أَنَّهُمْ فُضِّلُوا عَلَى الْعَالَمِينَ لَمَا الْتَفَتُوا إِلَيْهِ بِالْمَرَّةِ، وَالَّذِي

يُشْعِرُنَا بِأَنَّ الْخِطَابَ يَشْمَلُ كُلَّ نَفْسٍ هُوَ قَوْلُهُ: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ﴾، كَيْفَمَا كَانَتْ، مُطْمَئِنَّةً أَوْ مَرْضِيَّةً عَنْ نَفْسٍ أَمَّارَةٍ أَوْ لَوَّامَةٍ شَيْئًا فَكُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا.

لِسَانُ الرُّوحِ

فِي قَوْلِهِ: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ يَقُولُ لَا تَجْزِي فِيهِ النَّفْسُ مَهْمَا كَانَتْ نَفْسًا إِلَّا إِذَا انْعَكَسَتْ رُوحًا، فَقَدْ تَكُونُ لَهَا مَكَانَةٌ فِي الْقُرْبِ، قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي.

التَّفْسِيرُ

ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ مَا اسْتَطْرَدَ مِنْ أَنْوَاعِ الشَّرِّ بِبَابِ مَا هُوَ اللَّائِقُ بِمَقَامِ الِاسْتِعْطَافِ أَعْقَبَهُ بِسَرْدِ مَا أَجْمَلَهُ مِنَ النِّعَمِ فِي قَوْلِهِ: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾، وَلَا يَخْفَى مَا فِي تَفْصِيلِهَا مِنَ الدَّلَالَةِ عَلَى صِدْقِ الْقُرْآنِ وَنُبُوءَتِهِ فَإِنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُمِّيٌّ، نَشَأَ بَيْنَ الْأُمِّيِّينَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ، وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ يَهُودِ الْمَدِينَةِ مِنَ الْمَسَافَةِ مَا لَا يَخْفَى عَلَى الْعُمُومِ، وَلَمَّا حَلَّ بِهِمْ أَخَذَ فِي تَعْدِيدِ النِّعَمِ الَّتِي أَنْعَمَ اللَّهُ بِهَا

عَلَى آبَائِهِمْ وَلَوَازِمِهَا وَلَا مَنْ يَقُولُ أَنَّهَا عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ، لِأَنَّ الْكِتَابَ أَعْدَلُ أَشَاهِدٍ . قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . وَزِيَادَةً عَلَى مَا فِي تَفْصِيلِ النِّعَمِ مِنَ الْمُعْجِزَاتِ الْبَاهِرَةِ مَا نَسْتَفِيدُهُ مِنَ الْحِكَمِ الَّتِي يَعْجِزُ عَنْهَا الْقَلَمُ ، فَلْيَتَدَبَّرْ قَوْلَهُ تَعَالَى مُخَاطِبًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ عَطْفًا عَلَى مَا تَقَدَّمَ :

«**وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ**» ، وَفِرْعَوْنُ هَذَا لَقَبٌ لِمَنْ مَلَكَ الْعَمَالِقَةَ بِمِصْرَ ، كَلَقَبِ كِسْرَى لِمَنْ مَلَكَ الْفُرْسَ ، وَلَقَبِ قَيْصَرَ لِمَنْ مَلَكَ الرُّومَ ، وَخَاقَانَ لِمَنْ مَلَكَ التُّرْكَ . وَفِرْعَوْنُ هَذَا كَانَ اسْمُهُ مُصْعَبَ بْنَ رَيَّانَ مِنْ بَقَايَا عَادٍ ، وَقِيلَ كَانَ عَطَّارًا ، فَتَوَصَّلَ لَهَا بِشِدَّةِ حَذَاقَتِهِ وَدَهَائِهِ وَسِيَاسَتِهِ الْمَعْكُوسَةِ آخِرًا ، حَيْثُ أَرَادَ أَنْ يُحَارِبَ أَمْرًا سَمَاوِيًّا وَحَقًّا جَلِيًّا ، وَمَنْ سَلَّ سَيْفَ الْبَغْيِ أَغْمَدَهُ اللَّهُ فِي رَقَبَتِهِ قِيلَ أَنَّهُ قَتَلَ مِنْ أَطْفَالِ رَعِيَّتِهِ فِي سَنَةٍ وَاحِدَةٍ نَحْوَ التِّسْعَةِ مِائَةٍ وَتِسْعِينَ أَلْفًا حَذَرًا أَنْ يَعِيشَ فِي تِلْكَ السَّنَةِ مَنْ يَكُونُ سَبَبًا فِي خَرَابِ مُلْكِهِ عَلَى مَا رَآهُ فِي الْمَنَامِ ، وَأَخْبَرَتْ بِهِ الْكَهَنَةُ ، وَلَنْ يَنْفَعَ حَذَرٌ مِنْ قَدَرٍ وَلَمَّا أَرَادَ اللَّهُ خَرَابَ مُلْكِهِ سَلَّطَهُ عَلَى الضُّعَفَاءِ مِنْ خَلْقِهِ ، فَأَرَادَ

تَعَالَى أَنْ يُذَكِّرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ اسْتِنْقَاذَهُ لَهُمْ مِنْ عُتُوِّ ذَلِكَ الْبَاغِي، مُنْزِلًا الْأَبْنَاءَ مَنْزِلَةَ الْآبَاءِ، فَكَأَنَّهُ يَقُولُ تَذَكَّرُوا مَا وَقَعَ لَكُمْ مَعَ آلِ فِرْعَوْنَ لَمَّا كَانُوا «**يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ**» أَيْ يُذِيقُونَكُمْ أَشَدَّ الْعَذَابِ عَلَى اخْتِلَافِ أَنْوَاعِهِ، وَمِنْ جُمْلَةِ ذَلِكَ «**يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ**» أَيِ الْأَطْفَالَ الصِّغَارَ «**وَيَسْتَحْيُونَ**» أَيْ يَتْرُكُونَ «**نِسَاءَكُمْ**» أَيِ الْبَنَاتِ مِنْ غَيْرِ ذَبْحٍ، لِأَنَّهُمْ لَا يَخْشَوْنَ ضَرَرَهُنَّ فِيمَا يَعُودُ عَلَى الْمُلْكِ بِالدَّمَارِ «**وَفِي ذَٰلِكُمْ**» الْقَتْلِ وَالْعَذَابِ «**بَلَاءٌ**» وَامْتِحَانٌ «**مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ**» وَمِنْ وُجُوهِ عَظَمَتِهِ أَنْ كَانَ الْقَتْلُ وَالْعَذَابُ مُسْتَنَدًا لِآلِ فِرْعَوْنَ مَفْوضًا لِجُنُودِهِ فَيَدْخُلُ فِيهِ مِنَ الْفَضَائِعِ مَا اللَّهُ أَعْلَمُ بِهِ، وَمَعَ هَذِهِ الْبَلِيَّةِ وَالْمَذَلَّةِ الَّتِي حَلَّتْ بِكُمْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْهَا، وَجَعَلْنَاكُمْ مُلُوكًا وَأُمَرَاءَ، وَمَكَّنَّا لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لِأَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ أَوَلَيْسَتْ هَذِهِ نِعْمَةٌ مِنَ اللَّهِ عَلَى آبَائِكُمْ وَإِنِ احْتَقَرْتُمُوهَا تَذَكَّرُوا «**وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ**» أَيْ فَلَقْنَاهُ وَفَرَّقْنَاهُ بَيْنَكُمْ وَلِأَجْلِكُمْ اثْنَيْ عَشْرَةَ طَرِيقَةً يَابِسَةً مُمَهَّدَةً لِلْمَسِيرِ عَلَى عَدَدِ الْأَسْبَاطِ

« **فَأَنْجَيْنَاكُمْ** » مِنْ فِرْعَوْنَ وَجُنُودِهِ ، وَلَمَّا كَانُوا مِنْ خَلْفِكُمْ وَمِنَ الْبَحْرِ ، فَسَلَكْتُمُوهُ سَالِمِينَ « **وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ** » نَكَالًا مِنْ رَبِّكُمْ ، وَاحْتِرَامًا لِجَنَابِكُمْ ، وَاسْتِجَابَةً لِدُعَائِكُمْ « **وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ** » فِي غَرَقِهِ وَجُنُودِهِ ، وَفِيمَا وَقَعَ مِنْ آيَةِ اللَّهِ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ ، وَلَكِنَّهُ مِنْ جِبِلَّتِكُمْ كُفْرَانُ النِّعَمِ ، فَلَا تَزْهُوا أَنْفُسَكُمْ ، فَالتَّارِيخُ شَاهِدٌ ، وَإِذَا نَسِيتُمْ فَتَذَكَّرُوا « **وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى** » بْنَ عِمْرَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ « **أَرْبَعِينَ لَيْلَةً** » وَذَلِكَ بَعْدَ إِهْلَاكِ فِرْعَوْنَ ، وَكَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَعَدَ قَوْمَهُ لِإِذْنِ أَهْلَكَ اللَّهُ فِرْعَوْنَ لَنَأْتِيَنَّكُمْ بِكِتَابٍ مِنَ اللَّهِ ، فِيهِ هُدًى وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ ، وَلَمَّا سَأَلَهُ مِنَ اللَّهِ ضَرَبَ لَهُ مِيقَاتًا أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ، وَيُسْتَفَادُ مِنْ هَذَا أَنَّ الِانْقِطَاعَ إِلَى اللَّهِ يُعْتَبَرُ بِاللَّيَالِي لَا بِالْأَيَّامِ ، لِأَنَّهَا مَحَلُّ الْهُدُوءِ وَالسُّكُونِ الله تعالى إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا فِي الثُّلُثِ الْآخِرِ مِنَ اللَّيْلِ ، فَهِيَ غَنِيمَةُ الْمُنْقَطِعِينَ إِلَى اللَّهِ ، ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمَّا اسْتَأْنَسُوا بِالْمَدْحِ أَوَّلًا لَزِمَهُ أَنْ يَلْحَقَهُمْ مِنَ الذَّمِّ عَلَى لِسَانِ الْقُرْآنِ مَا يُنْسِيهِمْ مَا سَلَفَ حَتَّى

إِذَا قَالُوا نَحْنُ مَا عَبَدْنَا عِجْلًا وَلَا نَقَضْنَا عَهْدًا وَلَا قَتَلْنَا نَبِيًّا، تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ، فَيُقَالُ لَهُمْ وَلَا أَنْتُمْ أَيْضًا مِمَّنْ فَلَقَ بِهِمُ الْبَحْرَ، وَلَا مِمَّنْ نَزَلَ عَلَيْهِمُ الْمَنُّ وَالسَّلْوَى، وَلَا مِمَّنْ فُضِّلُوا عَلَى الْعَالَمِينَ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَاتَّبِعُوا النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي تَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَكُمْ فِي التَّوْرَاةِ، لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ، وَهَذَا أَوَانُ التَّوْبِيخِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ «**ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ**» فَعَبَدْتُمُوهُ «**مِنْ بَعْدِهِ**» أَيْ مِنْ بَعْدِ ذَهَابِ مُوسَى إِلَى الطُّورِ لِيَأْتِيَكُمْ بِالتَّوْرَاةِ «**وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ**» فِي اتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ إِلَهًا لَا مُحَالَةَ «**ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ**» مَا ارْتَكَبْتُمُوهُ مِنَ الشِّرْكِ الْبَيِّنِ، أَوَلَيْسَ هَذِهِ مِنَّةً كَبِيرَةً، وَلَوْلَا عَفْوُنَا عَنْكُمْ وَرَحْمَتُنَا بِكُمْ بِسَبَبِ رُجُوعِ مُوسَى إِلَيْكُمْ لَازِلْتُمْ عَاكِفِينَ عَلَى عِبَادَةِ الْعِجْلِ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا، وَمَعَ جِنَايَتِكُمْ قَبْلَنَاكُمْ «**مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**»، وَلَكِنْ قَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ، إِنَّمَا يَذْكُرُ أُولُو الْأَلْبَابِ، وَاذْكُرُوا «**وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ**» وَهُوَ التَّوْرَاةُ «**وَالْفُرْقَانَ**» وَهُوَ النُّورُ الْمُفَرِّقُ بِهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَمَنْ لَيْسَ لَهُ نُورٌ فِي كِتَابِ اللَّهِ لَمْ يَزْدَدْ مِنَ اللَّهِ إِلَّا بُعْدًا بِسَبَبِهِ، وَهُوَ

المُشَارُ لَهُ أَوَّلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا ، فَبَنُو إِسْرَائِيلَ وَرِثُوا مِنْ مُوسَى التَّوْرَاةَ ، وَلَمْ يَرِثُوا الْفُرْقَانَ الَّذِي هُوَ النُّورُ ، وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ، وَنَعْنِي بِالنُّورِ الْمَعْرِفَةَ الْخَاصَّةَ بِأَسْرَارِ الْكِتَابِ وَلَا تَكُونُ إِلَّا بِمُتَابَعَةِ الرَّسُولِ وَصِدْقِ الطَّوِيَّةِ ، وَآتَيْنَاهُ ذَلِكَ «**لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**» لِمَا فِي الْكِتَابِ ، وَلَكِنْ غَلَبَتْ عَلَيْكُمْ شَقْوَتُكُمْ «**وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ**» مِنْ بَعْدِ مَا بَلَغَهُ عَنْهُمْ مِنْ عِبَادَةِ الْعِجْلِ ، وَمَجِيئِهِ مِنَ الْمِيقَاتِ «**يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ**» وَهَلَكْتُمُوهَا «**بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ**» إِلَهًا يُعْبَدُ «**فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ**» أَيْ فَارْجِعُوا إِلَى مَصْوِّرِكُمْ بِالْخُضُوعِ وَالْإِنْكِسَارِ وَالنَّدَامَةِ عَلَى مَا فَعَلْتُمُوهُ ، وَإِذَا أَرَدْتُمُ الْأَسْبَابَ الدَّاعِيَةَ لِقَبُولِ التَّوْبَةِ ، «**فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ**» الْقَتْلُ «**خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ**» إِنْ فَعَلْتُمُوهُ «**فَتَابَ عَلَيْكُمْ**» عَلَى ذَلِكَ الشَّرْطِ أَيْ إِنْ قَتَلْتُمْ أَنْفُسَكُمْ «**إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ**» أَيْ كَثِيرُ قَبُولِ التَّوْبَةِ ، وَإِنْ تَكَرَّرَ نَقْضُهَا كَمَا تَكَرَّرَ مِنَ الْإِسْرَائِيلِيِّينَ ، وَيَفْعَلُ ذَلِكَ لِأَنَّهُ «**الرَّحِيمُ**» بِعِبَادِهِ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّ الْقَتْلَ هَذَا هُوَ عِبَارَةٌ عَنْ قَتْلِ النَّفْسِ

بِالْمُجَاهَدَةِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَالسَّعْيِ فِي إِبْطَالِ شَهَوَاتِهَا بِالْمَرَّةِ وَهَذِهِ الْمَوْتُ الْمُعْتَبَرَةُ فِي قَبُولِ التَّوْبَةِ، الْمُشَارُ لَهَا فِي الْحَدِيثِ بِقَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مُوتُوا قَبْلَ أَنْ تَمُوتُوا»، وَقِيلَ إِنَّ الْمُرَادَ بِالْقَتْلِ هُوَ قَتْلٌ بِالْفِعْلِ، وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ جَلَّ ذِكْرُهُ أَمَرَ مَنْ لَمْ يَعْبُدِ الْعِجْلَ أَنْ يَقْتُلَ مَنْ عَبَدَهُ، فَأَشْفَقَ الْقَرِيبُ مِنْ قَتْلِ قَرِيبِهِ، فَأَرْسَلَ اللَّهُ سَحَابَةً سَوْدَاءَ حَتَّى لَا يَرَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا، فَمَاتَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ نَحْوُ السَّبْعِينَ أَلْفًا، وَلَمَّا رَأَى مُوسَى الْقَتْلَ مُسْتَرْسِلًا دَعَا رَبَّهُ أَنْ يَكْشِفَ فِيمَا حَلَّ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ، فَانْقَشَعَتِ السَّحَابَةُ وَانْتَهَى الْقِتَالُ.

الِاسْتِنْبَاطُ

يُسْتَخْرَجُ مِنْ قَوْلِهِ (وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ) إِلَى قَوْلِهِ (رَحِيمٌ) أَرْبَعَةَ عَشَرَ حُكْمًا:

الْأَوَّلُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ فِرْعَوْنَ بَلَغَ مِنْ تَسَلُّطِهِ عَلَى الْإِسْرَائِيلِيِّينَ إِلَى أَنْ صَارَ يَذْبَحُ الْأَبْنَاءَ الصِّغَارَ، وَلَا مَنْ يُوَاجِهُهُ بِصِفَةِ الْإِنْكَارِ.

الثَّانِي: عَلِمْنَا بِأَنَّهُ كَانَ يَفْعَلُ ذَلِكَ لِغَرَضٍ، وَإِلَّا لَمَا تَرَكَ الْبَنَاتِ

مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَكُمْ﴾.

الثَّالِثُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ فِعْلَهُ ذَلِكَ كَانَ مِمَّا تَشْمَئِزُّ مِنْهُ النُّفُوسُ، فَهُوَ أَبْعَدُ عَنِ الإِنْسَانِيَّةِ، مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾.

الرَّابِعُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ الضَّعِيفَ لَا بُدَّ وَأَنَّ اللَّهَ يَنْتَصِرُ مِنْ أَجْلِهِ، مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ﴾.

الْخَامِسُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ الظَّالِمَ لَا بُدَّ وَأَنَّ اللَّهَ يَنْتَقِمُ مِنْهُ كَيْفَمَا كَانَ، وَيَشْفِي صُدُورَ الْمَظْلُومِينَ، مِنْ قَوْلِهِ: ﴿فَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾.

السَّادِسُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ الِانْقِطَاعَ إِلَى اللَّهِ وَالِاعْتِكَافَ مِنْ أَجْلِهِ فِي سُنَنِ الْمُرْسَلِينَ، مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾.

السَّابِعُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ اللَّيْلَ أَفْضَلُ مِنَ النَّهَارِ مِنْ جِهَةِ تَفَرُّغِ الْقَلْبِ لِعِبَادَةِ اللَّهِ، مِنِ اعْتِبَارِهِ تَعَالَى الْمِيقَاتَ لِمُوسَى بِاللَّيْلِ.

الثَّامِنُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ الِاعْتِكَافَ الْمَنْذُورَ لَا بُدَّ وَأَنْ تُعْتَبَرَ فِيهِ اللَّيَالِي مِنَ الْقِصَّةِ أَيْضًا.

التَّاسِعُ : عَلِمْنَا بِأَنَّ الْمُرْشِدَ إِذَا أَمَرَ أَحَدَ التِّلَامِذَةِ بِخَلْوَةٍ أَنْ لَا يَزِيدَ عَلَى الْأَرْبَعِينَ لَيْلَةً حَصَلَ أَوْ لَمْ يَحْصُلْ مِنَ الْقِصَّةِ أَيْضًا .

الْعَاشِرُ : عَلِمْنَا بِأَنَّ الْمُرْشِدَ إِذَا لَمْ تَنْجَحْ أَتْبَاعُهُ لَيْسَ ذَلِكَ بِنَقْصٍ فِي حَقِّهِ ، مِنِ اتِّخَاذِ أَتْبَاعِ مُوسَى الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ .

الْحَادِي عَشَرَ : عَلِمْنَا بِأَنَّ الْمُرْتَدَّ أَقْرَبُ مِنْ عَفْوِ اللَّهِ إِنْ رَجَعَ عَنْ غَيِّهِ ، مِنْ قَوْلِهِ : (ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ) .

الثَّانِي عَشَرَ : عَلِمْنَا بِأَنَّ الْفُرْقَانَ لَيْسَ هُوَ مِمَّا يُحْتَمَلُ حِفْظُهُ ، مِنْ ظَاهِرِ الْكِتَابِ ، إِنَّمَا هُوَ عِبَارَةٌ عَنْ شَيْءٍ خُصِّصَ بِهِ النَّبِيُّ وَمَنْ هُوَ عَلَى سَنَاكِلَتِهِ ، وَإِلَّا لَمَا صَحَّ الْعَطْفُ فِي قَوْلِهِ : (وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ) .

الثَّالِثُ عَشَرَ : عَلِمْنَا بِأَنَّ نُزُولَ الْكِتَابِ عَنِ الرَّسُولِ لِهِدَايَةِ قَوْمِهِ ، وَإِلَّا فَهُوَ قَدِ اهْتَدَى بِدُونِهِ ، مِنْ قَوْلِهِ : (لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) .

الرَّابِعُ عَشَرَ : عَلِمْنَا بِأَنَّ التَّوْبَةَ فِي غَيْرِ الْإِسْلَامِ كَانَتْ لَا بُدَّ وَأَنْ تَتَوَقَّفَ عَلَى شَيْءٍ يَشُقُّ فِعْلُهُ عَلَى النَّفْسِ ، مِنْ قَوْلِهِ : (اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ) .

الْإِشَارَةُ : لَا تُعْتَبَرُ مِنَ الْفُرْعُونِيَّةِ إِلَّا الْوَصْفُ الْقَائِمُ بِكُلِّ نَفْسٍ أَمَّارَةٍ

لِأَنَّهَا مَهْمَا تَحَكَّمَتْ عَلَى مَدِينَةِ الْبَدَنِ تَعَبَتْ بِالْجَوَارِحِ أَكْثَرَ مِنْ عَبَثِ فِرْعَوْنَ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ، فَتَذْبَحُ الْقُلُوبَ الْمُعَبَّرَ عَنْهَا بِالْأَبْنَاءِ، وَتَسْتَحْيِي النُّفُوسَ الْمُشَارَ لَهَا بِالنِّسَاءِ، وَتَدَّعِي بِالِاسْتِقْلَالِ فِي الْبَدَنِ وَأَنَّهَا الْفَعَّالَةُ فِيهِ لَا غَيْرَ، وَتَقُولُ لِلْجَوَارِحِ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي، فَمَا عَلَيْكُمْ إِلَّا السَّمْعُ وَالِامْتِثَالُ، وَيَكُونُ الِامْتِنَانُ مِنَ اللَّهِ رَاجِعًا لِكُلِّ نَفْسٍ لَوَّامَةٍ، فَهِيَ النَّاجِيَةُ مِنَ الْوَصْفِ الْقَائِمِ بِالْأَمَّارَةِ مَعَ بَقِيَّةٍ يُخْشَى مِنْ عَوْدِهَا، وَلِهَذَا رَجَعَتْ طَائِفَةٌ مِنْهَا إِلَى عِبَادَةِ الْعَاجِلَةِ، الْمُعَبَّرِ عَنْهَا بِالْعِجْلِ لَمَّا تَوَجَّهَ الْقَلْبُ الْمُعَبَّرُ عَنْهُ بِمُوسَى إِلَى مِيقَاتِ رَبِّهِ وَهِيَ خَطِيئَةٌ تَسْتَوْجِبُ عَلَيْهَا الْمَقْتَ. قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: (حُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ)، وَالِانْكِبَابُ عَلَى الدُّنْيَا مِنْ وَظِيفَةِ النُّفُوسِ اللَّوَّامَةِ، وَلَنْ تَتَحَقَّقَ لَهَا السَّلَامَةُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا بِالْفَنَاءِ وَالْمَوْتِ الْأَبَدِيِّ وَلِهَذَا لَمَّا جَاءَ مُوسَى فَقَالَ إِنْ أَرَدْتُمُ الْخَلَاصَ مِنْ جَمِيعِ النَّقَائِصِ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ، ثُمَّ إِنَّ الْوَصْفَ الْجَامِعَ بَيْنَ الْفِرْعَوْنِيَّةِ وَالنَّفْسِ الْأَمَّارَةِ هُوَ الْخُرُوجُ عَنْ أَمْرِ اللَّهِ، وَدَعْوَةُ

الإسْتِدْلَالِ فِي كُلٍّ مِنْهُمَا، وَعَلَى هَذَا كُلُّ مَنْ يَرَى لِنَفْسِهِ أَدْنَى وُجُودٍ يُمَيِّزُهُ عَنِ الْعَدَمِ فَهُوَ آخِذٌ بِحَظِّهِ مِنَ الْفِرْعَوْنِيَّةِ، وَأَمَّا الْوَصْفُ الْجَامِعُ بَيْنَ الْعِجْلِ وَالْعَاجِلَةِ فَهُوَ الِاسْمُ، وَكَوْنُ الْعِجْلِ مَصُوغًا مِنْ ذَهَبٍ وَفِضَّةٍ، فَكَانَ الْعُكُوفُ عَلَيْهِمَا وَلَيْسَ فِي الدُّنْيَا أَطْيَبُ مِنْهُمَا، فَالْعَاكِفُ عَلَى الدُّنْيَا هُوَ عَاكِفٌ عَلَى الْعِجْلِ، وَالْعَاكِفُ عَلَى الْعِجْلِ هُوَ الْعَاكِفُ عَلَى الدُّنْيَا. وَالْوَصْفُ الْجَامِعُ بَيْنَ الْقَلْبِ وَمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وُجُودُ الِاخْتِصَاصِ بِالْحَقِّ فِي كُلٍّ مِنْهُمَا، لِأَنَّ مُوسَى قَالَ فِيهِ تَعَالَى: (وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي) وَقَالَ فِي الْقَلْبِ (لَا يَسَعُنِي أَرْضِي وَلَا سَمَائِي وَيَسَعُنِي قَلْبُ عَبْدِيَ الْمُؤْمِنِ)، فَمُوسَى أَحْوَجُ إِلَى قَلْبِهِ أَشَدُّ مِنِ احْتِيَاجِ قَلْبِهِ إِلَيْهِ.

لِسَانُ الرُّوحِ

فِي قَوْلِهِ: (وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ) يَقُولُ إِنَّ الْإِغْرَاقَ نَتِيجَةُ الِاسْتِغْرَاقِ، وَالْبَلَلُ أَحْسَنُ مِنْهُ، وَالْعَجَبُ مِمَّنْ خَاضَ الْبَحْرَ وَلَمْ يَبْتَلَّ.

التَّفْسِيرُ: وَلَمَّا أَنْهَى تَعَالَى الْكَلَامَ عَلَى الْجِنَايَةِ الَّتِي ارْتَكَبَهَا بَنُو

إِسْرَائِيلَ مِنْ جِهَةِ عِبَادَةِ الْعِجْلِ شَرَعَ فِي ذِكْرِ جِنَايَةٍ أُخْرَى فَقَالَ: «وَإِذْ قُلْتُمْ» أَيْ تَذَكَّرُوا مَقَالَتَكُمْ عِنْدَ مَا خَرَجْتُمْ تَعْتَذِرُونَ إِلَى اللَّهِ مِنْ عِبَادَةِ الْعِجْلِ «يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً» أَيْ بِالْأَبْصَارِ، وَالْقَائِلُونَ هُمُ السَّبْعُونَ الْمُخْتَارُونَ لِلْمِيقَاتِ «فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ» الَّتِي كَادَتْ أَنْ تَذْهَبَ بِكُمْ إِلَى الْعَدَمِ الْمَحْضِ «وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ» مَا حَلَّ بِكُمْ «ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ» أَيْ أَرْجَعْنَاكُمْ إِلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ، فَدَلَّتِ الْآيَةُ عَلَى مُفَارَقَتِهِمُ الدُّنْيَا، وَقَالَ وَهْبٌ أَنَّهُمْ لَمْ يَمُوتُوا، إِنَّمَا أَخَذَتْهُمْ رَعْدَةٌ وَرَجْفَةٌ لَمَّا عَايَنُوا تِلْكَ الْهَيْبَةَ الْهَائِلَةَ، وَعَلَى هَذَا يَكُونُ إِطْلَاقُ الْمَوْتِ هُنَا مِنْ قَبِيلِ إِطْلَاقِهِ عَلَى النَّوْمِ أَحْيَانًا وَالْبَعْثُ مِنْ ذَلِكَ الْقَبِيلِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ لِنَعْلَمَ وَالَّذِي يُقَوِّي حُجَّةَ مَا ذَكَرْنَاهُ هُوَ قَوْلُهُ: «وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ» إِنَّمَا لَوْ حَصَلَتْ لَهُمْ مُفَارَقَةُ الْأَبْدَانِ لَمْ يَتَمَكَّنْ لَهُمُ النَّظَرُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - ثُمَّ أَقُولُ لَا جِنَايَةَ فِي سُؤَالِ الرُّؤْيَةِ لِأَنَّ مُوسَى كَانَ سَأَلَهَا مِنْ قَبْلُ، إِنَّمَا الْجِنَايَةُ فِي تَعْلِيقِ الْإِيمَانِ عَلَيْهَا فِي قَوْلِهِمْ: لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً، وَهَذَا أَبْلَغُ غَايَةٍ

فِي ضَعْفِ الْعَقِيدَةِ لِمَا يَلْزَمُ أَنَّهُمْ لَيْسُوا بِمُؤْمِنِينَ فِي حَالِ سُؤَالِهِمْ لَهَا، وَهَذَا مُسْتَبْعَدٌ جِدًّا فِي عُصْبَةٍ مِنْ خِيَارِ قَوْمِ كَلِيمِ اللَّهِ، وَلَكِنْ مِنَ الْمُحْتَمَلِ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِمْ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ عَلَى حَدِّ قَضِيَّةِ سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عِنْدَمَا قَالَ لَهُ تَعَالَى: أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى، وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي. وَلَعَلَّكَ تَقُولُ فَأَيُّ الْجِنَايَةِ إِنْ كَانَ السُّؤَالُ سَيَفْهَم بِهِ كَلِيمُ اللَّهِ، وَنَصُّ السُّؤَالِ جَاءَ عَلَى حَدِّ قَضِيَّةِ خَلِيلِ اللَّهِ، فَأَقُولُ إِنَّ الْجِنَايَةَ تَتَحَقَّقُ فِي عَدَمِ شُكْرِهِمْ نِعْمَةَ الْبَعْثِ الْمُشَارِ لَهَا بِقَوْلِهِ: ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ، «**لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**» وَهَذَا بِالنَّظَرِ إِلَى نَصِّ السُّؤَالِ مَحْض. وَأَمَّا لَوْ تَتَبَّعْنَا أَلْفَاظَهُ لَوَجَدْنَا فِي كُلِّ لَفْظٍ جِنَايَةً وَتَقْصِيرًا، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ: يَا مُوسَى، فَهُوَ خِطَابٌ مُجَرَّدٌ مِنْ كُلِّ احْتِرَامٍ، وَلَا شَكَّ أَنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى بِهِ حَسْبَمَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ: لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا، الثَّانِي سُوءُ التَّعْبِيرِ فِي قَوْلِهِمْ: لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ، فَلَوْ قَالُوا لَنْ تَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا حَتَّى نَرَى اللَّهَ لَكَانَ أَجْمَلَ. الثَّالِثُ: زِيَادَتُهُمُ اللَّامَ

وَالْكَافَ ، وَهُوَ قَوْلُهُمْ : لَكَ ، فَكَأَنَّهُمْ يَمُنُّونَ عَلَيْهِ إِيمَانَهُمْ ، وَالْحَقُّ يَنْهَى عَنْ ذَلِكَ ، كَمَا فِي الْقُرْآنِ : فَلَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ ، بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ.

الرَّابِعُ : تَقَيُّدُ الرُّؤْيَةِ بِكَوْنِهَا جَهْرَةً فِيهِ خُرُوجٌ عَنْ سُنَّةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، لِأَنَّهُ لَمْ يُقَيِّدْهَا بِكَوْنِهَا جَهْرَةً ، إِنَّمَا قَالَ : رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ. الْخَامِسُ : فَرْطُ الْجَفَاءِ الْمُسْتَفَادِ مِنْ قَوْلِهِمْ : حَتَّى نَرَى اللَّهَ بِعَدَمِ إِضَافَتِهِ لَهُمْ ، وَلَوْ قَالُوا حَتَّى نَرَى رَبَّنَا وَإِلَهَنَا لَكَانَ أَحْسَنَ وَهَكَذَا سَائِرُ أَلْفَاظِهِمْ لَوْ تَتَبَّعْتَهَا غَالِبًا.

الِاسْتِنْبَاطُ

يُسْتَخْرَجُ مِنْ قَوْلِهِ : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ تَشْكُرُونَ ﴾ خَمْسَةُ أَحْكَامٍ :

الْأَوَّلُ : عَلِمْنَا بِأَنَّ الْإِسْرَائِيلِيِّينَ كَانَتْ لَهُمْ جَفْوَةٌ وَغِلْظَةٌ فِي مُخَاطَبَتِهِمْ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، مِنْ قَوْلِهِ : يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ.

الثَّانِي : عَلِمْنَا بِأَنَّ إِيمَانَ الْكَثِيرِ مِنْهُمْ كَانَ عَلَى غَيْرِ أَسَاسٍ مَتِينٍ فَهُوَ إِلَى الضَّعْفِ أَقْرَبُ مِنْهُ إِلَى الْقُوَّةِ ، مِنْ قَوْلِهِ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى

نُرَى اللَّهَ جَهْرَةً.

الثَّالِثُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ شِدَّةَ الْبَحْثِ فِي إِقَامَةِ الْحُجَّةِ، وَتَكْلِيفَ الدَّاعِي إِلَى اللَّهِ بِمَا يَزِيدُ عَلَى الْقَدْرِ الْمُحْتَاجِ إِلَيْهِ هِيَ خِطَّةٌ وَخِيمَةٌ، وَذَلِكَ مِنْ تَشْنِيعِهِ تَعَالَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي مِثْلِ ذَلِكَ.

الرَّابِعُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَايَنُوا مَا حَلَّ بِهِمْ وَقْتَ الصَّعْقَةِ فَالْمَعْنَى لَمْ تَحْصُلْ لَهُمْ مُجَرَّدَ غَمْرَةٍ، مِنْ قَوْلِهِ: (وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ).

الْخَامِسُ: عَلِمْنَا أَنَّ مَا حَلَّ بِهِمْ يُؤْذِنُ بِمُفَارَقَتِهِمُ الْحَيَاةَ إِمَّا مِنْ طَرِيقَةِ الْمَعْنَى وَإِمَّا مِنْ طَرِيقَةِ الْحِسِّ، مِنْ قَوْلِهِ: ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ.

الإِشَارَةُ

فِي قَوْلِهِ: (وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً) لَا تَعْتَبِرُ الْقِصَّةَ إِلَّا مِنَّةً مِنَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، إِلَّا مِنْ جِهَةِ عَدَمِ الشُّكْرِ عَلَيْهَا عَادَتْ جِنَايَةً عَلَى أَفْرَادِهِمْ، وَكَيْفَ لَا وَهِيَ صَادِرَةٌ مِنْ خَاصَّةِ أَتْبَاعِ كَلِيمِ اللَّهِ الْمُخْتَارِينَ لِمِيقَاتِ اللَّهِ، الْمُسْتَمِعِينَ لِكَلَامِ اللَّهِ، فَبَعْدَ مَا اسْتَمَعُوا مِنْ كَلَامِهِ اشْتَاقُوا لِرُؤْيَةِ ذَاتِهِ، وَهِيَ قَاعِدَةٌ مُطَّرِدَةٌ

كُلُّ مَنْ سَمِعَ الْكَلَامَ إِشْتَاقَ إِلَى رُؤْيَةِ الْمُتَكَلِّمِ، وَهِيَ خِطَّةُ مُوسَى، فَلَا تَعْدِمُ تَمَامًا مِنْ أَتْبَاعِهِ، فَإِنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا كَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ: رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ، لِأَنَّ ظُهُورَ الذَّاتِ يَسْتَلْزِمُ تَقَدُّمَ ظُهُورِ الصِّفَاتِ غَالِبًا، وَلَمَّا ظَهَرَتْ صِفَةُ الْكَلَامِ لَمْ يَبْعُدْ حِينَئِذٍ ظُهُورُ الْمُتَكَلِّمِ فَسُؤَالُهُمُ الرُّؤْيَا لَيْسَ بِمُحَالٍ إِلَّا مِنْ جِهَةِ عَدَمِ الْإِسْتِعْدَادِ لَهَا الْمُحْتَمَلِ فِي الْبَعْضِ، ثُمَّ أَنَّ السُّؤَالَ يَتَضَمَّنُ شَيْئًا مِنْ رَفْعِ الْهِمَّةِ. قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: (إِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَعَظِّمُوا الْمَسْأَلَةَ) وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ هِمَّةَ هَؤُلَاءِ أَرْفَعُ مِمَّنْ قَالَ لِمُوسَى: أُدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ إِلَى آخِرِهِ. وَفِي كَوْنِ أَلْفَاظِ السُّؤَالِ فَارِغَةً مِنَ الْأَدَبِ لَا يَضُرُّ إِنْ كَانَ الْحَامِلُ عَلَى ذَلِكَ الْإِشْتِيَاقَ، لِأَنَّ الْإِنْسَانَ لَا تَضُرُّ مَعَ الْحُبِّ وَإِنْ كَانَتْ لَمْ تُوجَدْ هَذِهِ الصِّفَةُ فِي جَمِيعِهِمْ لَا تَعْدَمُ مِنْ بَعْضِهِمْ وَعَلَى هَذَا يَصِيرُ مَعْنَى الْآيَةِ تَذَكَّرُوا إِذْ قُلْتُمْ لَمَّا سَمِعْتُمْ مِنَ الْكَلَامِ الَّذِي هُوَ أَعْلَى وَأَرْفَعُ مِنْ أَنْ يَسْمَعَهُ كُلُّ مَخْلُوقٍ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ الْإِيمَانَ الْكَامِلَ الَّذِي تَرْضَاهُ مِنَّا حَتَّى نَرَى اللَّهَ رُؤْيَةَ عِيَانٍ لَا رُؤْيَةَ

إِيمَانٍ، فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ الَّتِي هِيَ مِنْ لَوَازِمِ التَّجَلِّي عَلَى مَا يَقْتَضِيهِ الْفَنَاءُ، كَمَا حَصَلَتْ لِمُوسَى، وَلَا شَكَّ أَنَّهَا حَاصِلَةٌ لَهُمْ بِسُؤَالِ مُوسَى لَهَا، وَإِلَّا فَهِيَ أَبْعَدُ مِنْ أَنْ تَحْصُلَ بِمُجَرَّدِ قَوْلِهِمْ: لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً، وَبَعْدَ حُصُولِ الْفَنَاءِ وَالِانْضِمْحَلَالِ بَعَثْنَاكُمْ إِلَى الْبَقَاءِ لَعَلَّكُمْ تَقُومُونَ بِشُكْرِ نِعْمَةِ التَّجَلِّي، لِأَنَّ صَاحِبَ الْفَنَاءِ لَا يَقُومُ بِوَاجِبِ الشُّكْرِ إِلَّا إِذَا انْبَعَثَ بِاللَّهِ بَعْدَ الْفَنَاءِ بِنَفْسِهِ.

لِسَانُ الرُّوحِ

يَقُولُ إِنَّ مُوسَى لَنْ تَصِبْهُ هَذِهِ الصَّعْقَةُ الَّتِي أَصَابَتْ قَوْمَهُ لِأَنَّهَا قَدْ كَانَتْ أَصَابَتْهُ مِنْ قَبْلُ.

التَّفْسِيرُ

وَمِنْ تَمَامِ لُطْفِهِ تَعَالَى وَحُسْنِ عَطْفِهِ عَلَى عِبَادِهِ أَنْ يَذْكُرَ لِهَذِهِ الطَّائِفَةِ مِنْ جِنَايَتِهَا، ثُمَّ يَذْكُرَ مِنْ إِنْعَامِهِ عَلَيْهَا وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ: «**وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ**» أَيْ مِنْ بَعْدِ مَا بَعَثْنَاكُمْ مِنَ الصَّعْقَةِ ظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ، تَقِيكُمْ حَرَّ الشَّمْسِ فِي التِّيهِ، لِتَسِيرُوا بِسَيْرِكُمْ

أَوَلَيْسَ هَذَا مِنَ الإِحْسَانِ فِي مَكَانٍ « وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ » هِيَ نَوْعٌ مِنَ الأَكْلِ تَشْبِهُ الْعَسَلَ، تَنْزِلُ مِنَ الْجَوِّ عَلَى هَيْئَةِ الثَّلْجِ آخِرَ اللَّيْلِ وَيَجْمَعُونَهَا صَبَاحًا « وَالسَّلْوَى » وَهُوَ نَوْعٌ مِنَ الطَّيْرِ، يُسَاقُ إِلَيْهِمْ بِإِذْنِ اللَّهِ، فَيَذْبَحُونَ مِنْهُ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ مِنْ غَيْرِ تَعَبٍ وَلَا كُلْفَةٍ، وَكُلُّ ذَلِكَ لِتَتَفَرَّغُوا لِعِبَادَةِ اللَّهِ، وَقُلْنَا لَكُمْ : « كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ » وَهِيَ الْمَنُّ وَالسَّلْوَى وَالطَّيِّبُ فِيهِمَا مِنْ وَجْهَتَيْنِ، مِنْ جِهَةِ الْمَذَاقِ وَالْحِلِّيَّةِ، فَبَنُو إِسْرَائِيلَ لَمْ يَمْنَعُوا النِّعْمَةَ إِنَّمَا مَنَعُوا الشُّكْرَ. قَالَ تَعَالَى : « وَمَا ظَلَمُونَا » بِكُفْرَانِهِمْ تِلْكَ النِّعَمَ الْجَلِيَّةَ وَالْخَيْرَاتِ الْجَزِيلَةَ « وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ » فَوَبَالُ أَمْرِهِمْ رَاجِعٌ عَلَيْهِمْ، فَلَحِقَهُمْ مِنَ الْهَوَانِ بِقَدْرِ مَا حَصَلَ لَهُمْ مِنَ النِّعَمِ، سَوَاءً بِسَوَاءٍ، وَمِنْ كُفْرَانِهِمْ وَعَدَمِ امْتِثَالِهِمْ قَوْلُهُ تَعَالَى : « وَإِذْ قُلْنَا » لِبَنِي إِسْرَائِيلَ بَعْدَ فَرَاغِهِمْ مِنَ التِّيهِ : « ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ » وَهِيَ بَيْتُ الْمَقْدِسِ عَلَى مَا قِيلَ « فَكُلُوا مِنْهَا » أَيْ مِمَّا فِيهَا مِنَ الْفَوَاكِهِ وَالنِّعَمِ « حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا » أَيْ وَسْعًا وَرَفَاهِيَةً

«وَادْخُلُوا الْبَابَ» أَيْ مِنْ بَابِ الْقَرْيَةِ إِذَا أَرَدْتُمُ الدُّخُولَ «سُجَّدًا» حَالَ الدُّخُولِ، أَيْ خَاضِعِينَ لِلَّهِ، لَا مُتَكَبِّرِينَ وَلَا مُعْجَبِينَ بِأَنْفُسِكُمْ وَأَمَّا السُّجُودُ عَلَى وَجْهِهِ فَلَا يُتَصَوَّرُ حَالَ الدُّخُولِ إِلَّا إِذَا أُوِّلَ بِالِانْحِنَاءِ «وَقُولُوا حِطَّةٌ» فِي حَالِ الدُّخُولِ، وَهِيَ كَلِمَةٌ مِنَ الْمُتَشَابِهِ، لَمْ يَتَّضِحْ مَعْنَاهَا، امْتَحَنَهُمُ اللَّهُ بِذِكْرِهَا «يَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ» أَيْ نَسْتُرْ عَنْكُمْ جَمِيعَ مَا ارْتَكَبْتُمُوهُ مِنَ الْمُخَالَفَةِ وَنَقْضِ الْعُهُودِ إِنْ دَخَلْتُمُ الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْتُمْ حِطَّةٌ، وَهَذَا تَكْلِيفٌ غَيْرُ شَاقٍّ لِمَنْ سَبَقَتْ لَهُ الْعِنَايَةُ «وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ» مِنْكُمْ عَنْ غُفْرَانِ الْخَطِيئَةِ مِنَ الثَّوَابِ الْجَزِيلِ «فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا» مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ «قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ» أَيْ فَاسْتَبْدَلُوا قَوْلَ حِطَّةٍ بِمَا بَدَا لَهُمْ، حَيْثُ لَمْ يَتَّضِحْ عِنْدَهُمْ مَعْنَاهَا وَدَخَلُوا الْبَابَ أَيْضًا غَيْرَ سَاجِدِينَ، وَكُلُّ هَذَا اسْتِهْزَاءٌ مِنْهُمْ وَاسْتِخْفَافٌ بِمَنْ بَلَّغَهُمُ الْأَمْرَ عَلَى لِسَانِهِ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَصْدُرْ ذَلِكَ مِنْ خَاصَّتِهِمْ «فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا» مِنْهُمْ «رِجْزًا مِنَ

السَّمَاءِ» أَيْ دَاءٌ وَوَبَاءٌ، فَمَاتَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي نَحْوِ الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ مَا يَعْلَمُ بِهِ اللَّهُ، وَكَانَ ذَلِكَ جَزَاءً «بِمَا كَانُوا يَفْسِقُونَ» وَبِآيَةِ اللَّهِ يَسْتَهْزِؤُونَ.

الإِسْتِنْبَاطُ

يُسْتَخْرَجُ مِنْ قَوْلِهِ: وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ، إِلَى قَوْلِهِ: يَفْسِقُونَ، ثَمَانِيَةُ أَحْكَامٍ:

الْأَوَّلُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ الْوِلَايَةَ كَرَامَةٌ مِنَ اللَّهِ لِعَبْدِهِ، لَا تَتَوَقَّفُ عَلَى حُسْنِ سِيرَةِ الْعَبْدِ مِنْ أَوَّلِ أَمْرِهِ. مِنْ قَوْلِهِ: وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ، بَعْدَمَا ذَكَرَ تَعَالَى مِنْ سُوءِ مُعَامَلَتِهِمْ مَا يُؤْذِنُ بِالِانْقِطَاعِ.

الثَّانِي: عَلِمْنَا بِأَنَّ الْمُنْقَطِعَ إِلَى اللَّهِ حَقِيقٌ بِأَنْ يَأْتِيَهُ رِزْقُهُ رَغَدًا، مِنْ حَيْثُ لَا يَتْعَبُ كَثِيرًا مِنْ أَجْلِهِ، مِنْ قَوْلِهِ: وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى.

الثَّالِثُ: عَلِمْنَا بِإِبَاحَةِ أَكْلِ الطَّيِّبَاتِ لِلْمُنْقَطِعِينَ إِلَى اللَّهِ. مِنْ قَوْلِهِ: كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ.

الرَّابِعُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ ظُلْمَ الظَّالِمِ عَائِدٌ عَلَيْهِ، وَأَنَّ اللَّهَ مُتَعَالٍ عَلَى أَنْ يَصِلَ إِلَيْهِ، مِنْ قَوْلِهِ: وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ.

الْخَامِسُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ السُّجُودَ قَدْ يُطْلَقُ عَلَى غَيْرِ السُّجُودِ الْمَعْرُوفِ بِوَضْعِ الْجَبْهَةِ عَلَى الْأَرْضِ، مِنْ قَوْلِهِ: وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا لِأَنَّهُ لَا يَتَصَوَّرُ حَالَ الدُّخُولِ.

السَّادِسُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ الْأَلْفَاظَ الَّتِي لَا نُدْرِكُ مَعْنَاهَا قَدْ يُؤْجَرُ الْعَبْدُ عَلَيْهَا مَهْمَا اسْتَعْبَدَنَا تَعَالَى بِذِكْرِهَا، كَفَوَاتِحِ السُّوَرِ وَنَحْوِهَا، مِنْ قَوْلِهِ: وَقُولُوا حِطَّةٌ، لِأَنَّ مَعْنَاهَا لَمْ يَتَّضِحْ عِنْدَهُمْ حَالَ الْأَمْرِ بِهَا.

السَّابِعُ: عَلِمْنَا بِعَدَمِ جَوَازِ اسْتِبْدَالِ الْمُتَعَبَّدِ بِذِكْرِهَا، وَلَوْ بِمُرَادِفِهَا، مِنْ قَوْلِهِ: فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ.

الثَّامِنُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ التَّبْدِيلَ وَالتَّغْيِيرَ فِي أَحْكَامِ اللَّهِ أَشَدُّ عُقُوبَةً عَلَى الْفَاعِلِ مِنْ تَرْكِ الْفِعْلِ بِهِ، مِنْ قَوْلِهِ: فَأَنْزَلْنَا عَلَى

الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ، حَيْثُ رَتَّبَ نُزُولَ الْمَسْخِ عَلَى تَبْدِيلِ الْقَوْلِ.

الْإِشَارَةُ

تَحْمِلُ تَظْلِيلَ الْغَمَامِ بَعْدَ صَاعِقَةِ الْفَنَاءِ عَلَى إِثْبَاتِ رَوَاقِ الْحِسِّ وِقَايَةً مِنْ شُعَاعِ حَضْرَةِ الْقُدْسِ حَالَ الْحَيْرَةِ مِنْ عَظَمَةِ اللَّهِ، الْمُعَبَّرِ عَنْهَا بِالتِّيهِ، وَلَوْلَا وُجُودُ الرَّوَاقِ الْمُعَبَّرِ عَنْهُ بِالْغَمَامِ لَوَقَعَ التَّلَاشِي، لِمَا فِي الْحَدِيثِ لَوْ كَشَفَ عَنْ سُبُحَاتِ وَجْهِهِ لَاحْتَرَقَ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ، وَإِذًا لَتَعَطَّلَتِ الْحِكْمَةُ، وَسَقَطَ التَّكْلِيفُ، وَالْحَقُّ أَرْفَقُ بِعِبَادِهِ مِنْ ذَلِكَ، فَقَدَّرَ تَعَالَى نَوْعًا مِنَ الشَّيْءِ كَلَا شَيْءٍ فِي نَظَرِ الْعَارِفِ، حَتَّى تَقُومَ بِنْيَتُهُ، وَيَسْتَقِيمَ سَيْرُهُ، وَهُوَ نِعْمَةٌ مِنَ اللَّهِ عَلَى الْعَبْدِ فِي صُورَةِ عَكْسِهَا. قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: إِنَّهُ لَيُغَارُ عَلَى قَلْبِي حَتَّى أَسْتَغْفِرَ اللَّهَ سَبْعِينَ مَرَّةً فِي الْيَوْمِ فَكَانَ الْغَانُ نِعْمَةً عَلَى أَهْلِهِ بِهَذَا الِاعْتِبَارِ حَيْثُ كَانَ مُسْتَجْلِبًا لِلِاسْتِغْفَارِ، ثُمَّ أَنَّ نُزُولَ الْمَنِّ وَالسَّلْوَى يَشْمَلُ

نُزُولَ الْمَعَارِفِ الإِلٰهِيَّةِ عَلَى قُلُوبِ الأَصْفِيَاءِ مِنْ غَيْرِ اكْتِسَابٍ.
إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ، فَمَنْ قَيَّدَهَا بِعُقَالِهَا دَامَتْ
وَمَنْ تَرَكَهَا رَجَعَتْ مِنْ حَيْثُ جَاءَتْ، وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ
لِنَفْسِهِ، وَإِلَيْهَا الإِشَارَةُ فِي قَوْلِهِ: وَمَا ظَلَمُونَا وَلٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ
يَظْلِمُونَ. ثُمَّ إِنَّ دُخُولَ الْقَرْيَةِ بَعْدَ التِّيهِ، وَإِبَاحَةَ الأَكْلِ مِنْهَا
رَغَدًا عِبَارَةٌ عَنِ الرُّجُوعِ إِلَى الشَّرِيعَةِ وَالْعَمَلِ بِمُقْتَضَاهَا بِدُونِ
أَنْ يَسْتَشِفَّ الْعَارِفُ شَيْئًا مِمَّا حَوَتْهُ، كَمَا كَانَ فِي الْبِدَايَةِ وَإِنْ
وَقَعَ مِنْهُ فِي حَالِ التِّيهِ مَا يُوهِمُ الْخُرُوجَ عَنْهَا، وَلِهٰذَا يَقُولُونَ أَنَّ
حَقِيقَةَ النِّهَايَةِ هِيَ الرُّجُوعُ إِلَى الْبِدَايَةِ. ثُمَّ إِنَّ الدُّخُولَ إِلَى هٰذِهِ
الْقَرْيَةِ وَالْمُكْثَ فِيهَا وَالأَكْلَ مِنْهَا رَغَدًا لَا يَحْصُلُ لِلْعَارِفِينَ إِلَّا
إِذَا دَخَلُوهَا سُجَّدًا لِجَمِيعِ أَوَامِرِهَا وَنَوَاهِيهَا، وَمَنْ بَدَّلَ قَوْلًا
غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُ يَخْشَى أَنْ يُنْزِلَ اللَّهُ عَلَيْهِ رِجْزًا مِنْ
عِنْدِهِ، وَأَقَلُّ ذٰلِكَ أَنْ يَطْرُدَهُ عَنْ بَابِهِ، عَصَمَنَا اللَّهُ
مِنْ سُوءِ الْعَوَاقِبِ.

لِسَانُ الرُّوحِ

سَأَلْتُهُ عَنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الَّتِي أُذِنَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الدُّخُولِ إِلَيْهَا، فَقَالَ إِنَّهَا كَانَتْ أَوْسَعَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْجَنَّةِ الَّتِي دَخَلَهَا آدَمُ لَوْ دَخَلُوهَا سَاجِدِينَ، فَقُلْتُ: وَكَيْفَ ذَلِكَ؟ فَقَالَ: إِنَّهَا لَمْ تُقَيَّدْ عَلَيْهِمْ بِشَجَرَةٍ دُونَ أُخْرَى كَمَا قُيِّدَتْ عَلَى آدَمَ. أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ: فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا. غَيْرَ أَنَّ آدَمَ زَلَّ فِي جَنَّتِهِ حَدَّ الْمُكْثِ فِيهَا، وَهَؤُلَاءِ زَلُّوا حَالَ الدُّخُولِ.

التَّفْسِيرُ

ثُمَّ أَخَذَ تَعَالَى فِي تَذْكِيرِهِمْ بِنِعْمَةٍ أُخْرَى، فَقَالَ: «وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ» أَيْ سَأَلَ الْغَيْثَ مِنَ اللَّهِ كَمَا هِيَ السُّنَّةُ «لِقَوْمِهِ» لَمَّا طَلَبُوا ذَلِكَ مِنْهُ عِنْدَمَا فَقَدُوا الْمَاءَ فِي التِّيهِ وَظَنُّوا بِاللَّهِ الظُّنُونَ «فَقُلْنَا» لِمُوسَىٰ لَمَّا أَرَدْنَا إِغَاثَتَهُ «اضْرِبْ بِعَصَاكَ» وَهِيَ الْعَصَا الَّتِي أَخَذَهَا مِنْ سَيِّدِنَا شُعَيْبٍ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ «الْحَجَرَ» قِيلَ هُوَ حَجَرٌ مُعَيَّنٌ، وَقِيلَ

إِنَّ الأَلِفَ وَاللَّامَ فِيهِ لِلْجِنْسِ، وَهُوَ الْأَقْرَبُ، وَلَيْسَ فِي الآيَةِ تَخْصِيصٌ «فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ» أَيْ مِنْ ذَلِكَ الْحَجَرِ الْمُتَقَدِّمِ «اثْنَتَا عَشْرَ عَيْنًا» عَلَى عَدَدِ الْأَسْبَاطِ، حَتَّى لَا يَقَعَ بَيْنَهُمْ تَزَاحُمٌ عَلَى الْمَاءِ، فَرُبَّمَا يَنْشَأُ عَنْهُ مَا هُوَ كَالْقِتَالِ وَمَا فِي مَعْنَاهُ «قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ» إِمَّا بِإِلْهَامٍ مِنَ اللَّهِ، أَوْ بِأَمْرٍ مِنْ مُوسَى، وَكَانَ عَدَدُهُمْ عَلَى مَا قِيلَ يَقْرُبُ مِنَ السِّتِّمِائَةِ أَلْفٍ، ثُمَّ إِنَّ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَسْتَسْقِي لِقَوْمِهِ عَلَى الْمِنْبَرِ، فَلَا يَنْزِلُ مِنْ فَوْقِهِ حَتَّى تَمْطِرَ السَّمَاءُ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا «كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ» أَيْ قُلْنَا لَهُمْ كُلُوا مِنَ الْمَنِّ وَالسَّلْوَى، وَاشْرَبُوا مِنَ الْمَاءِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ ذَلِكَ مِنْ رِزْقِ اللَّهِ. وَلَمَّا كَانَ الْوَسَعُ فِي الْعَيْشِ وَالرَّفَاهِيَةِ قَدْ يُفْضِيَانِ إِلَى الْعُتُوِّ وَالْفَسَادِ، حَذَّرَهُمْ تَعَالَى مِنْ ذَلِكَ فَقَالَ: «وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ» عَصَمَنَا اللَّهُ مِنَ الْفَسَادِ، وَوَقَانَا سُوءَ الْمَعَادِ، آمِين

الإستنباط

يستخرج من قوله: (وإذ استسقى موسى) إلى قوله: (مفسدين) أربعة أحكام:

الأول: علمنا بأن الإستسقاء هو من سنن الأنبياء عليهم السلام، من قوله: (وإذ استسقى موسى).

الثاني: علمنا بأن الأنبياء على ثقة من الله من جهة وصول ما به قوام البدن، إنما يسألون من الله ما هو من ذلك القبيل لقومهم، لأنهم أضعف يقيناً من أنبيائهم، من قوله: وإذ استسقى موسى لقومه، أيضاً حيث أسند الإستسقاء لهم.

الثالث: علمنا بأن القوم كانوا أحوج إلى الماء من جهة الشراب لا لنحو السقي، وإلا لأرسلت عليهم السماء بدل انفجار الحجر.

الرابع: علمنا بأن المشارب تختلف في كل شيء حساً ومعنى، من قوله: (قد علم كل أناس مشربهم).

الإشارة

ترى الإستسقاء عبارة عن طلب الغيث المعنوي، المعبر عنه بمطر القلوب، فهو أولى في الإلتجاء إلى الله من أجله لأن القلوب أحوج إلى الأسرار من الأجسام إلى نزول الأمطار وهذا عند أهل القلوب، وأما أهل الأجسام لا يعرفونه حتى يسألوه، ومن جهل شيئاً عداه إنما يسألون ما به قوام البدن لأنهم أبدان بلا قلوب، ولعلك تقول قد استسقى نبي الله موسى وغيره من الرسل عليهم صلوات الله وسلامه فأقول إنما الإستسقاء منهم لقومهم، وإلى ذلك الإشارة في قوله تعالى: (وإذ استسقى موسى لقومه). وأما لو استسقى لنفسه فيما هو محتاج إليه من جهة قوام البدن لقال كما قال خليل الرحمن علمه بحالي يكفيني عن سؤالي. وأما ما يختص بالقلوب من جهة استمطار الفضل فهم أحوج إليه، ومن ذلك ما اعتادته القوم رضوان الله عليهم من الإنقطاع إلى الله، وانفرادهم عن

الْخَلْقِ، وَخَرْقِ الْعَوَائِدِ فِي أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا لَا تَأْلَفُهُ النُّفُوسُ، مُتَعَرِّضِينَ بِذَلِكَ لِنَفَحَاتِ اللَّهِ، قَاطِعِينَ النَّظَرَ عَمَّا يُهِمُّهُمْ مِنْ جِهَةِ قَوَامِ الْبَدَنِ جَرْيًا عَلَى خُطَّتِهِمْ مِنَ الثِّقَةِ بِالْمَضْمُونِ، وَالْعَمَلِ بِالْمَطْلُوبِ، وَيَحْذَرُونَ كُلَّ الْحَذَرِ مِنَ الْعَكْسِ، قَالَ فِي الْحِكَمِ الْعَطَائِيَّةِ اجْتِهَادُكَ فِيمَا ضُمِنَ لَكَ وَتَقْصِيرُكَ فِيمَا طُلِبَ مِنْكَ دَلِيلٌ عَلَى انْطِمَاسِ الْبَصِيرَةِ مِنْكَ.

لِسَانُ الرُّوحِ

سَأَلْتُهُ عَنِ الْعَصَا الَّتِي كَانَتْ لِمُوسَى فَلِمَ تَحْمِلُ الْأَعْمَالَ، قَالَ: لِأَنَّهَا كَانَتْ فِي يَدِ آدَمَ، وَآدَمُ مَنْفُوخٌ فِيهِ مِنْ رُوحِ اللَّهِ.

التَّفْسِيرُ

قَوْلُهُ تَعَالَى: «**وَإِذْ قُلْتُمْ**»، أَيْ تَذَكَّرُوا يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ جِنَايَتَكُمْ وَسُوءَ اخْتِيَارِكُمْ لَمَّا قُلْتُمْ: «**يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ**» مَا عِشْنَا، وَهُوَ الْمَنُّ وَالسَّلْوَى، بَلْ نُرِيدُ تَلَوُّنَ الْأَطْعِمَةِ تَارَةً هَذَا وَتَارَةً هَذَا، وَلَيْسَ لَنَا مَا بِهِ التَّوَصُّلُ لِذَلِكَ «**فَادْعُ لَنَا**

رَبُّكَ يُخْرِجْ لَنَا» أَيْ لِأَجْلِنَا «مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا» أَيْ خُضَرِهَا، وَالْمُرَادُ مَا يُؤْكَلُ كَالْكُرْفُسِ وَالنَّعْنَعِ وَنَحْوِهِمَا «وَقِثَّائِهَا» وَهُوَ نَوْعٌ مِنَ الْخِيَارِ، «وَفُومِهَا» لُغَةٌ فِي الثُّومِ «وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا» هُمَا نَوْعَانِ مَعْرُوفَانِ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِمَّا لَا يُحْصَرُ كَثْرَةً، وَكَأَنَّهُمْ يُرِيدُونَ أَنْ تَكُونَ لَهُمْ أَرْضُ التِّيهِ رَوْضَةً يَانِعَةً، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ لَيْسَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ غَيْرَ أَنَّهُمْ يَخْرُجُونَ بِهِ عَمَّا طُلِبَ مِنْهُمْ مِنَ التَّجْرِيدِ وَالْإِنْقِطَاعِ إِلَى اللَّهِ بِمَا يَشْغَلُهُمْ مِنْ لَوَازِمِ الْفِلَاحَةِ، وَلِهَذَا «قَالَ» تَعَالَى لَهُمْ بِصِيغَةِ الْإِنْكَارِ عَلَيْهِمْ «أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ» أَيْ تَخْتَارُونَ مَا هُوَ الْخَسِيسَ مِنْ جِهَةِ تَعَاطِي الْأَسْبَابِ وَتَتْرُكُونَ الشَّرِيفَ الْأَعْلَى الْمُسَاقَ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ بِلَا وَاسِطَةٍ، وَلَمَّا لَمْ يَنْجَحْ فِيهِمُ الْوَعْظُ، وَلَمْ تَرْتَفِعْ هِمَّتُهُمْ عَنْ بُطُونِهِمْ قَالَ تَعَالَى: «اهْبِطُوا مِصْرًا» فَكَأَنَّهُ تَعَالَى يَقُولُ لَهُمْ إِنَّكُمْ لَسْتُمْ أَهْلًا لِرَفْعِ الْهِمَّةِ وَأَشْرَفِ الْمَنَازِلِ، وَحَيْثُ كُنْتُمْ كَذَلِكَ وَرَضِيتُمْ

بِمَا لَا قِيمَةَ لَهُ بِالنَّظَرِ لِمَا كُنْتُمْ عَلَيْهِ، احْذَرُوا مِنَ التِّيهِ الَّذِي هُوَ مَحَلُّ الِانْقِطَاعِ إِلَى اللَّهِ وَادْخُلُوا أَحَدَ الْأَمْصَارِ «فَإِنَّ لَكُمْ» فِيهِ جَمِيعَ «مَا سَأَلْتُمْ» مَبْذُولٌ لِكُلِّ أَحَدٍ، وَلَيْسَ هُوَ مِنْ قَبِيلِ مَا تَتَشَوَّقُ إِلَيْهِ الْهِمَمُ الْعَالِيَةُ «وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ» مُسْتَعَارٌ مِنْ ضَرْبِ الطِّينِ عَلَى الْحَائِطِ بِأَنِ الْتَصَقَتَا بِهِمْ، وَصَارَ مِنْ لَوَازِمِهِمْ. وَإِلَى الْآنَ تَجِدُ مِنْ بَقَائِهِمَا فِيهِمْ، وَحَتَّى لَوِ انْفَكَّتَا عَنِ الْبَعْضِ مِنْهُمْ ظَاهِرًا فَهُوَ يَعْلَمُهُمَا مِنْ نَفْسِهِ بَاطِنًا، وَهَذَا جَزَاءُ مَنْ يَجْعَلُ هِمَّتَهُ فِي بَطْنِهِ فَخَسِرُوا بِذَلِكَ خُسْرَانًا أَبَدِيًّا «وَبَاءُوا» أَيْ رَجَعُوا وَانْصَرَفُوا مِنَ التِّيهِ إِلَى مِصْرَ «بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ» عَلَيْهِمْ عَظِيمٍ «ذَلِكَ» الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَالْغَضَبُ حَقٌّ بِهِمْ «بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ» أَيْ يَجْحَدُونَهَا بَعْدَ ثُبُوتِهَا لَدَيْهِمْ «وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ» كَيَحْيَى وَزَكَرِيَّا وَشُعَيْبٍ وَغَيْرِهِمْ «بِغَيْرِ الْحَقِّ» قَيَّدَ فِي الْقَتْلِ، مَعَ أَنَّ قَتْلَ النَّبِيِّ لَا يُتَصَوَّرُ أَنْ يَكُونَ بِحَقٍّ

وَفَائِدَتُهُ زِيَادَةً فِي إِيضَاحِ عُتُوِّهِمْ وَجُرْأَتِهِمْ عَلَى اللَّهِ فَكَأَنَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: يَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حُجَّةٍ يَعْتَمِدُونَهَا وَلَا تَأْوِيلٍ، وَإِنْ كَانَ بَعِيدًا، إِنَّمَا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ مَيْلًا لِجَانِبِ الدُّنْيَا، وَعُلُوًّا فِي الْعِصْيَانِ كَمَا يُفْصِحُ عَنْهُ قَوْلُهُ: «**ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ**» فَكَأَنَّهُ تَعَالَى يَقُولُ بَلَغُوا إِلَى مَا بَلَغُوا إِلَيْهِ مِنْ قَتْلِ الْأَنْبِيَاءِ، وَالْكُفْرِ بِآيَاتِ اللَّهِ بِسَبَبِ مَا ارْتَكَبُوهُ مِنَ الذُّنُوبِ فَبِتَرَاكُمِ الذُّنُوبِ تَنْطَمِسُ الْبَصَائِرُ وَالْقُلُوبُ.

الِاسْتِنْبَاطُ

يُسْتَخْرَجُ مِنْ قَوْلِهِ: (وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى) إِلَى قَوْلِهِ: (يَعْتَدُونَ) ثَمَانِيَةُ أَحْكَامٍ:

الْأَوَّلُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ الْمُتَجَرِّدَ حَقُّهُ أَنْ لَا يَتَشَوَّقَ لِمَا زَادَ عَلَى الطَّعَامِ الْوَاحِدِ، لِذَمِّهِ تَعَالَى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ.

الثَّانِي: عَلِمْنَا بِأَنَّ شِدَّةَ الْحِرْصِ لِأَجْلِ تَنْوِيعِ الْأَطْعِمَةِ مَظِنَّةُ السُّقُوطِ مِنْ عَيْنِ اللَّهِ حَسْبَمَا يُسْتَفَادُ مِنَ الْقِصَّةِ.

الثَّالِثُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ الطَّعَامَ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ الإِسْرَائِيلِيُّونَ فِي حَالِ التِّيهِ هُوَ أَرْفَعُ مِمَّا طَلَبُوهُ مِنْ تَنْوِيعِ الْخُضَرِ، مِنْ قَوْلِهِ: (أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ).

الرَّابِعُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ الْمَدِينَةَ الَّتِي أُمِرُوا بِالْهُبُوطِ إِلَيْهَا هِيَ مَحَلٌّ يُوجَدُ فِيهِ جَمِيعُ مَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ جِهَةِ رَفَاهِيَةِ الْعَيْشِ مِنْ قَوْلِهِ: (اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ).

الْخَامِسُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ أَصْحَابَ التِّيهِ كَانَ أَكْثَرُهُمْ فِي الْحَضَرِيَّةِ أَمْكَنَ، وَإِلَّا لَمَا تَشَوَّقُوا إِلَى الْقِثَّاءِ وَالثُّومِ وَالْعَدَسِ، وَمَا هُوَ مِنْ ذَلِكَ الْقَبِيلِ.

السَّادِسُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ الْمُتَجَرِّدَ إِلَى اللَّهِ أَبْعَدُ مِنْ أَنْ تُضْرَبَ عَلَيْهِ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ، مِنْ قَوْلِهِ: (وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ) بَعْدَ دُخُولِهِمْ لِمِصْرَ، وَاشْتِغَالِهِمْ بِلَوَازِمِ الْمَعَايِشِ.

السَّابِعُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ الذُّلَّ وَالْمَسْكَنَةَ وَقْفَانِ عَلَى الْيَهُودِ مِنْ بَعْدِ مُوسَى، إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا، مِنْ قَوْلِهِ: (وَضُرِبَتْ

عَلَيْهِم ..) .

الثَّامِنُ : عَلِمْنا بِأَنَّ الإِسْتِرْسَالَ فِي الْمَعَاصِي قَدْ يَكُونُ سَبَبًا فِي الْكُفْرِ وَنَحْوِهِ، مِنْ قَوْلِهِ : (ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ) أَيْ كُفْرُهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ، وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ كَانَ بِسَبَبِ اسْتِرْسَالِهِمْ فِي الْمَعَاصِي .

الإِشَارَةُ

تُفِيدُ مَا مِنْ ذِلَّةٍ تَرَتَّبَتْ، وَمِحْنَةٍ تَحَتَّمَتْ إِلَّا وَأَصْلُهَا الشَّرُّ وَتَحَكُّمُ الشَّهْوَةِ الْبَاطِنِيَّةِ . وَتُفِيدُ أَيْضًا أَنَّ الْعِزَّ كُلَّ الْعِزِّ فِي رَفْعِ الْهِمَّةِ وَتَهْذِيبِ الطَّبْعِ، وَتَرْوِيضِ النَّفْسِ عَلَى الطَّعَامِ الْوَاحِدِ، بَعْدَمَا جَهَدَهُمْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ كُلَّ الْمُجَاهَدَةِ فِي رِيَاضَتِهِمْ عَلَيْهِ بِمَا تَحَكَّمَ فِيهِمْ مِنَ الطَّبْعِ . وَلِهَذَا كَانَ نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَنْهَى عَنِ الْجَمْعِ بَيْنَ إِدَامَيْنِ عَلَى مَائِدَةٍ، أَوْ فِي آنِيَةٍ، احْتِيَاطًا مِنْ تَحَكُّمِ الطَّبْعِ، كَمَا تَحَكَّمَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَانْحَدَرُوا بِسَبَبِهِ مُوَافَقَةً لِسُلْطَانِهِ إِلَى مِصْرَ مَحَلِّ تَعَاطِي الأَسْبَابِ الْجَالِبَةِ لِتَلْوِينِ الأَطْعِمَةِ

وَاسْتَصْغَرُوا جَانِبَ الذُّلِّ وَالْمَسْكَنَةِ فِي مُقَابَلَتِهَا. قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنْ جَعَلَ هِمَّتَهُ فِي بَطْنِهِ فَقِيمَتُهُ عِنْدَ اللَّهِ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَهِيَ فِي الْخِسَّةِ بِمَكَانٍ، وَمِنْ أَجْلِ هَذَا تَعَيَّنَ عِنْدَ الْقَوْمِ تَهْذِيبُ الْأَخْلَاقِ وَتَرْوِيضُ الطِّبَاعِ، لِأَنَّهُمْ وَجَدُوا الْعِزَّ كُلَّ الْعِزِّ فِي رَفْعِ الْهِمَّةِ، وَالصَّبْرِ عَلَى الطَّعَامِ الْوَاحِدِ، وَالذُّلَّ كُلَّ الذُّلِّ فِي التَّشَوُّقِ لِمَا زَادَ عَلَى ذَلِكَ، لِأَنَّ مَنَالَهُ تَحْتَ يَدِ الْخَلْقِ غَالِبًا. قَالَ فِي الْحِكَمِ الْعَطَائِيَّةِ إِرَادَتُكَ الْأَسْبَابَ مَعَ إِقَامَةِ اللَّهِ إِيَّاكَ فِي التَّجْرِيدِ انْحِطَاطٌ عَنِ الْهِمَّةِ الْعَلِيَّةِ.

لِسَانُ الرُّوحِ

لَا يَعْتَبِرُ مِنَ الطَّعَامِ الْوَاحِدِ إِلَّا مَا صَرَفَ إِلَى الْحَقَائِقِ، الَّذِي هُوَ غِذَاءُ الرُّوحِ الْمُقَدَّسِ، فَمَنْ لَمْ يَصْبِرْ عَلَيْهِ بَعْدَ تَحْصِيلِهِ فِي حَالِ خُرُوجِهِ عَنِ التَّقْيِيدِ وَمَا هُوَ مِنْ لَوَازِمِ الْعَبِيدِ حَتْمًا يَرْجِعُ بِغَضَبٍ إِلَى دَرَكَةِ التَّكْلِيفِ بِمَا فِيهَا مِنَ الذُّلِّ وَالْمَسْكَنَةِ، وَقَالَ أَيْضًا إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمْ يَصْبِرُوا عَلَى الطَّعَامِ الْوَاحِدِ لِأَنَّهُمْ كَانُوا

أَرْضِيِّينَ، وَالطَّعَامُ الْوَاحِدُ سَمَاوِيٌّ، بِخِلَافِ أَصْحَابِ عِيسَى فَإِنَّهُمْ سَمَاوِيُّونَ، وَلِهَذَا قَالَ نَبِيُّهُمْ: اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ.

التَّفْسِيرُ

إِنَّ كُلَّ مَنْ تَأَمَّلَ الْقُرْآنَ، وَتَمَعَّنَ فِي نِظَامِهِ وَحُسْنِ أُسْلُوبِهِ يَعْلَمُ يَقِينًا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَرْحَمُ بِعَبْدِهِ مِنْ نَفْسِهِ، وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّ تَعَالَى لَمَّا قَرَعَ سَمْعَ الإِسْرَائِيلِيِّينَ أَنَّهُمْ بَاؤُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ، وَأَنَّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ، وَذَكَّرَهُمْ بِكُلِّ بَغْيٍ وَفَسَادٍ عَلَى مَا يَقْتَضِيهِ الْعَدْلُ ظَهَرَتْ مِنْهُ تَعَالَى صِفَةُ الرَّحْمَةِ الَّتِي هِيَ أَسْبَقُ مِنَ الْغَضَبِ، فَأَخَذَتِ الْيَهُودَ مِنْ سُوءِ الْحَضِيضِ وَرَفَعَتْهُمْ إِلَى أَنْ جَمَعَتْهُمْ مَعَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْخِطَابِ ثُمَّ عَمَّتْ غَيْرَهُمْ مِنَ الْفِرَقِ، وَلَا أَبْلَغُ مِنْ هَذَا فِي الِاسْتِعْطَافِ. قَالَ تَعَالَى: «**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا**» بِمَا جَاءَ بِهِ الْقُرْآنُ «**وَالَّذِينَ هَادُوا**» أَيْ دَخَلُوا فِي الْيَهُودِيَّةِ، مَأْخُوذَةٌ مِنْ قَوْلِهِمْ: إِنَّا هُدْنَا

إِلَيْكَ ، أَيْ تُبْنَا وَرَجَعْنَا إِلَيْكَ ، سُمُّوا بِذَلِكَ عِنْدَ تَوْبَتِهِمْ مِنْ عِبَادَةِ الْعِجْلِ « **وَالنَّصَارَى** » وَهُمْ أَتْبَاعُ الْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ سُمِّيُوا بِإِسْمِ مَنْ قَالَ مِنَ الْحَوَارِيِّينَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ، لَمَّا قَالَ الْمَسِيحُ : مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ « **وَالصَّابِئِينَ** » وَهُمْ أَهْلُ دِيَانَةٍ مُلَفَّقَةٍ مِنَ النَّصْرَانِيَّةِ وَالْمَجُوسِيَّةِ ، وَقِيلَ إِنَّهُمْ عَلَى دِيَانَةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَمَجْمُوعُ هَذِهِ الْفِرَقِ وَغَيْرِهَا أَنَّ « **مَنْ آمَنَ** » مِنْهُمْ « **بِاللَّهِ** » وَبِمَا يَجِبُ فِي حَقِّهِ مِنْ صِفَاتِ الْكَمَالِ « **وَالْيَوْمِ الْآخِرِ** » وَبِمَا يَدْخُلُ تَحْتَهُ مِنَ الْمُغَيَّبَاتِ كَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَالصِّرَاطِ وَالْمِيزَانِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا قَرَّرَتْهُ الشَّرَائِعُ « **وَعَمِلَ** » فِي سِرِّهِ وَعَلَانِيَتِهِ عَمَلًا « **صَالِحًا** » عَلَى وِفْقِ مَا جَاءَتْ بِهِ شَرِيعَةُ الْإِسْلَامِ حَتَّى مَاتَ عَلَى ذَلِكَ « **فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ** » ثَابِتٌ « **عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ** » يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ جَمِيعِ الْجِنَايَاتِ الَّتِي ارْتَكَبُوهَا قَبْلَ الْإِسْلَامِ « **وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** » يَوْمَ يَحْزَنُ مَنْ سِوَاهُمْ عَلَى مَا فَاتَهُ مِنْ مُوَافَقَةِ الرَّسُولِ وَإِنْ

قُلْتَ فَلِمَ أَجْمَلَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَ مَنْ سِوَاهُمْ مَعَ اعْتِرَافِهِ لَهُمْ بِالْإِيمَانِ فَأَقُولُ : أَجْمَلَهُمْ لِفَوَائِدَ ، مِنْهَا أَنَّهُ قَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ الْخِطَابَ جَاءَ فِي مَعْرِضِ الْإِسْتِعْطَافِ لِلْإِسْرَائِيلِيِّينَ ، وَثَانِيًا لِيُرَتِّبَ عَلَى الْإِيمَانِ الْعَمَلَ الصَّالِحَ ، فَكَأَنَّهُ يَقُولُ إِنَّ الْإِيمَانَ بِانْفِرَادِهِ غَيْرُ كَافٍ فِي نَفْيِ الْحُزْنِ وَالْخَوْفِ إِلَّا بِانْضِمَامِ الْعَمَلِ الصَّالِحِ إِلَيْهِ . وَثَالِثًا أَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا الْمَذْكُورِينَ أَوَّلًا هُمُ الْمَحْكُومُ عَلَيْهِمْ آخِرًا فِي الْآيَةِ ، بِقَوْلِهِ : (وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) وَعَلَى هَذَا فَلَا إِخْرَاجَ ، وَرَابِعًا : إِنَّ فِي الْآيَةِ شَيْئًا مِنْ نَفْيِ الْإِخْتِصَاصِ ، فَكَأَنَّهُ يَقُولُ لَا فَرْقَ بَيْنَ مَنْ آمَنَ أَوَّلًا وَبَيْنَ مَنْ آمَنَ آخِرًا بِالْإِضَافَةِ لِلْإِسْلَامِ . وَخَامِسًا : إِنَّ فِي تَخْصِيصِ هَذِهِ الْفِرَقِ بِالذِّكْرِ دُونَ الْمُشْرِكِينَ وَالْمَجُوسِ وَالزَّنَادِقَةِ نَوْعًا مِنَ الْإِحْتِرَامِ . وَسَادِسًا : إِنَّ فِي هَيْئَةِ الْعَطْفِ الْمُرَتَّبِ مَا يُشْعِرُ بِفَضْلِ الْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ عَلَى الْمَعْطُوفِ . وَسَابِعًا : إِنَّ ذِكْرَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي جُمْلَةِ مَنْ سِوَاهُمْ فِيهِ مِنْ كَسْرِ شَوْكَةِ الْعُجْبِ الْمَخْشِيِّ لُحُوقُهُ بِالَّذِينَ آمَنُوا عِنْدَ مَا يَبْلُغُهُمْ مَا حَلَّ بِالْإِسْرَائِيلِيِّينَ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

الإسْتِنْبَاطُ

يُسْتَخْرَجُ مِنْ قَوْلِهِ: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا) إِلَى قَوْلِهِ: (وَلَاهُمْ يَحْزَنُونَ) ثَلَاثَةُ أَحْكَامٍ:

الأَوَّلُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ الفِرَقَ مِنْ حَيْثُ هِيَ بِالإِضَافَةِ لِلإِسْلَامِ عَلَى السَّوَاءِ، وَذَلِكَ يُؤْخَذُ مِنْ إِجْمَالِهِمْ فِي الذِّكْرِ.

الثَّانِي: عَلِمْنَا بِأَنَّ الإِيمَانَ بِمَا جَاءَ بِهِ الإِسْلَامُ إِذَا كَانَ مُجَرَّدًا عَنِ الأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ رُبَّمَا يُحْمَلُ صَاحِبُهُ بِأَهْلِ الكِتَابِ، حَسْبَمَا يُسْتَفَادُ مِنَ الجُمْلَةِ إِلَّا إِذَا أُنِيطَ بِالْعَمَلِ.

الثَّالِثُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ الصَّابِئِينَ الْمَذْكُورِينَ فِي الآيَةِ كَانُوا عَلَى بِشْرِعَةٍ سَمَاوِيَّةٍ، وَذَلِكَ يُسْتَفَادُ مِنْ ذِكْرِهِ لَهُمْ تَعَالَى مَعَ أَهْلِ الكِتَابِ دُونَ الْمُشْرِكِينَ.

الإِشَـــارَةُ

تَتَضَمَّنُ تَسْوِيَةَ هَذِهِ الْفِرَقِ وَدُخُولُ الْمُؤْمِنِينَ فِي جُمْلَتِهِمْ أَنْ لَا يَرَى الإِنْسَانُ دُونَهُ مُسْلِمًا وَلَا كَافِرًا، وَلَا طَائِعًا وَلَا عَاصِيًا

مَادامَتْ عَاقِبَةُ أَمْرِهِ مَجْهُولَةً، لِأَنَّ الْعِبْرَةَ بِالْخَوَاتِمِ، وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ، وَالنَّاسُ فِي جَانِبِ التَّقْدِيرِ سَوَاءٌ.

لِسَانُ الرُّوحِ

عَلَى مَا فَهِمْتُ مِنْ لُغْزِهِ أَنَّ جَمِيعَ هَذِهِ الْفِرَقِ لَهَا مَكَانَةٌ فِي الدِّينِ، وَأَنَّ التَّفَاضُلَ فِيمَا بَيْنَهَا حَسْبَمَا رَتَّبَهُ الْكِتَابُ الْمُبِينُ، وَأَنَّ الْأَسْفَلَ مِنْهَا أَعْلَى دَرَجَةً مِنَ الْمُشْرِكِينَ.

التَّفْسِيرُ

إِنَّهُ تَعَالَى بَعْدَمَا كَادَ أَنْ يَقْطَعَ حَبْلَ الْمَوَدَّةِ تَمَامًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لِقَوْلِهِ: (ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاؤُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ) فَاسْتَرْضَاهُمْ ثَانِيًا بِأَبْلَغِ عِبَارَةٍ، حَيْثُ أَجْمَلَهُمْ بِالذِّكْرِ عَقِبَ الَّذِينَ آمَنُوا لِيُوَاجِهَهُمُ الْآنَ بِالْعِتَابِ، سَعْيًا مِنْهُ تَعَالَى فِي تَحْسِينِ الرَّوَابِطِ، لِأَنَّ الْعِتَابَ أَبْلَغُ دَاعٍ فِي تَحْرِيكِ الْوِدَادِ، وَفِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ مِنْ حُسْنِ الْأُسْلُوبِ مَا هُوَ أَوْلَى بِالِاعْتِبَارِ. قَالَ تَعَالَى مُخَاطِبًا لَهُمْ: «وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ» أَيْ تَذَكَّرُوا حَالَةَ أَخْذِ

الْمِيثَاقِ مِنْكُمْ عَلَى الْعَمَلِ بِمَا فِي التَّوْرَاةِ أَنْ جَاءَكُمْ بِهِ مُوسَى ، ثُمَّ نَقَضْتُمُ الْعَهْدَ ، وَامْتَنَعْتُمْ عَنِ الْعَمَلِ بِمَا فِيهِ حَتَّى هَدَّدْنَاكُمْ بِأَبْلَغِ تَهْدِيدٍ «وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ» الْجَبَلَ الْمُسَمَّى «الطُّورَ» حَتَّى صِرْتُمْ مِنْ تَحْتِهِ تَرَوْنَهُ مِنْ فَوْقِكُمْ ، وَأَنْتُمْ مُشْفِقُونَ أَنْ يَقَعَ عَلَيْكُمْ ، فَالْتَجَأْتُمْ حِينَئِذٍ إِلَى قَبُولِ مَا جَاءَ بِهِ مُوسَى ، فَقُلْنَا لَكُمْ «خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ» وَهُوَ التَّوْرَاةُ «بِقُوَّةٍ» أَيْ بِجِدٍّ وَاجْتِهَادٍ لَا عَلَى وَجْهِ التَّرَاخِي «وَاذْكُرُوا» لِغَيْرِكُمْ «مَا فِيهِ» مِنَ الْأَحْكَامِ وَالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ ، وَالْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى نُبُوَّةِ مُوسَى وَمَنْ بَعْدَهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ كَيَحْيَى وَزَكَرِيَّا وَعِيسَى وَمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ «لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» اللَّهَ فِي الْحَقِّ بِأَنْ لَا تَكْتُمُوهُ ، مَهْمَا عَرَفْتُمُوهُ «ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ» أَيْ رَجَعْتُمْ عَلَى أَدْبَارِكُمْ ، وَنَكَسْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ «مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ» الْمِيثَاقِ الْغَلِيظِ ، الْمَأْخُوذِ عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ ، فَزُغْتُمْ وَحَرَّفْتُمْ وَفَعَلْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ «فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ» بِالنِّسْبَةِ لِمَا اقْتَرَفْتُمُوهُ مِنْ نَقْضِ الْعَهْدِ وَغَيْرِهِ

مِمَّا لَا يُحْصَى كَثْرَةً «لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ» وَكَأَنَّهُمْ إِلَى حَالِ الْخِطَابِ لَمْ يَتَحَقَّقْ خُسْرَانُهُمْ، وَهَذَا مِنْ حُسْنِ الْعِتَابِ فِي غَايَةٍ وَمَصْدَقُهُ الْوِدَادُ التَّامُّ بِمُجَرَّدِ انْقِيَادِهِمْ لِمَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَفِيهِ إِنْبَاءٌ مِنَ اللَّهِ عَنْ بَقَاءِ تَأَهُّلِهِمْ لِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ، وَلِهَذَا حَذَّرَهُمْ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: «وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ» لَمَّا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمُ الصَّيْدَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، فَتَجَاوَزُوا الْحُدُودَ وَاخْتَرَعُوا حِيَلًا لَا تُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، وَسَتَأْتِي قِصَّتُهُمْ، «فَقُلْنَا لَهُمْ» لَمَّا تَحَقَّقَ الِاعْتِدَاءُ مِنْهُمْ، وَاسْتَمَرُّوا عَلَيْهِ «كُونُوا» أَيْ كَوَّنَّاهُمْ «قِرَدَةً» أَيْ عَلَى صِفَةِ الْقِرَدَةِ «خَاسِئِينَ» أَيْ مَمْسُوخِينَ مَمْقُوتِينَ «فَجَعَلْنَاهَا» أَيْ آيَةَ الْمَسْخِ «نَكَالًا» أَيْ عِبْرَةً وَرَدْعًا «لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا» أَيْ لِمَنْ حَضَرَهَا وَشَهِدَهَا «وَمَا خَلْفَهَا» مِمَّنْ جَاءَ مِنْ بَعْدِهَا وَسَمِعَ بِهَا «وَمَوْعِظَةً» أَيْ تَذْكِرَةً «لِلْمُتَّقِينَ» فَيَزْدَادُونَ تُقَاةً فِي كُلِّ عَصْرٍ. ثُمَّ إِنَّ اسْتِطْرَادَ هَذِهِ الْجُمْلَةِ عَقِبَ الْعِتَابِ تَتَضَمَّنُ فَوَائِدَ مِنْهَا

إِفَادَتُنَا تَغَيُّرُ أُسْلُوبِ الْعِبَارَةِ حَالَ الْعِتَابِ، إِنْ كَانَ الْمُرَادُ مِنْهُ جَبْرَ الْخَوَاطِرِ إِلَى كَيْفِيَّةٍ أَرْفَقَ بِالْمُخَاطَبِ حَسْبَمَا يَتَضَمَّنُهُ قَوْلُهُ: (وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ، فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ) فَحَاشَاهُمْ تَعَالَى عَنِ الَّذِينَ اعْتَدَوْا فِي السَّبْتِ، وَلَوْلَا مَا يَقْتَضِيهِ الْمَقَامُ لَقَالَ وَإِذِ اعْتَدَيْتُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَكُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ، كَمَا جَاءَتْ الْعِبَارَةُ فِي مَعْرِضِ التَّوْبِيخِ (وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ). وَثَانِيًا إِنَّ فِي اسْتِطْرَادِ هَذِهِ الْقِصَّةِ عَقِبَ قَوْلِهِ: (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ) إِلَى قَوْلِهِ: (وَاذْكُرُوا) مَا فِيهِ تَهْدِيدٌ بِالْمَسْخِ بِطَرِيقٍ خَفِيٍّ إِنْ نَقَمْنُوا مِنَّا فَهُمْ بِعَدَمِ إِظْهَارِ مَا يَدُلُّ عَلَى نُبُوءَةِ مُحَمَّدٍ فِي التَّوْرَاةِ.

الإِسْتِنْبَاطُ

يُسْتَخْرَجُ مِنْ قَوْلِهِ: (وَإِذْ أَخَذْنَا) إِلَى قَوْلِهِ: (الْمُتَّقِينَ) خَمْسَةُ أَحْكَامٍ:

الْأَوَّلُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ جَمِيعَ مَنْ آمَنَ بِالْكِتَابِ إِلَّا وَأُخِذَ عَنْهُ الْمِيثَاقُ

عَنِ الْعَمَلِ بِمَا فِيهِ، وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْقُضَ مِيثَاقَهُ مَعَ اللَّهِ فَلْيَتْرُكِ الْعَمَلَ بِهِ، فَذَلِكَ يُسْتَفَادُ مِنَ الْقِصَّةِ.

الثَّانِي: عَلِمْنَا بِأَنَّ أَحْكَامَ الشَّرْعِ يَنْبَغِي الْأَخْذُ بِهَا أَنْ يَكُونَ بِقُوَّةٍ وَعَزِيمَةٍ وَحِرْصٍ، مِنْ قَوْلِهِ: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾.

الثَّالِثُ: عَلِمْنَا بِوُجُوبِ ذِكْرِ مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابُ مِنَ الْأَحْكَامِ الْمُتَوَقِّفُ فَهْمُهَا عَلَى الْخُصُوصِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾.

الرَّابِعُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَإِنْ مَعَ مَا ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ مِنَ الذِّلَّةِ وَالْمَسْكَنَةِ فَإِنَّهُ لَنْ يُسَدَّ عَنْهُمْ بَابُ التَّوْبَةِ، مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾، لِأَنَّ الْخُسْرَانَ لَا يَتَحَقَّقُ إِلَّا بِانْسِدَادِ بَابِ التَّوْبَةِ.

الْخَامِسُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ النَّاقِضَ لِعَهْدِ اللَّهِ، الْمُتَجَاسِرَ عَلَى تَغْيِيرِ أَحْكَامِ اللَّهِ هُوَ الْمُتَعَرِّضُ لِلْمَسْخِ، لِأَنَّهُ لَا مُوجِبَ لِحُلُولِهِ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا هُوَ مِنْ ذَلِكَ الْقَبِيلِ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ أَقُولُ أَنَّ:

الإشارة

في قوله: (وإذ أخذنا ميثاقكم) تشمل كل عالم بحكم الله، مبتحاش عن العمل به. قال عليه الصلاة والسلام: (ما آتى الله عالما علما إلا أخذ الميثاق عنه أن لا يكتمه) فمن أوفى بعهده من الله، فهو العالم، ومن خاب فهو الظالم، فكأنه تعالى يقول أذكروا إذ أخذنا ميثاقكم يا معاشر العلماء أن لا تكتموا علما، ولا تجاوزوا أحدا، ولا تنقضوا عهدا لعلكم تتقون، إن أكرمكم عند الله أتقاكم لا أعلمكم ولا أقراكم، فقبلتم وأقررتم، ثم توليتم عن أدباركم، ونكستم عن أعقابكم، فآثرتم الحياة الدنيا على الآخرة، واخترعتم حيلا ورخصا واهية، تتوصلون بها لأغراضكم، ظنا منكم أن الله غافل عما تعملون. ولقد علمتم ما وقع للذين اعتدوا منكم، أي من جنسكم الإنسان في السبت، لما حرمنا عليهم الاصطياد في ذلك اليوم، فجعلوا عند الشطوط حياضا تدخلها الحيتان يوم السبت ويأخذونها يوم الأحد، فمسخناهم قردة، باستعمال حيلة واحدة

فِي دِينِ اللَّهِ ، فَكَيْفَ بِمَنْ يَسْتَعْمِلُ حِيَلًا مُتَعَدِّدَةً ، فَهَذَا يُحَلِّلُ الْخَمْرَ بِدَعْوَى أَنَّ الْمُحَرَّمَ هُوَ مَا يُؤَثِّرُ فِي الْعَقْلِ ، وَالْآخَرُ يُحَلِّلُ الرِّبَا بِدَعْوَى أَنَّ الْمُحَرَّمَ مُضَاعَفَةُ أَضْعَافًا ، وَهَذَا يَسْعَى فِي كَشْفِ وَجْهِ الْمَرْأَةِ وَمُخَالَطَتِهَا الرِّجَالَ ، وَإِنْ كَانَتْ مَخْشِيَّةَ الْفِتْنَةِ ، بِدَعْوَى أَنَّ الْوَجْهَ لَيْسَ بِعَوْرَةٍ ، فَمَا أَجْرَأَهُمْ عَلَى دِينِ اللَّهِ ، فَقَدِ انْتَقَضَ الْمِيثَاقُ وَحَلَّ مَسْخُ الْقُلُوبِ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعِبَادَةَ الطَّاغُوتِ ، فَمَا أَضَرَّ هَؤُلَاءِ بِالدِّينِ . قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : (إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ بَعْدِي مُنَافِي عَالِمِ اللِّسَانِ جَاهِلِ الْقَلْبِ .

لِسَانُ الرُّوحِ

فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ) عَلَى مَا فَهِمْتُ مِنْ مُسْتَنْبَطَاتِهِ أَنَّهُ يَقُولُ أَهْلُ كِتَابِنَا إِلَى الْآنَ يَذْكُرُونَهُ وَلَا يَذْكُرُونَ مَا فِيهِ وَالْحَقُّ يَقُولُ : (وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) . ثُمَّ قَالَ فِي أَخْذِ الْمِيثَاقِ هَذَا أَنَّهُ يَصْرِفُ عِنْدَنَا غَالِبًا إِلَى مِيثَاقِ الْأَرْوَاحِ الْمَأْخُوذِ عَنْهَا يَوْمَ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ فَإِنَّهُ يَقُولُ : (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ يَا مَعَاشِرَ الْأَرْوَاحِ ، وَرَفَعْنَا

فَوْقَكُمْ طُورَ الْأَشْبَاحِ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ مِنَ الْحِسِّ الْمَضْرُوبِ عَلَى كُلِّ رُوحٍ وَنَفْسٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ، لَا تَحْتَجِبُوا بِظَاهِرِهِ عَنْ بَاطِنِهِ، قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ عَنِ النَّظَرِ فِيهِ وَاحْتَجَبْتُمْ بِظَاهِرِهِ عَنْ بَاطِنِهِ، وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ بِكُمْ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ.

التَّفْسِيرُ

ثُمَّ أَخَذَ تَعَالَى فِي سَرْدِ قِصَّةٍ جَرَتْ لِمُوسَى مَعَ قَوْمِهِ لَمَّا اشْتَبَهَ عَلَيْهِمْ أَمْرُ الْقَتِيلِ الَّذِي قَتَلَهُ بَنُو أَخِيهِ لِيَرِثُوهُ، لِكَوْنِهِ مُوسِرًا، ثُمَّ وَضَعُوهُ خَارِجَ الْمَدِينَةِ، وَجَاؤُوا يَطْلُبُونَ بِدَمِهِ، فَاخْتَلَفَتِ الْآرَاءُ، وَتَعَارَضَتِ الْحُجَجُ فِي شَأْنِ مَنْ قَتَلَهُ، فَطَلَبُوا مِنْ مُوسَى أَنْ يُحْيِيَ اللَّهُ الْمَقْتُولَ فَيُخْبِرَهُمْ عَمَّنْ قَتَلَهُ، فَسَأَلَهُ تَعَالَى أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ، فَقَلَقَ الْأَحْيَاءُ عَلَى ذَبْحِ الْبَقَرَةِ وَضَرْبِ الْمَيِّتِ بِبَعْضِهَا لِحِكْمَةٍ يَعْلَمُهَا اللَّهُ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ: «وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ» الَّذِينَ طَلَبُوا مِنْهُ إِحْيَاءَ الْمَيِّتِ «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً» إِنْ أَرَدْتُمْ ذَلِكَ «قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا» أَيْ أَتَهْزَأُ بِنَا يَا مُوسَى، فَكَيْفَ

يَكُونُ إِحْيَاءُ الْمَيِّتِ مَوْقُوفًا عَلَى ذَبْحِ الْبَقَرَةِ «قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ» أَيْ أَتَحَصَّنُ بِاللَّهِ «أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ» الْمُسْتَهْزِئِينَ بِالْمُؤْمِنِينَ «قَالُوا» إِنْ كُنْتَ كَذَلِكَ «ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ» أَيْ أَيَّ بَقَرَةٍ يُرِيدُ، وَمَا سِنُّهَا «قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ» أَيْ لَا مُسِنَّةٌ جِدًّا «وَلَا بِكْرٌ» أَيْ صَغِيرَةٌ لَمْ يَطْرُقْهَا فَحْلٌ «عَوَانٌ» أَيْ مُتَوَسِّطَةٌ «بَيْنَ ذَلِكَ» فَهَذَا هُوَ بَيَانُهَا «فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ» بِهِ، وَاتْرُكُوا شِدَّةَ الْبَحْثِ «قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا» أَصْفْرَاءُ هِيَ أَمْ سَوْدَاءُ أَمْ غَيْرُ ذَلِكَ «قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ أَنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا» أَيْ شَدِيدَةُ الصُّفْرَةِ زِيَادَةً فِي الْإِيضَاحِ «تَسُرُّ النَّاظِرِينَ» مِنْ جِهَةِ صَفَاءِ اللَّوْنِ وَكَمَالِ الِاعْتِدَالِ، وَلَمْ يَكْفِهِمْ هَذَا فِي الْبَيَانِ حَتَّى «قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ» أَعَامِلَةٌ هِيَ أَمْ سَائِمَةٌ «إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا» أَمْرُهُ «وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ» لَكَ بِذَبْحِهَا بَعْدَ هَذَا الْبَيَانِ. وَكَأَنَّهُمْ يُرِيدُونَ أَنْ تَمْتَنِعَ الْبَقَرَةُ

الْمَقْصُودَةِ بِالْعَيْنِ مِنْ جِنْسِ الْبَقَرِ، وَلَوْ فَعَلُوا عِنْدَ قَوْلِهِ: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً» اجزأتهم أَيَّ بَقَرَةٍ كَانَتْ، لَكِنَّهُمْ شَدَّدُوا فَشَدَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، حَتَّى قِيلَ أَنَّ الْبَقَرَةَ اشْتَرَوْهَا مِنْ صَاحِبِهَا بِمِلْءِ جِلْدِهَا ذَهَبًا، وَكَانَتْ لِيَتِيمٍ بَارٍّ بِوَالِدَتِهِ، فَأَغْنَاهُ اللَّهُ مِنْ أَجْلِهَا. قَالَ لَهُمْ مُوسَى جَوَابًا لِسُؤَالِهِمُ الْآخَرِ: «إِنَّهُ» تَعَالَى «يَقُولُ» لَكُمْ «إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ» أَيْ مُذَلَّلَةٌ بِكَثْرَةِ الْأَعْمَالِ بِأَنْ «تُثِيرُ الْأَرْضَ» بِالْحِرَاثَةِ «وَلَا» هِيَ «تَسْقِي الْحَرْثَ» بِأَنْ جُعِلَتْ لِسَقْيِ الْحَرْثِ «مُسَلَّمَةٌ» مِنَ الْعُيُوبِ وَالْأَعْمَالِ «لَا شِيَةَ» أَيْ لَا لَوْنَ يُخَالِطُ لَوْنَ الصُّفُورَةِ «فِيهَا». وَلَمَّا انْتَهَى إِلَى حَدِّ هَذَا الْبَيَانِ «قَالُوا» لِمُوسَى «أَلْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ» الْبَيِّنِ الَّذِي لَا خَفَاءَ فِيهِ «فَذَبَحُوهَا» بَعْدَمَا اتَّضَحَتْ عِنْدَهُمْ «وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ» أَيْ كَادُوا أَنْ لَا يَذْبَحُوهَا لِغَلَاءِ ثَمَنِهَا وَشِدَّةِ تَعَسُّفِهِمْ. ثُمَّ أَخَذَ تَعَالَى فِي ذِكْرِ الدَّاعِي لِذَبْحِ الْبَقَرَةِ فَقَالَ «وَإِذْ قَتَلْتُمْ» يَا مَعَاشِرَ الْيَهُودِ «نَفْسًا» بِغَيْرِ حَقٍّ «فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا» أَيْ اخْتَلَفْتُمْ

وَاخْتَصَمْتُمْ فِيمَنْ قَتَلَهَا، وَأَخْفَيْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ أَمْرَ الْقَاتِلِ طَمَعًا فِي الدُّنْيَا «وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ» مِنْ أَمْرِ الْقَاتِلِ وَالْمَقْتُولِ، وَلَمَّا ذُبِحَتِ الْبَقَرَةُ «فَقُلْنَا» لِبَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ مُوسَى إِنْ أَرَدْتُمْ إِحْيَاءَ الْمَقْتُولِ «اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا» وَاخْتُلِفَ فِي الْبَعْضِ هَلْ هُوَ اللِّسَانُ أَمْ غَيْرُهُ مِنَ الْأَعْضَاءِ وَلَا فَائِدَةَ فِي تَعْيِينِهِ، أَمَّا الْفَائِدَةُ تُبُوتُ الْإِحْيَاءِ مِنْ كَوْنِهَا مَوْقُوفَةً عَلَى ضَرْبِ الْمَيِّتِ بِبَعْضِ الْبَقَرَةِ «وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ» الدَّالَّةَ عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ شَيْءٌ «لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ لِلْإِيمَانِ «ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ» مِنْ بَعْدِ مَا عَلِمْتُمُوهُ مِنْ آيَةِ اللَّهِ الدَّالَّةِ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ وَتَمَامِ اقْتِدَارِهِ عَلَى الْإِحْيَاءِ وَالْإِمَاتَةِ «فَهِيَ» الْآنَ أَيِ الْقُلُوبُ «كَالْحِجَارَةِ» فِي الْقَسَاوَةِ وَالصَّلَابَةِ «أَوْ» مَعْنَاهَا بَلْ «أَشَدُّ قَسْوَةً» مِنَ الْحِجَارَةِ، وَهُوَ كَذَلِكَ بَدِيلُ قَوْلِهِ «وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا» أَيْ مَا هُوَ «يَتَفَجَّرُ مِنْهُ» أَيْ مِنَ الْحَجَرِ «الْأَنْهَارُ» وَاللَّامُ الدَّاخِلَةُ عَلَى الْمَوْصُولِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى لَمَّا

لِلِابْتِدَاءِ، وَالْأَنْهَارُ جَمْعُ نَهْرٍ، وَهُوَ عِبَارَةٌ عَنِ السَّيْلِ الْعَظِيمِ «وَإِنَّ مِنْهَا» مِنَ الْحِجَارَةِ أَيْضًا «لَمَّا يَشَّقَّقُ» أَيْ تَقَعُ فِيهِ شُقُوقٌ، «فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ» مِنْ شُقُوقِهِ عُيُونًا «وَإِنَّ مِنْهَا» مِنَ الْحِجَارَةِ «لَمَّا يَهْبِطُ» أَيْ يَنْحَدِرُ إِلَى الْأَسْفَلِ «مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ» وَهَذَا اسْتِبْعَادٌ لِمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ قَسَاوَةِ قُلُوبِهِمْ، فَكَأَنَّهُ تَعَالَى يَقُولُ مَا مِنْ شَيْءٍ فِي الْوُجُودِ إِلَّا وَهُوَ أَلْيَنُ طَبْعًا، وَأَسْهَلُ انْقِيَادًا لِلَّهِ مِنْ قُلُوبِهِمْ «وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ» مِنَ السَّيِّئَاتِ عَلَى اخْتِلَافِهَا، حَسْبَمَا تَتَضَمَّنُهَا قَسَاوَةُ الْقُلُوبِ الَّتِي هِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً.

الِاسْتِنْبَاطُ

يُسْتَخْرَجُ مِنْ قَوْلِهِ: (وَإِذْ قَالَ مُوسَى) إِلَى قَوْلِهِ (تَعْمَلُونَ) ثَمَانِيَةُ أَحْكَامٍ:

الْأَوَّلُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ قَوْمَ مُوسَى لَا يَحْمِلُونَ جَمِيعَ مَا يَأْمُرُهُمْ بِهِ عَلَى طَرِيقَةِ الْجَدِّ، فَلِهَذَا تَرَكُوا بَعْضَ الْمَأْمُورَاتِ، وَذَلِكَ يُؤْخَذُ مِنْ

قَوْلِهِ: (قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا).

الثَّانِي: عَلِمْنَا بِأَنَّ الِاسْتِهْزَاءَ بِالْمُؤْمِنِينَ لَيْسَ هُوَ مِنْ نَعْتِ الْكُرَمَاءِ، مِنْ قَوْلِهِ: (أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ).

الثَّالِثُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ سُرْعَةَ الِامْتِثَالِ لِأَمْرِ الدَّاعِي إِلَى اللَّهِ أَوْلَى مِنْ شِدَّةِ الْفَحْصِ عَنْ تَحْقِيقِ الْمَسْأَلَةِ، وَذَلِكَ يُؤْخَذُ مِنْ فَحْصِ الْإِسْرَائِيلِيِّينَ، وَعَدَمِ سُرْعَتِهِمْ لِذَبْحِ الْبَقَرَةِ.

الرَّابِعُ: عَلِمْنَا بِوُجُوبِ صَبْرِ الْمُذَكِّرِ لِأَسْئِلَةِ السَّائِلِينَ، يُؤْخَذُ مِنْ صَبْرِ مُوسَى عَلَى أَسْئِلَةِ قَوْمِهِ.

الْخَامِسُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ الْمُعَلِّمَ يَحْسُنُ مِنْهُ أَنْ يُبَالِغَ فِي تَصْوِيرِ الْمَسْأَلَةِ إِنْ لَمْ تَفْهَمْ إِلَى ثَلَاثَةِ تَصْوِيرَاتٍ، ثُمَّ يُعْرِضُ عَنِ السَّائِلِ إِنْ شَاءَ، وَذَلِكَ يُؤْخَذُ مِنِ اقْتِصَارِ قَوْمِ مُوسَى عَنِ السُّؤَالِ الثَّالِثِ وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِعِلْمِهِمْ بِمُجَاوَزَةِ حَدِّ الْإِطْنَابِ، وَكَانُوا يَتَوَقَّعُونَ إِعْرَاضَ مُوسَى عَنْهُمْ لَوْ زَادُوا.

السَّادِسُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ اسْتِرْجَاعَ الرُّوحِ لِلْبَدَنِ مِنَ الْمُمْكِنَاتِ،

وَمِنَ الْمُحْتَمَلِ أَنْ يَتَوَقَّفَ عَلَى بَعْضِ خَوَاصٍّ، قَدْ يُطْلِعُ اللَّهُ عَلَيْهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، يُؤْخَذُ مِنْ إِحْيَاءِ قَتِيلِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَتَوَقُّفِ ذَلِكَ عَلَى ذَبْحِ الْبَقَرَةِ وَالضَّرْبِ بِبَعْضِهَا.

السَّابِعُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ بَعْضَ الْقُلُوبِ قَدْ تُمَاثِلُ الْحِجَارَةَ فِي الْقَسَاوَةِ وَتَزِيدُ، مِنْ قَوْلِهِ: (ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً).

الثَّامِنُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ خَشْيَةَ اللَّهِ لَيْسَتْ مَقْصُورَةً عَلَى الْعُقَلَاءِ مِنْ خَلْقِهِ، بَلْ كُلٌّ لَهُ نَصِيبٌ بِقَدْرِ وَسِعَتِهِ، كَالْحَجَرِ وَنَحْوِهِ لَا يَعْدَمُ حَظَّهُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، وَذَلِكَ يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ: (وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ).

الإِشَارَةُ

فِي أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى الإِسْرَائِيلِيِّينَ بِذَبْحِ الْبَقَرَةِ تُومِي إِلَى الأَمْرِ بِذَبْحِ النَّفْسِ، وَإِسْتِفَاقِ أَهْلِهَا وَتَعَسُّفِهِمْ وَامْتِنَاعِهِمْ عَنْ ذَبْحِهَا أَشَدُّ مِنِ امْتِنَاعِ الإِسْرَائِيلِيِّينَ لِغَلَاءِ ثَمَنِهَا، فَهِيَ عِنْدَهُمْ أَرْفَعُ قِيمَةً مِنَ الْبَقَرَةِ عِنْدَ الإِسْرَائِيلِيِّينَ، وَإِنَّ مَعَ عِلْمِهِمْ أَنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِذَلِكَ،

قَالَ تَعَالَى: (فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ)، وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: (مُوتُوا قَبْلَ أَنْ تَمُوتُوا). لِأَنَّ فِي ذَبْحِهَا إِحْيَاءَ الْقُلُوبِ، وَفِي حَيَاتِهَا مَوْتَهُمْ وَلِهَذَا لَمَّا ذُبِحَتِ الْبَقَرَةُ قَالَ تَعَالَى: (فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا) إِشَارَةً لِلْقَلْبِ، كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى، وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ الَّتِي مِنْ أَعْظَمِهَا كُمُونُ الْأَشْيَاءِ فِي أَضْدَادِهَا، فَكَانَتْ حَيَاةُ الْقَلْبِ كَامِنَةً فِي مَوْتِ النَّفْسِ، وَالْعَكْسُ بِالْعَكْسِ، وَلِهَذَا قَالَ بَعْضُهُمْ:

فَاقْتُلُونِي يَا ثِقَاتِي ... إِنَّ فِي قَتْلِي حَيَاتِي

وَقَالَ غَيْرُهُ: فَالْمَوْتُ فِيهِ حَيَاتِي ... وَفِي حَيَاتِي قَتْلِي

وَلَمَّا كَانَ الْقَتْلُ الْمُعَبَّرُ عَنْهُ بِالْفَنَاءِ عِنْدَ الْقَوْمِ أَبْعَدَ مِنْ أَنْ يَتَحَقَّقَ لِكُلِّ مَنْ يَدَّعِيهِ فَقَدْ يَفْنَى الْإِنْسَانُ عَنْ شَيْءٍ، وَتَبْقَى لَهُ أَشْيَاءُ، فَيَحْيَى قَلْبُهُ نَوْعَ حَيَاةٍ وَإِنْ لَمْ يُدْرِكْهُ اللَّهُ بِلُطْفِهِ بِأَنْ يُفْنِيَهِ عَنِ الْكُلِّ فِي الْجُمْلَةِ، فَرُبَّ تَأْخُذُهُ تِلْكَ الْبَقِيَّةُ مِنْ نَفْسِهِ أَخْذًا وَبِيلًا، وَيَكُونُ الظَّفَرُ بِهَا ثَانِيًا عَزِيزَ الْمَنَالِ، وَإِلَى هَؤُلَاءِ الْإِشَارَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: (ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ) أَيْ مِنْ بَعْدِ الْحَيَاةِ، فَهِيَ

الآن، أي حال الخطاب، كالحجارة في الجمود والصلابة، أو أشد قسوة من الحجارة، بدليل وأن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وأن منها لما يشقق فيخرج منه الماء، وأن منها لما يهبط من خشية الله. وفي ذكره تعالى الحجارة على أصناف ثلاثة ما يشمل المقامات الثلاثة، فأهل مقام الإحسان تتفجر من قلوبهم الأنهار وأهل مقام الإيمان تشقق قلوبهم أي تنفسخ شيئاً، فيخرج منها الماء دون التفجر، وأهل مقام الإسلام يهبط من قلوبهم الماء بدون انشقاق ولا تفجير، والماء في هذا الباب عبارة عن التوحيد الخالص لله عز وجل، فهو الماء الذي منه الحياة الأبدية (وجعلنا من الماء كل شيء حي).

لسان الروح

راجعته في قوله: (وإن منها لما يهبط من خشية الله) فقال إن الخشية فرع العلم (إنما يخشى الله من عباده العلماء) قلت وكيف ذلك، قال لا تستغرب، إن ما صدر عن العلم لا يعدم حظه منه.

التفسير

قد تقدم في ذكر البقرة وبيان أوصافها ما فيه إطناب ، وحكمته تعالى لتضمن فوائد منها زيادة الإيضاح في صدق محمد صلى الله عليه وسلم بمناسبة ما يخبرهم به على التفصيل . وثانيا فيها تأس له بموسى عليهما السلام من جهة الصبر على أسئلتهم له عن أوصاف البقرة حتى لا يسأم من شدة بحث الإسرائيليين ، وثالثا فيها تسلية له عن عدم انقيادهم ، فكأنه تعالى يقول من كانت هذه جبليتهم من جهة عدم الانقياد ، حسبما اتضح في ذبح البقرة ، فلا عجب حينئذ في عدم انقيادهم لما هو أهم من ذلك ، وهذا هو المقصد الأهم من استطراد هذه القصة حسبما يتضمنه المعطوف عليها ، وهو قوله تعالى خطابا لمحمد وأصحابه : « أفتطمعون » يا معاشر المؤمنين « أن يؤمنوا لكم » اليهود « وقد كان فريق » أي طائفة « منهم » أي من أحبارهم « يسمعون كلام الله » وهو التوراة ، ويعرفون أنه كلام الله « ثم يحرفونه » أي يغيرونه ويبدلونه

«مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ» إِنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ، وَلَيْسَ ذَلِكَ مِنْهُمْ إِلَّا حَسَدًا أَنْ يَظْهَرَ مَا فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى صِفَةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَذَرًا أَنْ يَنْتَشِرَ أَمْرُهُ، وَاللَّهُ مُتِمٌّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ «وَهُمْ يَعْلَمُونَ» أَنَّ مَا فَعَلُوهُ جُرْأَةٌ عَلَى اللَّهِ، بِدَلِيلِ اعْتِرَافِهِمْ لِبَعْضِهِمْ بَعْضًا «وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا» بِمُحَمَّدٍ الْإِيمَانَ الْخَالِصَ «قَالُوا» لَهُمْ «آمَنَّا» كَمَا آمَنْتُمْ، وَإِنَّهُ النَّبِيُّ الْمُبَشَّرُ بِهِ فِي التَّوْرَاةِ «وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ» فِي مُجْتَمَعِهِمُ الْخُصُوصِيِّ، الَّذِي لَا يَطَّلِعُ عَلَيْهِمْ فِيهِ غَيْرُهُمْ «قَالُوا» لَهُمْ شَيَاطِينُهُمْ أَهْلُ الْجُحُودِ الْمَحْضِ، يَلُومُونَهُمْ عَلَى اعْتِرَافِهِمْ لِمُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِالنُّبُوَّةِ، وَيَقُولُونَ لَهُمْ «أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ» فِي التَّوْرَاةِ، وَبِمَا عَرَفْتُمُوهُ مِنْ أَوْصَافِ الْمَبْعُوثِ آخِرَ الزَّمَانِ «لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ» أَيْ لِيَحْتَجُّوا عَلَيْكُمْ بِحَدِيثِكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ «عِنْدَ رَبِّكُمْ» بِأَنَّكُمْ عَرَفْتُمْ مُحَمَّدًا بِأَوْصَافِهِ، وَجَحَدْتُمْ نُبُوَّتَهُ «أَفَلَا تَعْقِلُونَ» أَنَّ مَا فَعَلْتُمُوهُ هُوَ حُجَّةٌ عَلَيْكُمْ. وَلَمَّا أَثْبَتُوا مِنَ الْعَقْلِ لِأَنْفُسِهِمْ مَا نَفَوْهُ عَمَّنْ

تَحَدَّثَ بِأَوْصَافِ النَّبِيِّ أَتَى تَعَالَى بِمَا فِيهِ تَوْهِينٌ لِمُعْتَقَدِهِمْ فَقَالَ: «أَوَلَا يَعْلَمُونَ» أَيْ أَوَلَيْسَ يَعْلَمُونَ «أَنَّ اللَّهَ» تَعَالَى «يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ» فِي أَنْفُسِهِمْ «وَمَا يُعْلِنُونَ» مِنْ أَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ، وَلَكِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ذَلِكَ، وَلَوْ كَانُوا أَعْلَى بَصِيرَةً مِنْ أَوْصَافِ رَبِّهِمْ لَمَا ظَنُّوا أَنَّ كِتْمَانَ مَاعَرَفُوهُ مِنَ الْحَقِّ مُنْجِيهِمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: «وَمِنْهُمْ» أَيْ مِنَ الْيَهُودِ «أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ» أَيْ لَا يَعْرِفُونَ «الْكِتَابَ» وَهُوَ التَّوْرَاةُ حَتَّى يُجَادِلُوا فِيهِ «إِلَّا أَمَانِيَّ» يُمَنُّونَهُمْ بِهَا أَحْبَارُهُمْ فَأَخَذُوهَا مِنْهُمْ عَلَى سَبِيلِ التَّقْلِيدِ، وَلَيْسُوا عَلَى يَقِينٍ مِنْ أَمْرِهِمْ، «وَإِنْ هُمْ لَا يَظُنُّونَ» فِيمَا يُعَارِضُونَهُ مِنَ الْحَقِّ، وَبِمُنَاسَبَةِ مَاذَكَرَهُ تَعَالَى مِنْ أَنَّ فِي الْيَهُودِ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ يَتَلَقَّوْنَهَا مِنْ أَحْبَارِهِمْ. وَمِنْ جُمْلَةِ جُرْأَتِهِمْ عَلَى اللَّهِ أَنْ كَانُوا يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ طِبْقَ أَغْرَاضِهِمْ، ثُمَّ يَقُولُونَ لِلْعُمُومِ أَنَّ مَافِيهَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، فَقَالَ تَعَالَى: «فَوَيْلٌ» هِيَ كَلِمَةُ وَعِيدٍ وَتَهْدِيدٍ «لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ» لِلْأُمِّيِّينَ الَّذِينَ

لَا يَعْرِفُونَ الْكِتَابَ «هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ» فَأَنْصِتُوا هَلْ فِيهِ مَا يَلْزَمُنَا بِمُتَابَعَةِ هَذَا النَّبِيِّ، أَوْ فِيهِ مِمَّا يُطَابِقُ أَوْصَافَهُ، أَوْ يُطَابِقُ مَا جَاءَ بِهِ وَيَفْعَلُونَ ذَلِكَ «لِيَشْتَرُوا» أَيْ يَنَالُونَ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ «بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا» مِنْ أَعْرَاضِ الدُّنْيَا وَالْكُلُّ فِي جَانِبِ اللَّهِ قَلِيلٌ «فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ» مِنَ الِافْتِرَاءِ عَلَى اللَّهِ «وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ» مِنْ أَعْرَاضِ الدُّنْيَا فِي مُقَابَلَةِ مَا يَكْتُبُونَ.

الِاسْتِنْبَاطُ

يُسْتَخْرَجُ مِنْ قَوْلِهِ: (أَفَتَطْمَعُونَ) إِلَى قَوْلِهِ (يَكْسِبُونَ) سَبْعَةُ أَحْكَامٍ:

الْأَوَّلُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ الْيَهُودَ أَبْعَدُ الطَّوَائِفِ عَنِ الْإِيمَانِ بِمَا جَاءَ بِهِ الْإِسْلَامُ، مِنْ قَوْلِهِ: (أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ) إِلَى آخِرِهِ.

الثَّانِي: عَلِمْنَا بِأَنَّ الْمَتْلُوَّ عَلَيْهِ كِتَابُ اللَّهِ فَهُوَ كَالسَّامِعِ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَهْمَا عَقَلَهُ مِنَ اللَّهِ، مِنْ قَوْلِهِ: (يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ).

الثَّالِثُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ فِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ كَانَ مُنَافِقًا مَعَ النَّبِيِّ، مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾ إِلَى آخِرِهِ.

الرَّابِعُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ الْيَهُودَ كَانُوا لَا يَرَوْنَ تَعَلُّقَ كَلِمَةٍ تَعَالَى بِالْجُزْئِيَّاتِ، مِنْ قَوْلِهِ: ﴿قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾.

الْخَامِسُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ الْكِتَابِيَّ لَا يُشْتَرَطُ فِيهِ أَنْ يَكُونَ مِمَّنْ يُحْسِنُ الْكِتَابَةَ، مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ﴾.

السَّادِسُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ الْأُمِّيِّينَ مِنْهُمْ لَيْسُوا عَلَى يَقِينٍ بِمَا يُخْبِرُهُمْ بِهِ أَحْبَارُهُمْ فِي شَأْنِ الْإِسْلَامِ، مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾.

السَّابِعُ: عَلِمْنَا بِتَشْدِيدِ الْوَعِيدِ عَلَى مَنْ يَتَنَاوَلُ كِتَابَ اللَّهِ طِبْقَ الْأَغْرَاضِ ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ..﴾ إِلَى آخِرِهِ.

الْإِشَارَةُ

تَتَّسِعُ فِي أَهْلِ الْكِتَابِ لِيَدْخُلَ كُلُّ مَنْ يَتَنَاوَلُ كِتَابَ اللَّهِ أَوْ سُنَّةَ رَسُولِهِ طِبْقَ الْأَغْرَاضِ حَسَدًا مِنْ عِنْدِهِ، أَوْ لِيَصِلَ بِذَلِكَ لِلْأَغْرَاضِ

وَهَذِهِ الطَّائِفَةُ أَبْعَدُ مِنْ أَنْ تَنْقَادَ لِلْحَقِّ وَلَوْ عَايَنَتْهُ ، وَبِهَذَا الْإِعْتِبَارِ يَكُونُ الْخِطَابُ رَاجِعًا لِأَهْلِ الْخُصُوصِيَّةِ ، وَعَلَيْهِ فَنَصِيرُ الْمَعْنَى أَتَطْمَعُونَ يَامَعَاشِرَ الْعُلَمَاءِ بِاللَّهِ أَنْ يُؤْمِنَ لَكُمُ الْفُسَّاقُ مِنْ بَعْضِ الْقُرَّاءِ بِعُلُومِكُمُ الْوَهْبِيَّةِ وَأَسْرَارِكُمُ الْغَيْبِيَّةِ ، الَّتِي جَلَّتْ أَنْ تَكُونَ مُبَاحَةً لِهَؤُلَاءِ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ، وَيَعْرِفُونَ سُنَّةَ رَسُولِهِ وَمَا فِيهِمَا مِنَ الدَّلَالَةِ ، عَلَى أَنَّ فِي الشَّرِيعَةِ عُلُومًا غَيْبِيَّةً ، وَعَلَى أَنَّ لَهَا فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ حَمَلَةً ، ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ بِالتَّأْوِيلِ الْوَاهِيَةِ ، وَيُصَرِّفُونَهُ بِالْأَقَاوِيلِ الْخَالِيَةِ حَسَبَ أَغْرَاضِهِمْ ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ مُخْطِئُونَ فِي مَا فَعَلُوهُ ، وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا بِسِرِّ الْخُصُوصِيَّةِ قَالُوا آمَنَّا مِثْلَ إِيمَانِكُمْ ، فَنَحْنُ لَا نُنْكِرُ وُجُودَ الْبَاقِيَاتِ ، وَإِذَا خَلَى بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ بِأَنِ انْفَرَدُوا مَعَ شَيَاطِينِهِمُ الْمُنْكِرِينَ مَا عَلَيْهِ الْقَوْمُ ، كَأَفْرَادِ الْمُعْتَزِلَةِ ، وَمَنْ فِيهِ رَائِحَةُ الْقَدَرِيَّةِ ، قَالُوا لَهُمْ أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَعَرَفْتُمُوهُ ، لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، أَوَلَا يَعْلَمُ هَؤُلَاءِ السُّفَهَاءُ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ

وَلَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ لَمَا قَالَ الْبَعْضُ مِنْهُمْ أَنَّ عِلْمَ اللَّهِ لَا يَتَعَلَّقُ بِالْجُزْئِيَّاتِ وَمِنْهُمْ أَيْ مِنْ هَذِهِ الطَّائِفَةِ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ، تَلَقَّوْهَا مِنْ رُؤَسَائِهِمْ، فَتَعَلَّقُوا بِهَا، فَتَجِدُهُمْ يُجَادِلُونَ فِي مِثْلِ ذَلِكَ، وَيَسْتَدِلُّونَ بِمَنْ يَتَنَاوَلُ كِتَابَ اللَّهِ أَوْ سُنَّةَ رَسُولِهِ عَلَى نَفْيِ ذَلِكَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَارِغُونَ مِنَ الْأَعْمَالِ الشَّرْعِيَّةِ، فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ، ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا، فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ، وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ.

لِسَانُ الرُّوحِ

سَأَلْتُهُ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ: أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ، وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ، فَمَا هُوَ مُوجِبُ اسْتِبْعَادِ إِيمَانِهِمْ مَعَ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنِ اسْتِمَاعِ كَلَامِ اللَّهِ، فَقَالَ مَنْ سَقَطَ مِنْ أَعْلَى دَرَجَةِ الْمُكَالَمَةِ، فَلَا يَرْضَى بِحَضِيضِ الْإِيمَانِ، فَإِنَّهُ يَسْتَنْكِفُ أَنْ يَكُونَ مُؤْمِنًا بَعْدَ أَنْ كَانَ مُحْسِنًا، فَيَفُوتُهُ خَيْرُ الْمَقَامَيْنِ، الْأَوَّلُ بِاضْطِرَارٍ، وَالثَّانِي بِاخْتِيَارٍ.

التَّفْسِير

«وَقَالُوا» أَيِ الْيَهُودُ، أَحْبَارُهُمْ لِجُهَّالِهِمْ، تَثْبِيتًا لَهُمْ لَمَّا بَلَغَهُمْ مِنْ زَوَاجِرِ الْقُرْآنِ وَوَعِيدِهِ مَا أَخْجَلَهُمْ «لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ» فِي الْآخِرَةِ «إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ» أَيْ لَا يَلْحَقُنَا عَذَابُهَا إِلَّا أَيَّامًا قَلَائِلَ، عَلَى زَعْمِهِمْ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، مُدَّةَ عِبَادَةِ آبَائِهِمُ الْعِجْلَ وَبِهَذِهِ الْمُنَاسَبَةِ فَلَا تَضُرُّنَا عَدَمُ مُتَابَعَتِنَا لِمُحَمَّدٍ، وَإِنْ كَانَ عَلَى حَقٍّ، فَقَالَ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «قُلْ» لَهُمْ عَلَى سَبِيلِ الْاِسْتِفْهَامِ التَّوْبِيخِيِّ «أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا» وَمِيثَاقًا عُهِدَ لَكُمْ بِهِ أَنَّ النَّارَ لَا تَمَسُّكُمْ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ «فَلَا يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ» فِي مَا أَوْجَبَهُ عَلَى نَفْسِهِ بِمُقْتَضَى قَوْلِهِ أَنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ «أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ» صِحَّةً إِلَّا ظَنًّا، وَالظَّنُّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا «بَلَىٰ» إِنَّ مُقْتَضَى الْوَاقِعِ هُوَ «مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَاتُهُ» مِنْ كُلِّ الْوُجُوهِ، كَمَا أَحَاطَتْ بِالْيَهُودِ، إِلَى أَنْ حَرَّفُوا كَلَامَ اللَّهِ، وَبَدَّلُوا

مَا أَنْزَلَ اللَّهُ، وَنَقَضُوا الْعُهُودَ، وَتَعَدَّوا الْحُدُودَ «فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ» وَسُكَّانُهَا «هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» أَيْ مَاكِثُونَ، رَدًّا عَلَى قَوْلِهِمْ لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ. وَلَمَّا صُدَّتْ عَلَيْهِمُ الْأَبْوَابُ مِنْ كُلِّ الْوُجُوهِ اسْتَلْفَتَهُمْ تَعَالَى لِبَابِ التَّوْبَةِ، فَإِذَا هُوَ لَيْسَ بِمَسْدُودٍ فَقَالَ: «وَالَّذِينَ آمَنُوا» وَإِنْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ، وَأَحْرَى مِنْ قَبْلُ «وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» فِيمَا يَسْتَقْبِلُهُمْ مِنْ بَقِيَّةِ الْعُمْرِ «أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ» وَسُكَّانُهَا «هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ».

الِاسْتِنْبَاطُ

يُسْتَخْرَجُ مِنْ قَوْلِهِ: (وَقَالُوا) إِلَى قَوْلِهِ (خَالِدُونَ) خَمْسَةُ أَحْكَامٍ:

الْأَوَّلُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ الْأَوْلَى لِلْمُؤْمِنِ أَنْ لَا يَتَحَكَّمَ عَلَى اللَّهِ فِي مَا يَفْعَلُهُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، مِنْ قَوْلِهِ: (وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ).

الثَّاني : عَلِمْنَا بِأَنَّ الْوَاجِبَ عَلَى مَنْ لَمْ يُعَاهِدِ اللَّهَ لَهُ بِشَيْءٍ يَأْمَنُ بِهِ خَوْفَهُ أَنْ يَكُونَ دَائِمًا عَلَى وَجَلٍ، بِحَيْثُ لَا يَقْطَعُ عَلَى نَفْسِهِ بِالنَّجَاةِ، مِنْ قَوْلِهِ: ﴿قُلِ اتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ﴾.

الثَّالِثُ : عَلِمْنَا بِمَنْعِ الْقَوْلِ عَلَى اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ، مِنْ قَوْلِهِ: ﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

الرَّابِعُ : عَلِمْنَا بِأَنَّ الْمَعَاصِيَ إِذَا تَرَاكَمَتْ قَدْ تُفْضِي بِصَاحِبِهَا إِلَى مَا يُوجِبُ الْخُلُودَ فِي النَّارِ، مِنْ قَوْلِهِ: ﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَاتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

الخَامِسُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ الإِيمَانَ وَصَالِحَ الأَعْمَالِ مُوجِبَانِ لِلْخُلُودِ فِي دَارِ النَّعِيمِ، إِنْ لَقِيَ الْعَبْدُ اللَّهَ بِهِمَا، مِنْ قَوْلِهِ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ إِلَى آخِرِهِ.

الإِشَارَةُ

تُشْفِقُ مِنْ أَنْ يَدْخُلَ الْجَاهِلِيَّةَ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ فِي الضَّمِيرِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾ حَسْبَمَا هُوَ الْجَارِي عَلَى أَلْسِنَةِ السُّفَهَاءِ، مِنْ جِهَةِ مَا بَلَغَهُمْ أَنَّ الْمُؤْمِنَ لَا يُخَلَّدُ

فِي النَّارِ، وَحَيْثُ كَانَ كَذَلِكَ فَمَا هِيَ إِلَّا أَيَّامٌ مَعْدُودَاتٌ، وَعَلَيْهِ فَلَا تَصِيرُ الْمَعْصِيَةُ مَعَ الْإِيمَانِ وَهُوَ كَذَلِكَ غَيْرَ أَنَّهُ مِنَ الْمُحْتَمَلِ أَنْ يَتَنَاوَلَهُمْ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلِ اتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا﴾ بِحَيْثُ عَهِدَ لَكُمْ بِالْخُصُوصِ أَنْتُمْ بِأَنْفُسِكُمْ، لَا تَدْخُلُونَ النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ، أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ، بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَاسْتَرْسَلَ فِيهَا، وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ، وَاسْتَغْرَقَ فِيهَا، فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ. لِأَنَّهَا تُفْضِي بِهِمْ إِلَى الرَّدَى - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - لِأَنَّ الْأَصْلَ فِي الْكُفْرِ الِاسْتِرْسَالُ فِي الْمَعَاصِي. قَالَ تَعَالَى فِي قَتْلِ بَنِي إِسْرَائِيلَ الْأَنْبِيَاءَ ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ فَجَعَلَ الْمَعَاصِيَ سَبَبًا لِمَا وَصَلُوا إِلَيْهِ.

لِسَانُ الرُّوحِ

فِي قَوْلِهِ: ﴿قُلِ اتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا﴾ قَالَ لَا يُعَاهِدُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا لِعَبْدِهِ بِالنَّجَاةِ، إِلَّا إِذَا لَمْ تَبْقَ لَهُ بَقِيَّةٌ فِي الْأَرَاضِينَ وَلَا

فِي السَّمٰوَاتِ.

التَّفْسِيرُ

فِيمَا سَيَذْكُرُهُ تَعَالَى تَنْبِيهٌ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَتَوْبِيخٌ لِلْيَهُودِ بِفِعْلِ أَسْلَافِهِمْ. قَالَ تَعَالَى: «وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ» أَيْ عَهِدْنَا لَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ، وَقُلْنَا لَهُمْ فِي ذَلِكَ الْعَهْدِ «لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ» وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا «وَبِالْوَالِدَيْنِ» كُونُوا مُحْسِنِينَ لَهُمْ «إِحْسَانًا» بِأَنْ تُعَامِلُوهُمْ بِكُلِّ الْبِرُورِ «وَذِي الْقُرْبَى» كَذَلِكَ مِنْ جِهَةِ الْإِحْسَانِ، فُرُوعٌ وَأُصُولٌ «وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ» وَهَكَذَا سَائِرُ الضُّعَفَاءِ، لَا تُعَامِلُوهُمْ إِلَّا بِاللِّينِ وَالتَّوَاضُعِ «وَقُولُوا لِلنَّاسِ» عَامَّةً «حُسْنًا» وَبِالْأَخَصِّ مَنْ أَرَدْتُمْ هِدَايَتَهُ، فَلَا تُخَاطِبُونَهُ إِلَّا بِالْمُسَاعَفَةِ، وَلَا تُجَادِلُونَهُ إِلَّا بِالْمُلَاطَفَةِ، وَقُلْنَا لَهُمْ فِي ذَلِكَ الْعَهْدِ أَيْضًا «وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ» الَّتِي فَرَضَهَا اللَّهُ عَلَيْكُمْ بِشُرُوطِهَا «وَآتُوا الزَّكَاةَ» الَّتِي وَجَبَتْ عَلَيْكُمْ فِي أَمْوَالِكُمْ «ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ» يَا مَعَاشِرَ الْيَهُودِ، أَنْتُمْ وَأَسْلَافُكُمْ، عَنْ جَمِيعِ الْعُهُودِ

وَنَقَضْتُمْ كُلَّ الْمَوَاثِيقَ «إِلَّا قَلِيلًا مِنكُمْ» وَهُمُ الَّذِينَ آمَنُوا وَأَسْلَمُوا مَعَ مُحَمَّدٍ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ «وَأَنتُمْ» خِطَابٌ لِمَنْ لَمْ يُسْلِمْ مِنَ الْيَهُودِ «مُعْرِضُونَ» عَنْ جَمِيعِ الْعُهُودِ وَالْمَوَاثِيقِ الَّتِي عَرَفْتُمْ بِأَنَّهَا أُخِذَتْ عَنْكُمْ فِي التَّوْرَاةِ، فَمَا لَكُمْ لَا تَتَّقُونَ.

الإِسْتِنْبَاطُ

يُسْتَخْرَجُ مِنْ قَوْلِهِ: (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ) إِلَى قَوْلِهِ: (مُعْرِضُونَ) أَرْبَعَةُ أَحْكَامٍ:

الْأَوَّلُ: عَلِمْنَا أَنَّ مَنْ دَخَلَ فِي شَرْعٍ فَقَدْ أَوْثَقَ نَفْسَهُ بِالْعَمَلِ بِهِ، فَذَلِكَ مِيثَاقُهُ مَعَ اللَّهِ، فَلْيَحْذَرْ مِنْ نَقْضِهِ. مِنْ قَوْلِهِ: (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ) إِلَى آخِرِهِ.

الثَّانِي: عَلِمْنَا بِأَنَّ بِرَّ الْوَالِدَيْنِ هُوَ أَهَمُّ شَيْءٍ فِي الدِّينِ، وَذَلِكَ يُؤْخَذُ مِنْ عَطْفِهِ عَلَى الْإِيمَانِ بِاللَّهِ. مِنْ قَوْلِهِ: (أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا).

الثَّالِثُ: عَلِمْنَا بِأَنَّهُ يَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ إِذَا كَانَ لَهُ حَظٌّ فِي

الإِحْسَانِ أَنْ يَصْرِفَهُ لِلْوَالِدَيْنِ، ثُمَّ لِقَرَابَتِهِ الْمُتَّحِدِينَ مَعَهُ فِي الدِّينِ، ثُمَّ إِلَى أَيْتَامِ الْمُؤْمِنِينَ، ثُمَّ إِلَى ضُعَفَائِهِمْ، ثُمَّ لِلنَّاسِ عُمُومًا، بِقَطْعِ النَّظَرِ عَنْ جِنْسِيَّتِهِمْ، وَإِذَا لَمْ يَتَعَدَّ إِحْسَانُهُ إِلَى مِثْلِ ذَلِكَ بِالْفِعْلِ، فَقَدْ يَتَعَيَّنُ بِالْقَوْلِ، وَكُلُّ ذَلِكَ يُسْتَفَادُ مِنْ تَرْتِيبِ الْمِيثَاقِ الْمَأْخُوذِ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَاخْتِتَامِهِ بِحُسْنِ الْقَوْلِ لِعُمُومِ النَّاسِ.

الرَّابِعُ: عَلِمْنَا بِتَعَذُّرِ الْوَفَاءِ بِهَذَا الْعَهْدِ عَلَى عَامَّةِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ جِهَةِ الْمُوَاسَاةِ لِلْقُرَبَاءِ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ، وَالْإِحْسَانُ بِالْقَوْلِ لِعُمُومِ النَّاسِ، فَلِهَذَا لَمْ يُؤْخَذْ مِنْهُمْ فِي صَرِيحِ الْقُرْآنِ، إِنَّمَا طَرَقَهُمْ عَلَى سَبِيلِ الْحِكَايَةِ، رَحْمَةً مِنْهُ تَعَالَى بِهِمْ، فَمَنْ تَأَسَّى بِهِ فَهُوَ الْمُحْسِنُ، وَمَنْ لَا فَهُوَ مُؤْمِنٌ عَلَى كُلِّ حَالٍ.

الإِشَارَةُ

لَدَى تَرَى الْمِيثَاقَ الْمَأْخُوذَ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي التَّوْرَاةِ بِأَعْظَمَ مِنَ الْمِيثَاقِ الْمَأْخُوذِ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ فِي الْقُرْآنِ، فَهُوَ يَتَضَمَّنُ الْأَمْرَ لَكُمْ مَعَاشِرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا، وَذِي

الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ، وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا، وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَآتُوا الزَّكَاةَ. فَهَذِهِ شَرِيعَتُنَا الْمُحَمَّدِيَّةُ، فَمَنْ سَارَ عَلَيْهَا فَهُوَ مُحَمَّدِيُّ النِّسْبَةِ، وَمَنْ تَوَلَّى عَنْ شَيْءٍ مِمَّا تَضَمَّنَهُ، يُخْشَى عَلَيْهِ أَنْ يَشْمَلَهُ الضَّمِيرُ. مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾ عَصَمَنَا اللَّهُ وَالْمُسْلِمِينَ.

لِسَانُ الرُّوحِ

فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ يَقُولُ الْمَقُولُ الْحَسَنُ مَا كَانَ حَسَنَ الْمَآلِ، لِكَوْنِهِ حَسَنًا فِي الْحَالِ، وَإِلَّا لَاتَّسَعَتِ الْمُدَاهَنَةُ وَتَعَطَّلَتِ الشَّرِيعَةُ.

التَّفْسِيرُ

وَبَعْدَ مَا قَدَّمَ تَعَالَى مِنْ صِفَةِ الْيَهُودِ مَا أَغْلَبُهُ مُتَعَلِّقٌ بِفِعْلِ أَسْلَافِهِمْ، مِنْ نَقْضِ الْعُهُودِ وَالْمَوَاثِيقِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، بَاشَرَ الْآنَ الْمُعَاصِرِينَ لِنَبِيِّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِمَا هُوَ فِعْلُهُمْ، حَتَّى لَا تَكُونَ لَهُمْ مَنْدُوحَةٌ فِي نَفْيِهِ عَنْهُمْ، فَقَالَ تَعَالَى تَذْكِيرًا لِلنَّبِيِّ وَتَوْبِيخًا لَهُمْ:

« وَإِذْ أَخَذْنَا » أي أذكروا أخذنا عنكم « مِيثَاقَكُمْ » في التوراة، حيث قلنا لكم فيه « لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ » بقتل بعضكم بعضا، ظلما وعدوانا « وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ » ، أي لا تتسببون في إخراج بعضكم بعضا من مساكنكم « ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ » بهذا الميثاق بأنه أخذ عنكم، واعترفتم به « وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ » الآن على أنفسكم بذلك « ثُمَّ أَنْتُمْ » مع ذلك الإعتراف « هَؤُلَاءِ » نداء بإسقاط الياء يتناول المشار إليهم « تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ » أي شارعين في قتال بعضكم بعضا « وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ » وتخربونها، وتفعلون بهم أشد ما يفعل العدو بعدوه، أو زيادة على ذلك « تَظَاهَرُونَ » أي تتعاونون على قتلهم وإخراجهم وتستعينون بالغير « عَلَيْهِمْ » حالة كونهم ملتبسين « بِالْإِثْمِ » في ذلك الفعل، وهو عبارة عن كل فعل تشمئز منه النفوس، ولا تطمئن إليه القلوب « وَالْعُدْوَانِ » وهو عبارة عن التجاوز في الظلم، أو ليس هذا من نقضهم الميثاق الذي أخذ عنهم، ثم إن القصة تتضح بإيرادها

وَبَيَانُهَا أَنَّ بَنِي قُرَيْظَةَ وَبَنِي النَّضِيرِ فِرْقَتَانِ مِنَ الْيَهُودِ قُرْبَ الْمَدِينَةِ، كَانَتِ الْحَرْبُ بَيْنَهُمَا سِجَالًا، فَانْتَصَرَتْ كُلُّ فِرْقَةٍ عَلَى أُخْتِهَا بِطَائِفَةٍ مِنَ الْعَرَبِ، فَقُرَيْظَةُ حَالَفُوا الْأَوْسَ، وَالنَّضِيرُ حَالَفُوا الْخَزْرَجَ وَعَادَتْ كُلُّ فِرْقَةٍ تَتَظَاهَرُ عَلَى أُخْتِهَا بِحُلَفَائِهَا، وَتَفْعَلُ بِهَا مَا هُوَ الْمَذْكُورُ فِي الْآيَةِ، وَكَانَتِ التَّوْرَاةُ تُحَرِّمُ عَلَيْهِمْ مِثْلَ ذَلِكَ. قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ «أَخَذَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَرْبَعَةَ عُهُودٍ: تَرْكَ الْقَتْلِ، وَتَرْكَ الْإِخْرَاجِ، وَتَرْكَ الْمُظَاهَرَةِ وَفِدَاءَ أُسَرَائِهِمْ، فَأَعْرَضُوا عَنْ كُلِّ مَا أُمِرُوا إِلَّا الْفِدَاءَ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: «وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى» فِي أَيْدِي عَدُوِّهِمْ «تُفَادُوهُمْ» أَيْ تَفْدُوهُمْ بِالْمَالِ، قَائِلِينَ أَنَّ الْفِدَاءَ أَوْجَبَهُ اللَّهُ عَلَيْنَا، أَوَلَيْسَ هَذَا مِنَ التَّنَاقُضِ فِي مَكَانٍ، فَمَا بَالُكُمْ تَفْعَلُونَ مَعَ بَعْضِكُمْ مَا تَقَدَّمَ، وَهُوَ أَيِ الشَّأْنُ إِنَّهُ «مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ» مِنْ دِيَارِهِمْ، وَقَتْلُهُمْ، وَالْمُظَاهَرَةُ عَلَيْهِمْ، فَتَرَكْتُمُ الْعُهُودَ الثَّلَاثَةَ وَعَمِلْتُمْ بِالْفِدَاءِ «أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ» أَنَّهُ مِنَ اللَّهِ، وَهُوَ الْفِدَاءُ «وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ» وَهُوَ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ مِنَ

الْقَتْلِ وَالْإِخْرَاجِ وَالتَّظَاهُرِ، فَكَأَنَّهُ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ « **فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ** » يَا مَعَاشِرَ الْيَهُودِ « **إِلَّا خِزْيٌ** » وَهِيَ عِبَارَةٌ جَامِعَةٌ لِلذُّلِّ وَالْهَوَانِ وَالْفَضِيحَةِ، يَلْحَقُ مَنْ يُؤْمِنُ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَيَكْفُرُ بِبَعْضٍ « **فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** » وَقَدْ حَصَلَ لَهُمْ مِنْهُ أَوْفَرُ نَصِيبٍ « **وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ** » أَيْ يَصِيرُونَ « **إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ** » الَّذِي يَعْلَمُهُ اللَّهُ، ثُمَّ أَتَى بِمَا فِيهِ مُبَالَغَةٌ فِي التَّهْوِيلِ فَقَالَ: « **وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ** » مِنْ أَعْمَالِهِمْ الَّتِي مِنْ جُمْلَتِهَا أَنْ يُؤْمِنُوا بِبَعْضِ الْكِتَابِ، وَيَكْفُرُوا بِبَعْضٍ « **أُولَئِكَ** » الْمَوْصُوفُونَ بِنَقْضِ الْعَهْدِ هُمُ « **الَّذِينَ اشْتَرَوُا** » أَيْ آثَرُوا وَاسْتَبْدَلُوا « **الْحَيَاةَ الدُّنْيَا** » الْفَانِيَةَ « **بِالْآخِرَةِ** » الْبَاقِيَةِ فَبِئْسَ مَا فَعَلُوهُ « **فَلَا يُخَفَّفُ** » اللَّهُ « **عَنْهُمْ** » فِي الْآخِرَةِ « **الْعَذَابَ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ** » فِي الدُّنْيَا، أَيْ يَمْنَعُونَ مِمَّا لَزِمَهُمْ مِنَ الْخِزْيِ صِبْغَةُ اللَّهِ، إِلَّا إِذَا انْتَقَلُوا مِنَ الْيَهُودِيَّةِ إِلَى الْإِسْلَامِ.

الْإِسْتِنْبَاطُ: يُسْتَخْرَجُ مِنْ قَوْلِهِ: « وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ » إِلَى

قَوْلِهِ: ﴿وَيَنْصُرُونَهُ﴾ ثَلاثَةُ أَحْكَامٍ:

الأَوَّلُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُرِيدُ مِنَ المُؤْمِنِ العَمَلَ بِهَذَا المِيثَاقِ المَأْخُوذِ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، أَنْ لا يَسْفِكُوا دِمَاءَهُمْ، وَلا يُخْرِجُوا أَنْفُسَهُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ، وَلا يَظْهَرُوا عَلَى بَعْضِهِمْ بِأَعْدَائِهِم، وَإِنْ لَمْ يَأْخُذْ هَـذَا المِيثَاقَ عَنَّا فِي صَرِيحِ الأَمْرِ بِهِ، وَمَا ذَلِكَ إِلاَّ رَحْمَةً مِنْهُ تَعَالَى، حَيْثُ أَدْرَجَهُ فِي قَالَبِ الحِكَايَةِ، إِذْ لَوْ أُخِذَ عَنَّا لَنَقَضْنَاهُ حَسَبَ الوَاقِعِ فِي صَدْرِ الإِسْلامِ وَالآنَ.

الثَّانِي: عَلِمْنَا بِأَنَّ العَمَلَ بِبَعْضِ المَأْمُورَاتِ مَعَ عَدَمِ اجْتِنَابِ المَنْهِيَّاتِ قَدْ لا يُعَدُّ إِيمَانًا. مِنْ قَوْلِهِ: (أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ) وَمَا ذَلِكَ إِلاَّ أَنَّهُمْ فَعَلُوا بَعْضَ المَأْمُورَاتِ مَعَ عَدَمِ اجْتِنَابِ المَنَاهِي.

الثَّالِثُ: عَلِمْنَا بِتَشْدِيدِ الوَعِيدِ عَلَى مِثْلِ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ. مِنْ قَوْلِهِ: (فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ) إِلَى آخِرِهِ.

الإِشَارَةُ: يَتَحَقَّقُ مِنَ الآيَةِ تَهْوِيلٌ يَتَعَدَّى أَمْرُهُ إِلَى غَيْـر

الإِسْرَائِيلِيِّينَ، عَلَى مَا يَتَضَمَّنُهُ مَعْنَى الْمَوْصُولِ، مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾. إِلَّا أَنَّنَا إِذَا تَحَقَّقْنَا الْمُشَارَ إِلَيْهِ نَجِدُهُ لَيْسَ هُوَ إِلَّا فِعْلَ بَعْضِ الْوَاجِبَاتِ، وَهُوَ الْفِدَاءُ مَعَ عَدَمِ اجْتِنَابِ الْمَنْهِيَّاتِ، وَهِيَ: الْقَتْلُ وَالْإِخْرَاجُ وَالتَّظَاهُرُ وَهَذِهِ الصِّفَةُ قَدْ تَحَقَّقَ فِي غَيْرِ الْيَهُودِ مِنْ فِعْلِ بَعْضِ الْمَأْمُورِيَّةِ مَعَ عَدَمِ اجْتِنَابِ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ. وَعَلَيْهِ فَإِنَّهُ كَانَ جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ، وَالْمُلْتَجَأُ إِلَى اللَّهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ. وَالَّذِي أَدْهَى مِنْ هَذَا تَعْبِيرُهُ تَعَالَى عَمَّنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ بِأَنَّهُ يُؤْمِنُ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَيَكْفُرُ بِبَعْضٍ.

اللَّهُمَّ إِنَّكَ شَاهِدٌ عَلَى أَنِّي أُومِنُ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ، وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي مِنَ التَّقْصِيرِ، مِنْ جِهَةِ الْأَخْذِ بِجَمِيعِ مَا فِيهِ، فَلَا تَجْعَلْ مَا هُوَ مِنْ عَمَلِ أَبْدَانِنَا مُخِلًّا بِإِيمَانِنَا، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ

لِسَانُ الرُّوحِ

فِي قَوْلِهِ :« فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ » يَقُولُ إِنَّ الِاسْمَ الْمَوْصُولَ جَاءَ بِشُمُولِ الْعَذَابِ لَوْلَا أَن قيده كاف الخطاب .

التَّفْسِيرُ

ثُمَّ أَخَذَ تَعَالَى فِي ذِكْرِ جِنَايَةٍ يَتَعَلَّقُ مُعْظَمُهَا بِفِعْلِ أَسْلَافِ الْيَهُودِ ، مَعَ بَقَاءِ الْحَظِّ الْوَافِرِ مِنْهَا لِمَنْ عَاصَرَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْيَهُودِ ، وَالتَّصْدِيرُ بِجُمْلَةِ الْقَسَمِ يُشْعِرُنَا بِأَهَمِّيَّةِ الْمَذْكُورِ ، بَعْدَهَا قَالَ تَعَالَى :« وَلَقَدْ آتَيْنَا **مُوسَى** » بْنَ عِمْرَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ « **الْكِتَابَ** » وَهُوَ التَّوْرَاةَ ، نَزَلَ عَلَيْهِ جُمْلَةً وَاحِدَةً « **وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ** » أَيْ مِنْ بَعْدِ مُوسَى « **بِالرُّسُلِ** » أَيْ بَعَثْنَا رُسُلًا عَلَى آثَارِهِ ، كَثِيرَةً بَيْنَهُ وَبَيْنَ عِيسَى عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، كَيُوشَعَ وَاسْمُوعِيلَ وَشَمْعُونَ وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَشُعَيْبَ وَعُزَيْرَ وَحِزْقِيلَ وَإِلْيَاسَ وَلِيسَعَ وَيُونُسَ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى « **وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ** » جَمْعُ بَيِّنَةٍ ، وَهِيَ الْحُجَّةُ الْوَاضِحَةُ ، الدَّالَّةُ عَلَى

صِدْقِهِ، كَإِبْرَاءِ الأَكْمَهِ وَالأَبْرَصِ، وَإِحْيَاءِ المَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ خَرْقِ العَوَائِدِ «وَأَيَّدْنَاهُ» فِي جَمِيعِ ذَلِكَ، وَسَدَّدْنَاهُ وَقَوَّيْنَاهُ «بِرُوحِ القُدُسِ» المَنْفُوخِ فِيهِ مِنْهُ، فَعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ هُوَ رُوحٌ مُتَجَسِّمٌ، فَلِهَذَا يَعْمَلُ الأَعْمَالَ، وَحِكْمَةُ تَخْصِيصِهِ بِذَلِكَ دُونَ مَنْ سَبَقَهُ مِنَ الرُّسُلِ لِمَجِيئِهِ بِالنَّسْخِ لِكَثِيرٍ مِنْ أَحْكَامِ التَّوْرَاةِ، المُتَمَكِّنَةِ مِنَ القُلُوبِ أَشَدَّ صَلَابَةً مِنَ الحَدِيدِ، فَهِيَ أَبْعَدُ مِنْ أَنْ تَنْقَادَ بِالدَّلِيلِ، فَلِهَذَا جَاءَ بِالبَيِّنَاتِ وَأَمَّا مَنْ سَبَقَهُ مِنَ الرُّسُلِ لَمْ تَكُنْ بِعْثَتُهُمْ إِلَّا تَقْرِيرًا لِأَحْكَامِ التَّوْرَاةِ، فَكَانَ احْتِيَاجُهُمْ لِلْبَيِّنَاتِ أَخَفَّ مِنِ احْتِيَاجِ المَسِيحِ إِلَيْهَا، وَمَعَ ذَلِكَ فَلَا بُدَّ وَأَنْ يَكُونَ لِلرَّسُولِ مِنَ الخَوَاصِّ مَا يُبَايِنُ بِهِ مَنْ سَبَقَهُ، سُنَّةُ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ، وَلَنْ تَخْرُجَ خَوَاصُّهُ عَلَى مَا فِيهِ مُبَايِنَةٌ لِلنُّفُوسِ وَشَهَوَاتِهَا، وَلِذَا قَالَ تَعَالَى: «أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ» يَا مَعَاشِرَ اليَهُودِ «بِمَا لَا تَهْوَى» أَيْ تَشْتَهِي «أَنْفُسُكُمْ» الخَبِيثَاتُ «اسْتَكْبَرْتُمْ» فِي أَنْفُسِكُمْ عَلَى أَنْ

تُؤْمِنُوا بِمَا جَاءَكُمْ بِهِ «فَفَرِيقًا» مِنَ الرُّسُلِ «كَذَّبْتُمْ» بِمَا جَاءَكُمْ عَنْهُمْ كَمُوسَى وَعِيسَىٰ وَمُحَمَّدٍ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ «وَفَرِيقًا» مِنْهُمْ «تَقْتُلُونَ» كَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَغَيْرِهِمَا، فَإِنَّهُ لَمْ يَكْفِكُمْ فِيهِمْ مُجَرَّدُ التَّكْذِيبِ، وَهَذَا مَا اعْتَدْتُمُوهُ لِأَنْبِيَاءِ اللَّهِ وَرُسُلِهِ، وَبِمُنَاسَبَةِ مَا نَشَرَهُ الْقُرْآنُ مِنْ فَضَائِحِهِمْ نَكَّسُوا رُؤُوسَهُمْ «وَقَالُوا» لِمُحَمَّدٍ بِصِفَةِ الِاسْتِهْزَاءِ «قُلُوبُنَا غُلْفٌ» أَيْ عَلَيْهَا غِشَاوَةٌ لِأَنَّهَا مَا تَدْعُونَا إِلَيْهِ، فَرَدَّ عَلَيْهِمْ تَعَالَىٰ بِقَوْلِهِ، وَأَلْبَسَهُمْ حُلَّةً مِنْ مَقْتِهِ فَقَالَ: «بَلْ» لَيْسَتْ قُلُوبُهُمْ غُلْفًا، إِنَّمَا «لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ» أَيْ أَبْعَدَهُمْ عَنْ رَحْمَتِهِ، فَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ «فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ» أَيْ إِيمَانُهُمْ قَلِيلٌ، وَالْمِيمُ جَاءَتْ مُؤَكِّدَةً لِلْقِلَّةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الِاسْتِنْبَاطُ

يُسْتَخْرَجُ مِنْ قَوْلِهِ: «وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى ...» إِلَىٰ قَوْلِهِ: «فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ» خَمْسَةُ أَحْكَامٍ:

الْأَوَّلُ: عَلِمْنَا بِأَنَّهُ تَعَالَىٰ بَعَثَ رُسُلًا بَيْنَ مُوسَى وَعِيسَى، وَفِي الْغَالِبِ

أَنَّ شَرْعَ مُوسَى كَانَ شَرْعًا لَهُمْ، مِنْ قَوْلِهِ: «وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ».

الثَّانِي: عَلِمْنَا بِأَنَّ مَا أُوتِيَ عِيسَى مِنَ الْبَيِّنَاتِ كَانَتْ أَبْيَنَ وَأَوْضَحَ مِنْ غَالِبِ الآيَاتِ الصَّادِرَةِ عَلَى يَدِ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ. مِنْ قَوْلِهِ: «وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ».

الثَّالِثُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ الرُّسُلَ كَانَتْ فِي الْغَالِبِ تَأْتِي بِمَا لَا تَهْوَاهُ النُّفُوسُ الْخَسِيسَةُ. مِنْ قَوْلِهِ: «أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ».

الرَّابِعُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ عَدَمَ إِيمَانِ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِأَنْبِيَائِهِمْ كَانَ نَاشِئًا عَنْ كِبْرٍ. مِنْ قَوْلِهِ: «إِسْتَكْبَرْتُمْ».

الْخَامِسُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ تَعَلُّقَ الْيَهُودِ بِأَنْبِيَائِهِمْ كَانَ قَلِيلًا، بِالنِّسْبَةِ لِجَرَاءَتِهِمْ عَلَيْهِمْ. مِنْ قَوْلِهِ: «فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ».

الإِشَارَةُ

فِي تَخْصِيصِ مُوسَى بِالْكِتَابِ، وَعِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ، مَعَ أَنَّ لِعِيسَى كِتَابًا، كَمَا أَنَّ لِمُوسَى بَيِّنَاتٍ تُفِيدُ أَنَّهُ تَعَالَى مَكَّنَ لِمُوسَى فِي شَهَادَةِ الظَّوَاهِرِ مَا لَمْ يُمَكِّنْ فِيهِ لِعِيسَى، وَمَكَّنَ لِعِيسَى فِي غَيْبِ

السَّرَائِرِ مَالَمْ يَكُنْ فِيهِ لِمُوسَى ، وَتُفِيدُ أَيْضًا أَنَّ الرُّسُلَ الَّتِي بَيْنَهُمَا جَاءَتْ إِلَى الظَّوَاهِرِ أَمْيَلُ ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي حَقِّ مُوسَى : (وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ) ، فَهِيَ تَابِعَةٌ لِآثَارِ مُوسَى لَا غَيْرَ . ثُمَّ أَقُولُ : إِنَّ النُّبُوءَةَ مَعَ الْبَوَاطِنِ أَجْمَلُ ، وَهِيَ مَعَ الظَّوَاهِرِ أَكْمَلُ ، وَكِلَاهُمَا بِانْفِرَادِهِ لَا يَعْمَلُ ، وَلِهَذَا لَمَّا انْتُزِعَتِ النُّبُوءَةُ مِنَ الْمَسِيحِيِّينَ بَقِيَ مَا يَقْتَضِي الْإِلْحَادَ ، وَلَمَّا انْتُزِعَتْ مِنَ الْإِسْرَائِيلِيِّينَ بَقِيَ الْجُمُودُ وَالْعِنَادُ ، لِأَنَّ الظَّوَاهِرَ بِانْفِرَادِهَا تَتَضَمَّنُ الْقَسْوَةَ التَّامَّةَ وَالْجُمُودَ الْمَحْضَ ، وَهُمَا نَتَائِجُ الْغَشَاوَةِ الَّتِي تَقَعُ عَلَى الْقَلْبِ ، الْمُشَارِ لَهَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ) .

لِسَانُ الرُّوحِ

مُتَرْجِمًا عَنِ الْبَيِّنَاتِ الَّتِي آتَاهَا اللهُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَقَالَ هِيَ مِنَ الْبَيَانِ ، أَيِ الْإِظْهَارِ ، وَلَا تَكُونُ الْبَيِّنَةُ بَيِّنَةً إِلَّا إِذَا كَانَتْ ظَاهِرَةً فِي نَفْسِهَا مُظْهِرَةً لِغَيْرِهَا ، وَلَا تُضْرَبُ بِهَذَا الْإِعْتِبَارِ إِلَّا لِلصِّفَةِ الْأَزَلِيَّةِ . وَكَوْنُهُ تَعَالَى آتَى عِيسَى إِيَّاهَا ، أَيْ ظَهَرَ فِيهِ بِهَا

بِمَعْنَىٰ صَارَ لَهُ سَمْعًا وَبَصَرًا وَيَدًا وَرِجْلًا، حَسْبَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ، فَكَانَ يَعْمَلُ الْأَعْمَالَ بِصِفَةِ اللَّهِ لَا بِصِفَتِهِ، حَتَّى كَانَ يَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ. وَهَلْ تَرَىٰ أَنَّ فِعْلَهُ هَذَا كَانَ بِالْقُدْرَةِ الْحَادِثَةِ فَكَلَّا، لِعِيسَىٰ وَلَا قُدْرَتِهِ. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ وَالْقُدُسُ هُوَ اللَّهُ. أَيْ ظَهَرْنَا فِيهِ بِرُوحِنَا، وَطَوَيْنَاهُ فِي وُجُودِنَا. وَبِهَذِهِ الْمُنَاسَبَةِ قَالَ: أَنَا رُوحُ اللَّهِ وَكَلِمَتِهِ، أَيْ ذَاتُهُ وَصِفَتُهُ. وَلَا يَتَّهِمُ الْحَصْرَ إِلَّا جَاهِلٌ بِصِفَةِ الْإِطْلَاقِ، وَمَا عَلَيْهِ إِذَا لَمْ تَفْهَمِ الْبَقَرُ.

التَّفْسِيرُ

وَلَمَّا ذَكَرَ تَعَالَىٰ مِنْ وَصْفِ الْيَهُودِ أَنَّهُمْ قَلِيلٌ مَا يُؤْمِنُونَ بِمَا لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ أَتَىٰ بِحُجَّةِ ذَلِكَ فَقَالَ: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ﴾ بِوَاسِطَةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿كِتَابٌ﴾ وَهُوَ الْقُرْآنُ ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ﴾ أَيْ مُعَضِّدٌ لِلتَّوْرَاةِ، وَمُصَدِّقٌ لِمَا أَخْبَرَ بِهِ ﴿وَكَانُوا﴾ الْيَهُودُ ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أَيْ مِنْ قَبْلِ بِعْثَتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَنُزُولِ الْقُرْآنِ ﴿يَسْتَفْتِحُونَ﴾

أَيْ يَسْأَلُونَ مِنَ اللَّهِ الْفَتْحَ وَالنَّصْرَ «عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا» بِدِينِهِمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَيَقُولُونَ: اللَّهُمَّ افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ، وَانْصُرْنَا عَلَيْهِمْ بِالنَّبِيِّ الْمَبْعُوثِ آخِرَ الزَّمَانِ، الَّذِي نَجِدُ نَعْتَهُ فِي التَّوْرَاةِ «فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا» فِي التَّوْرَاةِ، أَيْ جَاءَهُمُ الْمَوْصُوفُ بِتِلْكَ الْأَوْصَافِ «كَفَرُوا بِهِ» أَيْ جَحَدُوهُ حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ، وَقَالُوا لَيْسَ هُوَ الْمُبَشَّرَ بِهِ، لِمَجِيئِهِ عَلَى خِلَافِ مَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ. قَالَ تَعَالَى: «فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ» بِرَسُولِهِ، الَّذِينَ يَجْحَدُونَ الْحَقَّ بَعْدَ ظُهُورِهِ، وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمُ اشْتَرَوْا أَنْفُسَهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ «بِئْسَ مَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ» أَيْ بِئْسَ شَيْئًا الْمُشْتَرَى بِهِ، وَالْمَخْصُوصُ بِالذَّمِّ هُوَ: «أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ» مِنَ النُّبُوَّةِ وَالْكِتَابِ، وَالْحَالَةُ أَنَّ كُفْرَهُمْ هَذَا «بَغْيًا» أَيْ جَوْرًا. فَهُوَ مُجَرَّدُ حَسَدٍ وَاسْتِنْكَافٍ مِنْهُمْ «أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ» فَإِنَّهُ إِنْ كَانَ ذَلِكَ يَتَعَدَّى الْفَضْلُ وَالنُّبُوءَةُ إِلَى الْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ. وَالْإِسْرَائِيلِيَّةُ

لا ترضى أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده «فباؤوا» أي انصرفوا عن الإيمان، ورجعوا «بغضب من الله» حل بهم بسبب كفرهم بمحمد زادهم «على غضب» كان متعلقا بهم بما نكروه من نبوة عيسى وغيره من الرسل «وللكافرين» برسل الله «عذاب» يوم القيامة «مهين» أي يهانون بسببه، ويخلدون في النار من أجله.

الإستنباط

يستخرج من قوله: (ولما جاءهم) إلى قوله: (مهين) أربعة أحكام:

الأول: علمنا بأن اليهود كانوا على خبرة من بعثة الرسول آخر الزمان. من قوله: (وكانوا يستفتحون من قبل على الذين كفروا).

الثاني: علمنا بأن أوصاف محمد كانت على طبق ما كان معلوما عندهم في التوراة. من قوله: (فلما جاءهم ما عرفوا

كَفَرُوا بِهِ) فِي التَّوْرَاةِ، أَيْ جَاءَهُمُ الْمَوْصُوفُ بِتِلْكَ الْأَوْصَافِ (كَفَرُوا بِهِ).

الثَّالِثُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ كُفْرَ الْيَهُودِ بِمُحَمَّدٍ كَانَ حَسَدًا مِنْهُمْ أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى غَيْرِ بَنِي إِسْرَائِيلَ. مِنْ قَوْلِهِ: (أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ...) إِلَخ.

الرَّابِعُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ التَّحْجِيرَ عَلَى اللَّهِ أَنْ يُنَزِّلَ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ حَظَّةٌ وَخِيمَةُ الْعَوَاقِبِ. مِنْ قَوْلِهِ: (فَبَاؤُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ) وَمَا ذَلِكَ إِلَّا بِسَبَبِ مَا سَبَقَ مِنْ بَغْيِهِمْ وَجَرَاءَتِهِمْ عَلَى اللَّهِ.

الإِشَارَةُ

لَا تَزَالُ هَذِهِ النَّزْعَةُ كَامِنَةً فِي أَفْرَادٍ يَعْرِفُونَ مِنْ أَوْصَافِ الْقَائِمِ حَسْبَمَا يَجِدُونَهُ مَنْصُوصًا عَلَيْهِ، وَيَحْفَظُونَهُ مِنْ أَخْلَاقِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ هُوَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ أَمْرِهِ، إِمَّا بِمَنَامٍ أَوْ بِإِلْهَامٍ، أَوْ بِمَا هُوَ أَوْضَحُ مِنْ ذَلِكَ، مِمَّا تَشْمَلُهُ الْأَذْوَاقُ، وَيُنْكِرُونَ ذَلِكَ وَيَجْحَدُونَ مَا هُنَالِكَ حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ، وَبَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ

مِنْ عِبَادِهِ . قَالَ بَعْضُهُمْ: مَا هِيَ إِلَّا نَزْعَةٌ شَيْطَانِيَّةٌ إِسْرَائِيلِيَّةٌ، صَدَّقُوا بِإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَلَمْ يَرَوْهُمَا، وَكَذَّبُوا بِمُحَمَّدٍ وَهُوَ مَعَهُمْ

لِسَانُ الرُّوحِ

فِي قَوْلِهِ: (فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ) يَقُولُ أَنَّ (مَا) هُنَا نَافِيَةٌ لِمَعْرِفَةِ الْحَقِيقَةِ، إِذْ لَوْ عَرَفُوا مَا فِيهِ مَا كَفَرُوا بِهِ .

التَّفْسِيرُ

ثُمَّ أَتَى تَعَالَى بِجُمْلَةٍ فِيهَا مِنْ حُسْنِ أُسْلُوبِ الدَّعْوَةِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَشِدَّةِ تَعَصِّي وَصَلَابَةِ الإِسْرَائِيلِيِّينَ . فَأَمَّا حُسْنُ الدَّعْوَةِ فَيُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ» أَيْ لِلْيَهُودِ، وَالْقَائِلُونَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ، وَالْمَقُولُ هُوَ «آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ» ، وَوَجْهُ الْمُلَاطَفَةِ فِي الدَّعْوَةِ يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِمْ : آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ، وَكَانَ الْمُتَبَادَرُ مِنَ الْفَهْمِ أَنْ يَقُولَ : آمِنَّا، فَيَدْخُلُ الإِيمَانُ بِالْقُرْآنِ فِيمَا أَنْزَلَ اللَّهُ، فَلِلَّهِ دَرُّ الْمُؤْمِنِينَ مَا أَشْفَقَهُمْ عَلَى الْعِبَادِ، فَإِنَّهُمْ أَرَادُوا أَنْ يَأْخُذُوا الْيَهُودَ بِطَرَفٍ خَفِيٍّ إِلَى الإِيمَانِ، لِأَنَّهَا كَلِمَةٌ أَدْعَى فِي

قَبُولِ الإِيمَانِ، مِنْ قَوْلِهِمْ: آمِنُوا بِالقُرْآنِ. وَشِدَّةُ دَهَاءِ المُخَاطَبِ مِنْهُ تفطن لِمُرَادِ المُخَاطِبِينَ «قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا»، وَهَذَا أَبْلَغُ فِي التَّعَطُّفِ، لِأَنَّهُمْ لَوْ قَالُوا لَا نُؤْمِنُ، لَزِمَ كُفْرُهُمْ بِالتَّوْرَاةِ، وَلَوْ قَالُوا آمَنَّا، لَزِمَ إِيمَانُهُمْ بِالقُرْآنِ، فَأَتَوْا بِكَلِمَةٍ جَامِعَةٍ بَيْنَ الإِيمَانِ وَالكُفْرِ، فَإِنَّهُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا بِالتَّوْرَاةِ «وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ» وَالمَكْفُورُ بِهِ «وَهُوَ الحَقُّ» أَيِ القُرْآنُ حَقٌّ، وَمِنَ الحَقِّ نَزَلَ حَالَةَ كَوْنِهِ «مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ» مِنَ التَّوْرَاةِ، مُقَرِّرًا لِلْكَثِيرِ مِنْ أَحْكَامِهِ، وَلَمَّا كَانَ هَذَا الشِّقُّ مِنَ الإِيمَانِ لَمْ يَنْجَحْ بِانْفِرَادِ فَأَرَادَ تَعَالَى أَنْ يَنْفِيَهُ عَلَيْهِمُ البَتَّةَ، وَإِنَّهُ لَوْ صَحَّ لَهُمُ الإِيمَانُ بِالتَّوْرَاةِ لَصَحَّ بِالقُرْآنِ، قَالَ لِمُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «قُلْ» لَهُمْ «فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» بِالتَّوْرَاةِ كَمَا تَزْعُمُونَ، فَهَلْ وَجَدْتُمْ أَنْتُمْ وَأَسْلَافُكُمْ قَتْلَ الأَنْبِيَاءِ مُحَلَّلًا فِيمَا أَنْزَلَ اللَّهُ؟ وَلَمَّا كَانَ قَدْ يُقَالُ لَمْ تَصِحَّ نُبُوءَتُهُمْ عِنْدَ مَنْ قَتَلُوهُمْ أَتَى تَعَالَى بِمَا لَا مَنْدُوحَةَ عَنْهُ، فَقَالَ: «وَلَقَدْ جَاءَكُمْ

مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ» الواضحةِ الدَّالَّةِ على صِدْقِهِ، وَقَدِ اعْتَرَفْتُمْ بِرِسَالَتِهِ «ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ» إلهًا «مِنْ بَعْدِهِ» أَيْ مِنْ ذَهَابِهِ إِلَى الْمُكَالَمَةِ «وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ» فِي اتِّخَاذِكُمْ لَهُ، لَا حُجَّةَ لَدَيْكُمْ تَعْتَمِدُونَ عَلَيْهَا، فَمَاذَا تَقُولُونَ، فَهَلْ هَذَا مِنْ مُقْتَضَيَاتِ الْإِيمَانِ بِالتَّوْرَاةِ؟ فَبِئْسَ الْإِيمَانُ إِيمَانُكُمْ. ثُمَّ أَتَى تَعَالَى ثَانِيًا بِمَا فِيهِ تَكْذِيبٌ لِدَعْوَاهُمُ الْإِيمَانَ بِالتَّوْرَاةِ، فَقَالَ: «وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ» أَيِ اذْكُرُوا إِذْ أَخَذْنَا عَلَيْكُمُ الْعَهْدَ عَنِ الْعَمَلِ بِمَا فِي التَّوْرَاةِ بَعْدَمَا هَدَّدْنَاكُمْ «وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ» عِنْدَمَا أَعْرَضْتُمْ عَنْ قَبُولِهِ، وَبَعْدَمَا أَقْرَرْتُمْ قُلْنَا لَكُمْ: «خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ» فِيهِ مِنَ الْأَحْكَامِ «بِقُوَّةٍ» وَحَزْمٍ «وَاسْمَعُوا» أَمْرَ اللَّهِ، مُطِيعِينَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ «قَالُوا سَمِعْنَا» الْقَوْلَ «وَعَصَيْنَا» الْأَمْرَ بِمَا اسْتَوْلَى عَلَيْهِمْ مِنَ الْقَسَاوَةِ وَحَلَّ بِهِمْ مِنَ الشَّقَاوَةِ «وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ» أَيِ امْتَلَأَتْ قُلُوبُهُمْ بِحُبِّ الْعِجْلِ كَمَا تَمْتَلِئُ مِعْدَةُ الظَّمْآنِ مِنَ الْمَاءِ، فَلِهَذَا لَا يَتَمَكَّنُ مِنْهَا الْإِيمَانُ، وَكَانَ ذَلِكَ «بِكُفْرِهِمْ» بِالتَّوْرَاةِ، إِذْ لَوْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ لَمَا عَبَدُوا الْعِجْلَ وَلَا تَمَكَّنَتْ

مَحَبَّتُهُ مِنْ قُلُوبِهِمْ «قُلْ» لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ إِنْ كَانَ مَا فَعَلْتُمُوهُ مِنْ قَتْلِ الْأَنْبِيَاءِ وَعِبَادَةِ الْعِجْلِ، وَغَيْرُ ذَلِكَ هُوَ مِمَّا يَأْمُرُ بِهِ الْإِيمَانُ «بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ» أَيْ بِئْسَ شَيْئًا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ، وَبِئْسَ الْإِيمَانُ إِيمَانُكُمْ «إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» بِهَذِهِ الصِّفَةِ، فَكَأَنَّهُ تَعَالَى يُرِيدُ أَنْ يَنْفِيَ عَنْهُمُ الْإِيمَانَ بِالْمَرَّةِ، وَإِنْ مِنْ قَبْلِ بِعْثَتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَلَمْ نَدْرِ هَلْ أَرَادَ بِذَلِكَ الْإِيمَانَ الْكَامِلَ أَوِ الْإِيمَانَ مِنْ أَصْلِهِ، فَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ.

الْإِسْتِنْبَاطُ

يُسْتَخْرَجُ مِنْ قَوْلِهِ: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ) إِلَى قَوْلِهِ: (بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) خَمْسَةُ أَحْكَامٍ:

الْأَوَّلُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ التَّصْدِيقَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِجْمَالًا كَافٍ فِي الْإِيمَانِ بِالْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ. مِنْ قَوْلِهِ: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ) إِذْ لَوْ قَالُوا آمَنَّا لَصَحَّ مِنْهُمْ.

الثَّانِي: عَلِمْنَا بِأَنَّ الْأَوْلَى عَدَمُ حَصْرِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى أَنْبِيَائِهِ

لِئَلَّا يَخْرُجَ مَا هُوَ دَاخِلٌ، وَلَا نَدْفَعَ مَا لَا تَصِلُ إِلَيْهِ مَعْلُومَاتِنَا مِمَّا بَلَغَنَا مِنْ ذَلِكَ الْقَبِيلِ، لِئَلَّا يَكُونَ هُوَ الْحَقَّ، إِنَّمَا نُوكِلُ أَمْرَهُ إِلَى اللَّهِ، وَذَلِكَ يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ﴾.

الثَّالِثُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ الْإِيمَانَ الْمُسْتَفَادَ مِنَ الْبَيِّنَاتِ الْحِسِّيَّاتِ كَخَرْقِ الْعَوَائِدِ لَا يُؤْمَنُ عَلَى صَاحِبِهِ الِارْتِدَادُ، حَسْبَمَا وَقَعَ لِقَوْمِ مُوسَى بَعْدَ مَا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ اتَّخَذُوا عِجْلًا بَعْدَهُ، بِخِلَافِ مَا لَوْ كَانَ مُسْتَفَادًا عَنْ بَيِّنَةٍ عَقْلِيَّةٍ.

الرَّابِعُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ تَلَقَّوْا أَحْكَامَهُمْ مِنْ مُوسَى عَنْ كُرْهٍ، وَالْمُكْرَهُ عَلَى الشَّيْءِ لَا يَدُومُ عَلَيْهِ. مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾.

الْخَامِسُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ حُبَّ الشَّيْءِ يَمْنَعُ مِنْ مُلَاحَظَةِ عُيُوبِهِ، وَإِنْ كَانَ كُلُّهُ عُيُوبًا، كَحُبِّ بَنِي إِسْرَائِيلَ. مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ

الْإِشَارَةُ

تُحَذِّرُنَا أَنْ يَتَجَمَّدَ الْإِنْسَانُ عَلَى مَا وَصَلَ إِلَيْهِ فَهْمُهُ مِنْ ظَوَاهِرِ

الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَيُنكِرُ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ، مِمَّا هُوَ مِنْ شَأْنِهِ الخَفَاءُ عَنِ العُمُومِ، فَقَدْ يُنكِرُ الحَقَّ الثَّابِتَ المُشَارَ لَهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: (وَهُوَ الحَقُّ مُصَدِّقًا) وَمُوَافِقًا لِمَا مَعَهُمْ مِنَ الظَّوَاهِرِ، وَيَكُونُ الأَخْذُ بِالظَّوَاهِرِ غَيْرَ كَافٍ فِي الإِيمَانِ، مَعَ نُكْرَانِ البَوَاطِنِ، وَأَمَّا مَعَ العَجْزِ عَنْهَا فَقَدْ يَصِحُّ مَعَ النَّقْصِ، وَفِي مَجِيءِ الحَقِّ مِنْ وَرَاءِ الظَّوَاهِرِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنْ لَا وُصُولَ إِلَيْهِ مِنْ بَابِهَا «وَأْتُوا البُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا» وَمَنْ زَعَمَ أَنَّهُ أَخَذَ بِالظَّوَاهِرِ، عَامِلًا بِمَا فِيهَا، فَهُوَ بِهَذِهِ المُنَاسَبَةِ غَيْرُ مُحْتَاجٍ لِمَا بَطَنَ فِيهَا، فَيُقَالُ لَهُ: لَمْ تَأْخُذْ بِهَا وَلَا عَمِلْتَ بِمَا فِيهَا، وَلَوْ عَمِلْتَ بِمَا عَلِمْتَهُ لَأَوْرَثَكَ اللَّهُ عِلْمًا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُهُ. وَيُقَالُ لَهُمْ أَيْضًا: لَوْ كُنْتُمْ آخِذِينَ بِالظَّوَاهِرِ مُؤْمِنِينَ بِمَا فِيهَا لَسِرْتُمْ عَلَى سُنَنِ الأَنْبِيَاءِ فَتَسْتَبْدِلُونَ الرَّغْبَةَ بِالزُّهْدِ، وَالهَزْلَ بِالجِدِّ، وَالبَطَالَةَ بِالكَدِّ، وَالضِّدَّ بِالضِّدِّ، إِلَى مَا لَا نِهَايَةَ مِنْ أَوْصَافِكُمُ الخَسِيسَةِ مَعَ أَوْصَافِكُمُ النَّفِيسَةِ، وَلَكِنَّكُمْ قَتَلْتُمُوهُمْ بِهَذَا الإِعْتِبَارِ، وَأَحْيَيْتُمْ سُنَنَ الشَّيَاطِينِ، فَلَا جَرَمَ يَتَنَاوَلُكُمْ قَوْلُهُ تَعَالَى: «فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» وَكُلُّ

ذَلِكَ مِمَّا أُشْرِبَ فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ مَحَبَّةِ الدُّنْيَا، الْمُسْتَفَادَةِ مِنْ قَوْلِهِ: «وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ».

لِسَانُ الرُّوحِ

فِي قَوْلِهِ: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ» لِلنُّفُوسِ السُّفْلِيَّةِ مِنْ حَضْرَةِ الْمَلَإِ الْأَعْلَى «آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ» بِالْمَعْنَى تَنْزِلْ سَوَاءً إِلَيْكُمْ أَوْ لِغَيْرِكُمْ مِنَ الْعُقُولِ الْعُلْوِيَّةِ وَالْأَرْوَاحِ النُّورَانِيَّةِ وَالْقُلُوبِ الصَّافِيَةِ «قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا» وَتَحَقَّقْنَاهُ مِنْ أَنْفُسِنَا، وَبَلَغَنَاهُ بِعُقُولِنَا «وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ» أَيِ الْمَكْفُورُ بِهِ الَّذِي هُوَ مِنْ وَرَاءِ مَا عَرَفُوهُ، وَإِذَا كَانَ مَا كَفَرُوا بِهِ حَقًّا، وَمَا عَرَفُوهُ حَقًّا عَادَ لِكُلِّ حَقًّا عِنْدَ مَنْ عَرَفَ الْحَقَّ بِهَذَا الِاعْتِبَارِ، لِأَنَّ الْبَاطِنَ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ مِنَ الظَّوَاهِرِ.

التَّفْسِيرُ

وَلَمَّا كَانَتْ دَعْوَةُ أَحْبَارِ الْيَهُودِ أَوْسَعَ وَأَعْرَضَ مِنْ فِعْلِهِمْ، وَمِنْ

ذَلِكَ يَرَوْنَ كَأَنَّ الْجَنَّةَ خُلِقَتْ بِالْخُصُوصِ مِنْ أَجْلِهِمْ، أَتَى تَعَالَى بِمَا فِيهِ تَبْكِيتٌ لَهُمْ، وَتَضْعِيفٌ لِدَعْوَاهُمْ، فَقَالَ: «قُلْ» لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ «إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْأُخْرَى» أَيِ الْجَنَّةُ وَنَعِيمُهَا «عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً» أَيْ سَالِمَةً لَكُمْ «مِنْ دُونِ النَّاسِ» عَلَى أَيِّ عَقِيدَةٍ كَانُوا «فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ» وَاسْتَبْشِرُوا بِوُرُودِهِ عَلَيْكُمْ «إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» فِي دَعْوَاكُمْ أَنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ خَالِصَةٌ لَكُمْ، فَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ أَمْرِهِ مِنْ أَنَّ الْجَنَّةَ هُيِّئَتْ مِنْ أَجْلِهِ فَلَا يَسْتَنْكِفُ مِنْ وُرُودِ الْمَوْتِ، بِأَنْ يَتَمَنَّاهُ، لِأَنَّهُ مُلَاقِيهِ، ثُمَّ أَتَى تَعَالَى بِمَا فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، فَقَالَ: «وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ» أَيْ بِسَبَبِ مَا قَدَّمُوهُ إِلَى آخِرَتِهِمْ مِنَ الذُّنُوبِ، فَكَانُوا عَلَى عِلْمٍ مِنْ مَصِيرِهِمْ، فَلِهَذَا لَا يَرْكَنُونَ لِلْمَوْتِ «وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ» وَأَيُّ ظُلْمٍ أَعْظَمُ مِنْ جُحُودِهِمُ الْحَقَّ بَعْدَ مَا عَرَفُوهُ «وَلَتَجِدَنَّهُمْ» أَيِ الْيَهُودَ «أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ» أَيْ أَشَدَّ النَّاسِ طَلَبًا لَهَا فَضْلًا عَلَى أَنْ يَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ، فَلَا تَجِدَنَّ يَهُودِيًّا إِلَّا وَإِيمَانُهُ

مِتَاعُ الدُّنْيَا، فَهُمْ أَحْرَصُ النَّاسِ مُطْلَقًا عَلَى الْحَيَاةِ «وَ» أَحْرَصُ حَتَّى «مِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا» أَيْضًا «يَوَدُّ أَحَدُهُمْ» أَيْ يَتَمَنَّى كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ «لَوْ يُعَمَّرُ» أَيْ يَعِيشُ فِي عُمْرِهِ «أَلْفَ سَنَةٍ» فِي الدُّنْيَا، وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِعِلْمِهِ بِسُوءِ الْمُنْقَلَبِ «وَمَا هُوَ» تَعْمِيرُهُ «بِمُزَحْزِحِهِ» أَيْ لَيْسَ هُوَ بِصَالِحٍ أَنْ يُزَحْزِحَهُ وَلَوْ أَدْنَى شَيْءٍ «مِنَ الْعَذَابِ» «أَنْ يُعَمَّرَ» مَا شَاءَ، فَمَصِيرُهُ إِلَى النَّارِ «وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ» فِي تَعْمِيرِهِمْ، فَيُجْزِيهِمْ بِسُوءِ أَعْمَالِهِمْ.

الإِسْتِنْبَاطُ

يُسْتَخْرَجُ مِنْ قَوْلِهِ: «قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ» إِلَى قَوْلِهِ: «بِمَا يَعْمَلُونَ» أَرْبَعَةُ أَحْكَامٍ:

الأَوَّلُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ أَبْلَغَ شَيْءٍ يَسْتَدِلُّ بِهِ الإِنْسَانُ عَلَى صَلَاحِيَّةِ نَفْسِهِ لِمَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ النِّعَمِ تَشَوُّقُهُ لِلْمَوْتِ وَالْمِتْنَانُهُ بِمَجِيئِهِ، مِنْ قَوْلِهِ: «فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ».

الثَّانِي: عَلِمْنَا بِأَنَّ الْمُوجِبَ لِعَدَمِ رِضَانَا بِالْمَوْتِ هُوَ مَا ارْتَكَبْنَاهُ مِنَ

الذُّنُوبِ . مِنْ قَوْلِهِ :« وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ» .

الثَّالِثُ : عَلِمْنَا بِأَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ هُمْ أَحْرَصُ النَّاسِ عَلَى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَحَتَّى مِنَ الْمُشْرِكِينَ . مِنْ قَوْلِهِ :« وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ».

الرَّابِعُ : عَلِمْنَا بِأَنَّ شَيْخُوخَةَ الْإِنْسَانِ وَشِدَّةَ تَعْمِيرِهِ فِي الدُّنْيَا لَمْ تُفِيدْهُ شَيْئًا فِي التَّزَحْزُحِ عَنِ الْعَذَابِ مَعَ سُوءِ الْأَعْمَالِ، مِنْ قَوْلِهِ: «أَيَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ، وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ».

الإِشَارَةُ

إِنَّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى :« قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » مَا يَتَنَاوَلُ سَائِرَ الْمُنْتَسِبِينَ ، فَلْيُحَقِّقِ الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ عَلَى هَذَا الْمِعْيَارِ الصَّادِقِ مَهْمَا سَوَّلَتْ لَهُ أَنَّهُ عَلَى قَدَمٍ رَاسِخٍ ، فَإِنْ كَانَ الْمَوْتُ بُغْيَتَهُ وَتُحْفَتَهُ حَسْبَمَا قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ :(الْمَوْتُ تُحْفَةُ الْمُؤْمِنِ) فَهُوَ الْمُؤْمِنُ حَقًّا ، وَلِهَذَا تَجِدُ حِزْبَ اللَّهِ أَرْغَبَ فِي التَّسَارُعِ إِلَى الْمَوْتِ مِنْهَا إِلَى الْحَيَاةِ ، لِعِلْمِهِمْ يَقِينًا بِمَا أَعَدَّهُ اللَّهُ لِلْمُحْسِنِينَ ، وَهَذَا هُوَ

دَلِيلُ الصِّدْقِ فِي دَعْوَاهُ، وَأَمَّا أَهْلُ الدَّعَاوِي الْكَاذِبَةِ، الَّذِينَ هُمْ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُقَيَّدُوا بِالْحَصْرِ، فَيَشْمَلُهُمْ قَوْلُهُ تَعَالَى: «وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ» مِنْ أَعْمَالِهِمُ الْمُخَالِفَةِ لِأَقْوَالِهِمْ «كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ».

لِسَانُ الرُّوحِ

فِي قَوْلِهِ: «وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا» يَقُولُ لَا يَتَمَنَّى الْمَوْتَ إِلَّا مَنْ ذَاقَهُ فِي حَيَاتِهِ، وَلِهَذَا اخْتَارَ الْمُصْطَفَى عَلَيْهِ السَّلَامُ جَانِبَ اللِّقَاءِ عَلَى الْبَقَاءِ، فَقَالَ رَجُلٌ عُرِضَتْ عَلَيْهِ الدُّنْيَا.. إِلَى آخِرِ الْحَدِيثِ.

التَّفْسِيرُ

وَلَمَّا كَانَ مِنَ الْيَهُودِ مَنْ حَاجَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي عِدَّةِ مَسَائِلَ، وَمِنْ جُمْلَتِهَا أَنْ سَأَلُوهُ عَمَّنْ يَأْتِيهِ بِالْوَحْيِ، فَقَالَ: جِبْرِيلُ، فَقَالُوا: إِنَّهُ عَدُوٌّ لَنَا لِأَسْبَابٍ، مِنْ جُمْلَتِهَا أَنَّهُ وَعَدَنَا

أَنْ لَا يَجْعَلَ النُّبُوءَةَ فِي غَيْرِنَا ، وَحَاشَا اللَّهِ أَنْ يَصْدُرَ مِنْ أَمِينِ الْوَحْيِ مِثْلُ ذَلِكَ ، فَأَنْزَلَ تَعَالَى : «قُلْ» لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ «مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ» الْمُسَخَّرِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ فَعَدَاوَتُهُ لِلَّهِ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ لَا لِجِبْرِيلَ ، لِأَنَّ جِبْرِيلَ لَا يَمْلِكُ مِنْ جِهَةِ الْوَحْيِ شَيْئًا «فَإِنَّهُ» أَيِ الْقُرْآنَ الَّذِي اسْتَفَزَّهُمْ وَعِيدُهُ ، وَآلَمَهُمْ تَهْدِيدُهُ «نَزَّلَهُ» أَيْ جِبْرِيلُ «عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ» لَا بِاخْتِيَارِهِ ، حَتَّى تَتَوَجَّهَ عَلَيْهِ الْمَلَامَةُ أَوْ تَصِحَّ عَدَاوَتُهُ حَالَةَ كَوْنِ الْقُرْآنِ «مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ» مِنَ الْكُتُبِ السَّالِفَةِ «وَهُدًى» لِمَنْ سَبَقَتْ لَهُ الْعِنَايَةُ ، فَإِنَّهُ يُهْتَدَى بِهِ لِطَرَائِقِ الْمَعَاشِ وَالْمَعَادِ «وَبُشْرَى» بِرِضْوَانِ اللَّهِ الْأَكْبَرِ «لِلْمُؤْمِنِينَ» بِهِ ، الْعَامِلِينَ بِمَا فِيهِ . وَأَمَّا مَا يَتَعَلَّقُ بِالنُّزُولِ ، وَفِي كَوْنِهِ عَلَى الْقَلْبِ ، فَالْكَلَامُ يَأْتِي عَلَيْهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ ، ثُمَّ أَنَّهُ لَمَّا كَانَتْ عَدَاوَتُهُ تَعَالَى لَا تَتَأَتَّى إِلَّا بِعَدَاوَةِ أَحِبَّائِهِ ، وَالْخُرُوجِ عَنْ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ ، وَقَدْ حَصَلَتْ مِنَ الْيَهُودِ عَلَى الْوَجْهِ الْأَكْمَلِ ، فَتَحَقَّقَتْ عَدَاوَتُهُمْ لِلَّهِ حِينَئِذٍ ، وَبِتِلْكَ الْمُنَاسَبَةِ

صدر بنفسه فقال: «مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ» مِنَ الْبَشَرِ «وَجِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ» مِنْ رُسُلِ الْمَلَائِكَةِ «فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ» وَالْمَعْنَى أَنَّ عَدَاوَةَ أَحَدٍ مِمَّا ذُكِرَ تَسْتَلْزِمُ عَدَاوَةَ الْآخَرِ، فَكَأَنَّهُ تَعَالَى يَقُولُ مَنْ كَانَ عَدُوَّ اللَّهِ بِالْخُصُوصِ مُحِبًّا لِلْمَلَائِكَةِ كَالصَّابِئِينَ عَلَى مَا قِيلَ أَنَّهُمْ يَعْبُدُونَ الْمَلَائِكَةَ، أَوْ كَانَ عَدُوًّا لِلْمَلَائِكَةِ عُمُومًا، بِأَنْ ذَكَرَهُمْ بِمَا هُمْ بَرِئُوا مِنْهُ، أَوْ كَانَ عَدُوًّا لِرُسُلِهِ مِنَ الْبَشَرِ عُمُومًا، أَوْ كَانَ عَدُوًّا لِلْبَعْضِ مِنْهُمْ، أَوْ لِلْبَعْضِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ كَجِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ مِثْلَ عَدَاوَةِ الْيَهُودِ فَهُوَ كَافِرٌ، وَاللَّهُ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ، مِنْ أَيِّ طَائِفَةٍ كَانُوا، مِمَّا ذُكِرَ وَمِمَّا لَمْ يُذْكَرُوا. ثُمَّ أَتَى تَعَالَى بِمَا فِيهِ تَثْبِيتًا لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَنْ لَا يَهْتَمَّ مِنْ إِعْرَاضِ الْيَهُودِ، فَقَالَ: «وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ» يَا مُحَمَّدُ «آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ» أَيْ وَاضِحَاتِ الدَّلَالَةِ «وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ» فَكُفْرَانُ الْفَاسِقِينَ بِهَا لَا يُنَافِي وُضُوحَهَا، بِدَلِيلِ أَنَّ مَنِ اهْتَدَى مِنْ أَجْلِهَا أَكْثَرُ مِمَّنْ كَفَرَ بِهَا وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ.

الإستنباط

يستخرج من قوله: « قل من كان عدوًا لجبريل » إلى قوله: « الفاسقون » ثلاثة أحكام:

الأول: علمنا بأن النبي كان يتلقى القرآن من جبريل تلقيًا قلبيًا، فيكون إدراكه له في الغالب بالحواس الباطنية. من قوله: « فإنه نزله على قلبك ».

الثاني: علمنا بأن عداوة الملائكة أو الرسل تستلزم عداوة الله، والمعنى أن عداوة أحدهما تستلزم عداوة الآخر. من قوله: « قل من كان عدوًا لجبريل » إلى آخره.

الثالث: علمنا بأن جميع من كفر بما جاء به محمد من أهل الكتاب إلا وهو فاسق الجارحة والاعتقاد قبل مجيء القرآن. من قوله: « ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون ».

الإشارة

تفيدنا أن محبة الله لا تكتسب إلا بمحبة أحبابه، وعداوته

لَا تَتَأَتَّى إِلَّا بِعَدَاوَتِهِمْ. جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ: «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ أَذِنْتُهُ بِالْحَرْبِ»، فَلْيَحْتَرِزِ اللَّبِيبُ مِنْ أَنْ يَسْعَى فِيمَا يُؤْذِي الْمُنْتَسِبِينَ لِلَّهِ كَمَا يَجْتَهِدُ أَنْ يَأْخُذَ الْحَقَّ حَيْثُمَا وَجَدَهُ، وَلَا يَقُولُ كَمَا قَالَتِ الْيَهُودُ لِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَوْ كَانَ الْوَحْيُ جَاءَكَ بِهِ مِيكَائِيلُ لَاتَّبَعْنَاكَ، وَلَكِنَّ جِبْرِيلَ عَدُوٌّ لَنَا. وَكَانَ الْحَقُّ مِنْهُمْ أَنْ يَأْخُذُوا الْحَقَّ مَهْمَا عَرَفُوهُ، وَلَكِنَّ الْأَغْرَاضَ قَدْ تَحُولُ عَنِ الْمُرَادِ.

التَّفْسِيرُ

وَلَمَّا كَانَ كُفْرَانُ الْيَهُودِ بِمَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ قَبِيلِ نَقْضِ الْعَهْدِ مَعَ اللَّهِ، حَسْبَمَا كَانُوا يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا، وَنَقْضُ الْعَهْدِ مِمَّا تَشْمَئِزُّ مِنْهُ النُّفُوسُ الْكَرِيمَةُ، وَلَا تَأْلَفُهُ الْقُلُوبُ السَّلِيمَةُ، ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّ ذَلِكَ مِنْ جِبِلَّتِهِمْ فَقَالَ: «**أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا**» مَعَ اللَّهِ، ثُمَّ أَنَّ الْهَمْزَةَ لِلْإِنْكَارِ، وَالْوَاوَ لِلْعَطْفِ عَلَى مَا تَقَدَّمَ «**نَبَذَهُ**» أَيْ طَرَحَهُ وَنَقَضَهُ «**فَرِيقٌ مِنْهُمْ**»، وَكَأَنَّهُ تَعَالَى يَقُولُ مَا مِنْ عَهْدٍ عَاهَدَهُ الْيَهُودُ قَدِيمًا أَوْ حَدِيثًا إِلَّا وَقَامَ فَرِيقٌ

بِنَقِيضِهِ، وَلَمَّا كَانَ ذِكْرُ الْفَرِيقِ فِيهِ مَا يُثْبِتُ عَدَمَ النَّقْضِ لِلْكَثِيرِ مِنْهُمْ، جَاءَ بِمَا يُزِيلُ الْإِبْهَامَ، فَقَالَ: «بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ» فَصَدَقَ عَدَمُ النَّقْضِ حِينَئِذٍ عَلَى الْقَلِيلِ مِنْهُمْ، فَيَدْخُلُ فِيهِ مَنْ آمَنَ بِالنَّبِيِّ «ص» وَمِنْ ذَلِكَ «وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ» وَهُوَ مُحَمَّدٌ «ص» مُرْسَلًا «مِنْ عِنْدِ اللَّهِ» إِلَيْهِمْ لِيَهْدِيَهُمْ إِلَيْهِ «مُصَدِّقٌ» وَمُوَافِقٌ «لِمَا مَعَهُمْ» مِنَ الْعِلْمِ فِي التَّوْرَاةِ بِأَوْصَافِ النَّبِيِّ الْمَبْعُوثِ آخِرَ الزَّمَانِ، سَوَاءٌ بِسَوَاءٍ «نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ» أَيِ التَّوْرَاةَ، وَرَمَوْهُ «وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ» كِنَايَةً عَنِ الْإِعْرَاضِ عَنِ الْعَمَلِ بِهِ، لَمَّا وَجَدُوهُ مُطَابِقًا لِأَوْصَافِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَأَدْبَرُوا عَنْ جَمِيعِ ذَلِكَ «كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» مِنَ التَّوْرَاةِ شَيْئًا «وَاتَّبَعُوا» أَحْبَارُ الْيَهُودِ «مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ» مِنَ السِّحْرِ «عَلَى» عَهْدِ «مُلْكِ سُلَيْمَانَ» بْنِ دَاوُودَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وَالْمَعْنَى أَنَّ الْيَهُودَ لَمَّا وَجَدُوا التَّوْرَاةَ مُطَابِقًا عَلَى نُعُوتِ مُحَمَّدٍ «ص» أَعْرَضُوا عَمَّا فِيهَا، وَالْتَفَتُوا لِبَقَايَا مَا كَانَتْ تَتْلُوهُ الشَّيَاطِينُ عَلَى عَهْدِ سُلَيْمَانَ مِنَ السِّحْرِ

لِأَنَّهُ كَانَ مُجْتَمِعًا لَدَيْهِمْ . وَبَيَانُ الْقِصَّةِ عَلَى مَا قِيلَ أَنَّ الشَّيَاطِينَ - وَهُمُ الْمُتَمَرِّدُونَ مِنَ الْجِنِّ - كَانُوا يَسْتَرِقُونَ السَّمْعَ عَلَى عَهْدِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِمُنَاسَبَةِ دُخُولِهِمْ تَحْتَ أَمْرِهِ ، وَحُضُورِهِمْ فِي مَجْلِسِهِ ، ثُمَّ يَأْتُونَ الْكَهَنَةَ بِمَا اطَّلَعُوا عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِهِ وَأَمْرِ الْمَلَائِكَةِ الْمُقْبِلِينَ عَلَيْهِ ، وَمَا هُوَ مِنْ قَبِيلِ الْمُغَيَّبَاتِ ، وَيَضُمُّونَ إِلَى ذَلِكَ أَكَاذِيبَ وَتَخْلِيطَاتٍ حَتَّى شَاعَ الْخَبَرُ فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ وَفِيمَا بَعْدَهُ أَنَّ مُلْكَ سُلَيْمَانَ كَانَ مَبْنِيًّا عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ ، وَحَاشَى لِلَّهِ « **وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ** » بِأَنِ اسْتَعْمَلَ السِّحْرَ عَلَى مَا فِي زَعْمِهِمُ الْفَاسِدِ « **وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا** » بِسَبَبِ تَمَرُّدِهِمْ وَتَضْلِيلِهِمُ الْعِبَادَ ، وَبِمَا « **يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ** » وَيَحُضُّونَهُمْ عَلَى الْعَمَلِ بِهِ ، وَإِلَّا فَمُجَرَّدُ التَّعْلِيمِ لَيْسَ بِكُفْرٍ « **وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ** » أَيْ وَيُعَلِّمُونَ النَّاسَ أَيْضًا مَا أُنْزِلَ مِنَ السِّحْرِ عَلَى الْمَلَكَيْنِ « **بِبَابِلَ** » قَرْيَةٌ بِسَوَادِ الْعِرَاقِ ، وَهُمَا : « **هَارُوتَ وَمَارُوتَ** » بَعَثَهُمَا اللَّهُ لِتَعْلِيمِ السِّحْرِ مِحْنَةً وَاخْتِبَارًا ، وَلِهَذَا « **وَمَا يُعَلِّمَانِ** » أَيِ الْمَلَكَانِ « **مِنْ أَحَدٍ** » السِّحْرَ « **حَتَّى** » يَنْصَحَانِهِ

وَ «يَقُولَا» لَهُ عَلَى سَبِيلِ التَّحْذِيرِ «إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ» لَكُمْ وَاخْتِبَارٌ فَإِيَّاكَ «فَلَا تَكْفُرْ» بِالْعَمَلِ بِهِ، وَأَمَّا عِلْمُهُ لَا يُنَافِي الْإِيمَانَ، ثُمَّ أَتَى تَعَالَى بِبَيَانِ مَا يَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا، فَقَالَ: «فَيَتَعَلَّمُونَ» النَّاسُ «مِنْهُمَا» أَيْ مِنْ هَارُوتَ وَمَارُوتَ «مَا» أَيْ شَيْئًا «يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ» فَتَحْدُثُ بَيْنَهُمَا عَدَاوَةٌ وَبُغْضٌ لِسَبَبِهِ. وَلَمَّا كَانَ الْمَقَامُ مَضَنَّةَ التَّوَهُّمِ مِنْ جِهَةِ إِسْنَادِ التَّأْثِيرِ لِلسِّحْرِ نَفَاهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِقَوْلِهِ: «وَمَا هُمْ» أَيِ السَّحَرَةُ أَيْضًا «بِضَارِّينَ بِهِ» أَيْ بِسِحْرِهِمْ «مِنْ أَحَدٍ» الْمَعْمُولُ لَهُ ذَلِكَ السِّحْرُ «إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ» إِلَّا بِتَقْدِيرِهِ، فَلَا تَأْثِيرَ لِسِحْرٍ كَغَيْرِهِ، فَلَا ضَارَّ وَلَا نَافِعَ إِلَّا اللَّهُ «وَيَتَعَلَّمُونَ» أَيِ السَّحَرَةُ «مَا يَضُرُّهُمْ» فِي آخِرَتِهِمْ «وَلَا يَنْفَعُهُمْ» فِي دُنْيَاهُمْ، فَلَوْ تَجِدَنَّ سَحَّارًا إِلَّا وَفَضِيحَتُهُ أَعْظَمُ مِنْ سِحْرِهِ، وَلَمَّا أَعْطَى تَعَالَى الْحِكَايَةَ مُسْتَحَقَّهَا اسْتَلْفَتَ الْخِطَابَ لِمَنْ وَرَدَتْ مِنْ أَجْلِهِمْ، وَهُمُ الَّذِينَ نَبَذُوا كِتَابَ اللَّهِ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ فَقَالَ: «وَلَقَدْ عَلِمُوا» أَيِ الْيَهُودُ «لَمَنِ اشْتَرَاهُ» اللَّامُ لِلْقَسَمِ، وَالضَّمِيرُ لِلسِّحْرِ، وَالْمَعْنَى

أَنَّهُمْ عَلَى عِلْمٍ بِحُكْمِ مَنِ اسْتَبْدَلَ كِتَابَ اللَّهِ بِالسِّحْرِ «مَالَهُ فِي الْآخِرَةِ» عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ «مِنْ خَلَاقٍ» أَيْ مَالَهُ حَظٌّ وَلَا نَصِيبٌ «وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ» أَيْ بِئْسَ الشَّيْءُ الَّذِي سَلَّمُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لِعَذَابِ اللَّهِ، وَالْمَخْصُوصُ بِالذَّنْبِ هُوَ اسْتِبْدَالُهُمْ كِتَابَ اللَّهِ بِمَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ.

الإِشَارَةُ

تَتَنَاوَلُ الْآيَةُ كُلَّ مَنْ نَبَذَ بِكِتَابِ اللَّهِ بِأَنْ أَدْبَرَ عِنْدَ التَّدَبُّرِ فِيهِ، وَالْوُقُوفِ مَعَ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، وَاتَّبَعَ مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ الَّذِي فِي الْغَالِبِ مِنْهَا أَكْثَرُ الْأَوْصَافِ الْوَاهِيَةِ وَالْأَسْمَاءُ الْعِبْرَانِيَّةُ، فَلْيَحْذَرْ مُتَعَاطِيهَا أَنْ يَشْمَلَهُ مَعَ الْحُكْمِ وَلَوْ جُزْؤُهُ، وَهَذَا مَا لَمْ يَتَّضِحْ صَرْفُهَا لِمَا هُوَ السِّحْرُ الْمُبِينُ، الْمُشْتَقِلُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: «فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ» وَهَذِهِ مُنَاخُ السُّفَهَاءِ مِنَ الْقُرَّاءِ وَبُخَيْتُهُمُ الْقَائِلُ فِيهِمْ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: فَسَاقُ أُمَّتِي قُرَّاؤُهَا فَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ.

التفسير

قال تعالى خطاب راجع لليهود المنكرين نبوءة محمد صلى الله عليه وسلم: «ولو أنهم آمنوا» بما جاء به القرآن «واتقوا» عقوبة الله المترتبة على كل من يجحد الحق بعد ظهوره «لمثوبة» تعرضوا لها «من عند الله» يوم القيامة «خير» لهم من نكران الحق «لو كانوا يعلمون» العلم النافع لقالوا الحق أحق أن يتبع. ولما كان الغش من جبلية اليهود لزم لهم من أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم قديما وحديثا، ومن جملة ذلك أنهم كانوا يدسون للنبي في حديثهم ما هو في الظاهر بصفة المدح وفي الباطن بعكسه، فأراد تعالى تنبيه المؤمنين عن مثل ذلك، فقال: «يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا» لنبيكم «راعنا» أي اجعل رعايتك علينا فإن اليهود تقولها معكم، وتريد بها معنى آخر في لغتهم مضمنة سبا «وقولوا انظرنا» بدل قولكم راعنا حتى لا تكون ذريعة، فإن المعنى واحد «واسمعوا» ما قلناه

لَكُمْ ، فَكَانَ الأَخْذُ بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ بَدَلَ الأُولَى عَلَى سَبِيلِ الوُجُوبِ « وَلِلْكَافِرِينَ » الْمُتَجَرِّئِينَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ « عَذَابٌ أَلِيمٌ » بِقَدْرِ جَرَاءَتِهِمْ وَطُغْيَانِهِمْ ، ثُمَّ أَتَى تَعَالَى بِمَا فِيهِ تَحْذِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَعْدَائِهِمْ ، فَقَالَ : « مَا يَوَدُّ » أَيْ يُحِبُّ « الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ » وَهُمُ الْيَهُودُ « وَلَا الْمُشْرِكِينَ » مِنَ الْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ « أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ » مُطْلَقًا ، وَبِالْأَخَصِّ مَا هُوَ كَالْوَحْيِ « مِنْ رَبِّكُمْ » فَتَكُونُ لَكُمْ بِهِ السَّعَادَةُ الأَبَدِيَّةُ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا « وَاللَّهُ » سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَلَّ إِرَادَتُهُ عَنْ مُوَافَقَةِ الأَغْرَاضِ ، فَلَهُ الاِخْتِيَارُ التَّامُّ « يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ » وَنُبُوءَتِهِ وَوِلَايَتِهِ « مَنْ يَشَاءُ » مِنْ عِبَادِهِ ، وَبِمَا شَاءَ ، وَكَيْفَ شَاءَ ، فَالنَّاسُ فِي جَانِبِ الْفَضْلِ سَوَاءٌ « وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ » الْمُمْتَنِعُ تَقْيِيدُهُ بِشَخْصٍ دُونَ الآخَرِ .

الإِشَارَةُ

فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : « مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ... » إِلَخْ

مَا يَتَنَاوَلُ كُلَّ حَسُودٍ، وَيَكُونُ الكَافُ مِنْ ضَمِيرِ المُخَاطَبِينَ شَامِلٍ لِأَهْلِ الخُصُوصِيَّةِ مُطْلَقًا فِي كُلِّ عَصْرٍ وَزَمَانٍ، وَالمُسْتَفَادُ الأَهَمُّ مِنَ الآيَةِ هُوَ عِلْمُنَا بِبُعْدِ المَشِيئَةِ عَنِ الإِرْتِبَاطِ بِالعِلَلِ وَالأَسْبَابِ، مِنْ قَوْلِهِ: « يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ »، وَلَمَّا كَانَ الوَهْمُ قَدْ يُسَلِّمُ ذَلِكَ غَيْرَ أَنَّهُ يَسْبِقُ إِلَى تَخْصِيصِ المُتَقَدِّمِينَ بِمَا يَتَعَذَّرُ فِي الإِمْكَانِ وُصُولُ المُتَأَخِّرِينَ إِلَيْهِ، نَفَاهُ تَعَالَى بِكَيْفِيَّةٍ كَادَتْ تُثْبِتُ شَيْئًا مِنْ عَكْسِهِ، بِقَوْلِهِ: « مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ». وَلَعَلَّكَ تَقُولُ أَنَّ الآيَةَ السَّابِقَةَ تَامَّةُ الإِسْتِقْلَالِ بِنَفْسِهَا، فَأَقُولُ وَهُوَ كَذَلِكَ، غَيْرَ أَنَّ الإِشَارَةَ تُؤْخَذُ مِنْ سِرِّ تَرْتِيبِ الآيِ مَعَ بَعْضِهَا، وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا العَالِمُونَ، فَمَا مِنْ آيَةٍ إِلَّا وَتَعْتَمِدُ مَا قَبْلَهَا بِطَرَفٍ إِمَّا خَفِيٌّ وَإِمَّا جَلِيٌّ.

التَّفْسِيرُ

وَمِنْ كَفَالَتِهِ تَعَالَى بِمَصَالِحِ خَلْقِهِ أَنْ رَتَّبَ الشَّرَائِعَ فِي سَابِقِ

عِلْمِهِ عَلَى مَا تَقْتَضِيهِ الْمَصْلَحَةُ الْعَامَّةُ طِبْقَ الْأَزْمِنَةِ وَالْأَمَاكِنِ، وَجَعَلَ الشَّرْعَ اللَّاحِقَ حَاكِمًا عَلَى مَا قَبْلَهُ، مُصَدِّقًا لِمَعْنَاهُ، مُنَقِّحًا لِمَبْنَاهُ، وَبِمُوجِبِ مَا جَاءَتْ بِهِ الشَّرِيعَةُ الْأَحْمَدِيَّةُ مِنْ تَحْلِيلِ بَعْضِ الْمُحَرَّمَاتِ، وَتَوْجِيبِ بَعْضِ الْمُبَاحَاتِ بِالنَّظَرِ لِلتَّوْرَاةِ وَنَحْوِهِ، فَاسْتَشْكَلَتِ الْيَهُودُ أَمْرَ النَّسْخِ، وَاسْتَبْعَدَتْ مَعْنَاهُ، وَقَالَتْ: إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْسَخُ شَرْعًا قَرَّرَهُ بِنَفْسِهِ. وَكَانَ تَمَسُّكُهُمْ بِذَلِكَ اغْتِنَامَ فُرْصَةٍ لِمُعَارَضَةِ الْقُرْآنِ، وَإِلَّا فَالتَّوْرَاةُ نَفْسُهُ نَاسِخٌ لِبَعْضِ الشَّرَائِعِ قَبْلَهُ، وَمِنْ ذَلِكَ مَا جَاءَ فِيهِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ لِنُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا خَرَجَ مِنَ الْفُلْكِ إِنِّي جَعَلْتُ كُلَّ دَابَّةٍ مُؤْكَلًا لَكَ وَلِذُرِّيَّتِكَ، مَعَ أَنَّ فِي التَّوْرَاةِ الْكَثِيرَ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ مُحَرَّمَةً عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ، وَهَذَا غَيْرُ خَفِيٍّ عَلَى بَعْضِ الْيَهُودِ وَلَكِنَّ الْعَصَبِيَّةَ أَشَدُّ مَانِعٍ فِي قَبُولِ الْحَقِّ. وَبَعْدَمَا أَنْكَرُوا وُجُودَ النَّسْخِ مِنْ أَصْلِهِ تَوَسَّعُوا فِي النَّكِيرِ، وَالْتَفَنُّوا لِلْقُرْآنِ فِي نَفْسِهِ وَقَالُوا إِنَّ مُحَمَّدًا «ص» يَأْمُرُ أَصْحَابَهُ بِأَمْرٍ ثُمَّ يَأْتِيهِمْ بِنَقِيضِهِ

وهُمْ عَلَى عِلْمٍ مِنْ أَنَّ التَّكَالِيفَ لَمْ تَأْتِ فِي صَدْرِ الإِسْلَامِ جُمْلَةً، إِنَّمَا أَتَتْ عَلَى التَّدْرِيجِ، وَمِنْهَا مَا بُدِئَ مُخَفَّفًا كَتَحْرِيمِ الخَمْرِ، وَوُجُوبِ الصَّلَاةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ. وَالحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ بِمَصَالِحِ الخَلْقِ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، فَرُبَّ مَصْلَحَةٍ فِي وَقْتٍ يَكُونُ غَيْرُهَا أَصْلَحَ مِنْهَا فِي وَقْتٍ آخَرَ، وَلَا أَصْلَحَ مِنْهَا فِي وَقْتِهَا. وَبِمُوجِبِ مَا ذُكِرَ بَيَّنَ تَعَالَى الحِكْمَةَ فِي وُجُودِ النَّسْخِ فَقَالَ: «مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا»، ثُمَّ أَقُولُ أَنَّ فِي الآيَةِ مَعْتَرَكَ تَنَازُعٍ بَيْنَ المُفَسِّرِينَ، بِاعْتِبَارِ تَوْجِيهِ القِرَاءَةِ فِي نُنْسِهَا، لِأَنَّهَا جَاءَتْ عَلَى وُجُوهٍ. وَعَلَى كُلِّ حَالٍ يَنْحَصِرُ الخِلَافُ فِي إِنْشَائِهَا، هَلْ هُوَ مَأْخُوذٌ مِنَ النِّسْيَانِ، حَسْبَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ القِرَاءَةُ لِمَنْ أَسْقَطَ الهَمْزَةَ وَضَمَّ النُّونَ، أَوْ مِنَ النِّسْءِ الَّذِي هُوَ التَّأْخِيرُ عَلَى مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ قِرَاءَةُ مَنْ فَتَحَ النُّونَ وَأَثْبَتَ الهَمْزَةَ. وَإِذَا فَرَضْنَا أَنَّهُ مِنَ النِّسْيَانِ يَحْتَاجُ إِلَى تَقْدِيرٍ، لِئَلَّا يَكُونَ وَصْمَةً فِي جَانِبِ التَّبْلِيغِ، لِأَنَّ النِّسْيَانَ إِذَا تَطَرَّقَ شَيْئًا مِنَ الأَحْكَامِ إِنْجَرَّ لِمَا فِيهَا، وَهَذَا لَا يَخْفَى ضَرَرُهُ، وَعَلَيْهِ فَيَحْمِلُ النِّسْيَانَ عَلَى ذُهُولِ الآيَةِ مِنَ القُلُوبِ بَعْدَ

رَفْعِهَا حُكْمًا وَتِلَاوَةً، فَتَكُونَ مَنْسِيَّةً بِالنَّظَرِ لِلْحِفْظِ الْعَامِّ، وَيَدْخُلُ هَذَا الْقِسْمُ فِي الشَّرَائِعِ السَّابِقَةِ وَالْأَحْكَامِ الْغَابِرَةِ الَّتِي جَاءَتْ مُوَقَّتَةً، وَلَا يُنْكِرُ فِكْرِي إِنْ مَا كَانَ مِنْ ذَلِكَ الْقَبِيلِ هُوَ مِنْ بَقَايَا شُعَاعِ التَّوْرَاةِ أَوِ الْإِنْجِيلِ، أَوْ مِنْ مُقَدِّمَةِ نُزُولِ الْقُرْآنِ لَا نَفْسِهِ، وَأَمَّا الْقُرْآنُ الَّذِي تَوَلَّى اللَّهُ حِفْظَهُ مِمَّا هُوَ كَالنِّسْيَانِ، بِقَوْلِهِ «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ» لَمْ يُنْقَصْ مِنْهُ شَيْئًا، وَلَمْ يُزَدْ فِيهِ شَيْئًا، وَهَذَا هُوَ الَّذِي ندين اللَّهَ تَعَالَى بِهِ، وَعَلَى هَذَا يَكُونُ تَقْدِيرُ الْكَلَامِ فِي الْآيَةِ مَا نَنْسَخْ مِنْ حُكْمِ آيَةٍ مَعَ بَقَاءِ تِلَاوَتِهَا، أَوْ نُنْسِهَا، بِأَنْ نَذْهَبَ بِهَا مِنَ الْقُلُوبِ، حَتَّى كَأَنَّهَا لَمْ تُنْزَلْ بِمَا نَرْفَعُهُ مِنْ حُكْمِهَا وَتِلَاوَتِهَا، فَأَتَى بِخَيْرٍ مِنْهَا مِنْ جِهَةِ مَا يَتَعَلَّقُ بِمَصَالِحِ الْعِبَادِ مِنْ حَيْثُ الزِّيَادَةِ فِي الْفَضْلِ وَالرَّشَادِ، أَوْ مِثْلِهَا فِي الْمَنْفَعَةِ. وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى فِي الْخَمْرِ الْمُنْجَرِّ فِي سِيَاقِ تَعْدِيدِ النِّعَمِ «تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا» هُوَ مِنَ الصَّلَاحِ لِأَنَّهُ أَبْلَغُ دَاعٍ فِي الِاسْتِجْلَابِ، بِالنَّظَرِ لِمَا كَانَتْ عَلَيْهِ جَفَاوَةُ الْأَعْرَابِ، وَوَصْفُهُ لَهُ تَعَالَى فِيمَا بَعْدُ بِكَوْنِهِ رِجْسًا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ هُوَ مِنْهُ

أَصْلَحُ لَهُمْ بِالنَّظَرِ لِلْغَايَةِ الْمَطْلُوبَةِ مِنْهُمْ، وَلَوْ وَضَعْتَ كُلًّا مِنَ الْآيَتَيْنِ مَكَانَ أُخْتِهَا لَتَعَطَّلَتْ فَائِدَتُهُمَا مَعًا، وَحِكْمَةُ اللَّهِ تَأْبَى ذَلِكَ. وَالْمُلَخَّصُ مِنْ هَذَا هُوَ وُجُوهُ حَمْلِنَا النِّسْيَانَ فِي الْآيَةِ إِذَا وَقَعَ مِنَ النَّبِيِّ وَعُمُومِ الصَّحَابَةِ يَكُونُ بَعْدَ رَفْعِ الْحُكْمِ وَالتِّلَاوَةِ لَا قَبْلَ ذَلِكَ، لِمَا يَتَرَتَّبُ عَلَى ذَلِكَ مِنْ نِسْيَانِ أَكْثَرِ الْأَحْكَامِ، لِأَنَّهُ مَهْمَا تَثَبَّتَ فِي شَيْءٍ صَارَ الْحُكْمُ فِيمَا بَعْدَهُ، حَسْبَمَا تَقَدَّمَ، مَعَ أَنَّهُ لَا يَتَسَنَّى وُقُوعُهُ فِي الْأَحْكَامِ بَعْدَ اشْتِهَارِهَا بَيْنَ عُمُومِ الصَّحَابَةِ. إِنَّمَا يَتَصَوَّرُ فِي اللَّفْظِ، وَأَمَّا كَوْنُ الشَّيْءِ مُحَلَّلًا أَوْ مُحَرَّمًا بَعْدَ ثُبُوتِ الْأَمْرِ بِهِ أَوِ النَّهْيِ عَنْهُ لَا يُتَصَوَّرُ ذُهُولُهُ عَنْ عُمُومِ الصَّحَابَةِ، وَزِيَادَةً أَنَّ الْمَنْسِيَّ جَاءَ أَكْثَرُهُ - إِنْ لَمْ نَقُلْ جَمِيعُهُ - مُنْحَصِرًا فِيمَا هُوَ كَالْوَعْظِ وَالتَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ، حَسْبَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الرِّوَايَةُ لِمَنْ تَتَبَّعَهَا، وَمِنْ ذَلِكَ مَا رُوِيَ عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ «ص»: إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ فَقَرَأَ: «لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ» وَمِنْ بَقِيَّتِهَا لَوْ أَنَّ ابْنَ آدَمَ سَأَلَ وَادِيًا مِنْ

مَالٍ فَأُعْطِيهِ سَأَلَ ثَانِياً، وَإِنْ سَأَلَ ثَانِياً فَأُعْطِيهِ سَأَلَ ثَالِثاً، وَلَا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابَ، وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ، وَأَنَّ ذَاتَ الدِّينِ عِنْدَ اللَّهِ الْحَنِيفِيَّةُ غَيْرُ الْيَهُودِيَّةِ وَلَا النَّصْرَانِيَّةِ، وَمَنْ يَعْمَلْ خَيْراً فَلَا يُكْفَرْ.

وَمِثْلُهُ أَيْضاً مَا قَالَهُ أَنَسٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ مِمَّا نَزَلَ فِي قُتَلَاءِ بِئْرِ مَعُونَةَ أَنْ بَلِّغُوا عَنَّا قَوْمَنَا إِنْ لَقِينَا رَبَّنَا فَرَضِيَ عَنَّا وَأَرْضَانَا.

وَمِنْ ذَلِكَ مَا ذَكَرَهُ ابْنُ مَسْلَمَةَ أَنَّ مِمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَلَا أَبْشِرُوا وَأَنْتُمُ الْمُفْلِحُونَ وَالَّذِينَ آوَوْهُمْ وَنَصَرُوهُمْ وَجَادَلُوا عَنْهُمُ الْقَوْمَ الَّذِينَ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أُولَئِكَ لَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. وَهَذَا وَمَا لَمْ يُنْقَلْ مَهْمَا ثَبَتَ نُزُولُهُ لَا مَسَاسَ لَهُ بِالْأَحْكَامِ الشَّخْصِيَّةِ الْبَتَّةَ. وَأَمَّا مَا كَانَ لَهُ تَعَالَى بِذَلِكَ فَيَكُونُ مِنْ قَبِيلِ مَنْسُوخِ التِّلَاوَةِ لَا الْحُكْمِ، وَمَعَ وُجُودِ النَّهْيِ عَنْ رَسْمِهِ وَالتَّعَبُّدِ بِذِكْرِهِ لَمْ يُذْهِلْ لَفْظُهُ مِنْ

عُمُومِ الأَفْكَارِ تَمَامًا، فَضْلًا عَنْ ذُهُولِ حُكْمِهِ، وَمِنْ ذَلِكَ آيَةُ رَجْمِ الْمُحْصَنِ إِذَا زَنَى.

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ بْنِ سَهْلٍ أَنَّ خَالَتَهُ قَالَتْ: لَقَدْ أَقْرَأَنَا رَسُولُ اللَّهِ «ص» آيَةَ الرَّجْمِ وَهِيَ الشَّيْخُ وَالشَّيْخَةُ فَارْجُمُوهُمَا الْبَتَّةَ بِمَا قَضَيَا مِنَ اللَّذَةِ. وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالرَّضَاعِ أَنَّهَا قَالَتْ: كَانَ فِيمَا نَزَلَ عَشْرُ رَضَعَاتٍ مَعْلُومَاتٍ، فَنُسِخْنَ بِخَمْسٍ مَعْلُومَاتٍ، ثُمَّ نُسِخَ اللَّفْظُ وَبَقِيَ الْحُكْمُ. وَلَعَلَّكَ تَقُولُ مَا الْحِكْمَةُ فِي نَسْخِ اللَّفْظِ مَعَ بَقَاءِ الْحُكْمِ، وَهَلَّا بَقِيَ اللَّفْظُ لِتَجْتَمِعَ فَائِدَةُ الْحُكْمِ وَثَوَابُ التِّلَاوَةِ، فَأَقُولُ: إِنَّ سُقُوطَ اللَّفْظِ مَعَ بَقَاءِ الْحُكْمِ أَخْذٌ مِنْ مَحَاسِنِ الشَّرِيعَةِ بِأَوْفَرِ نَصِيبٍ، وَبَيَانُ ذَلِكَ أَنَّ بَقَاءَ الْحُكْمِ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالرَّجْمِ فِيهِ رَدْعٌ لِلْمُولَعِينَ بِانْتِهَاكِ حُرْمَةِ الْفُرُوجِ مَهْمَا تَصَوَّرَ الْهَيْئَةَ الَّتِي تُقَامُ عَلَيْهِ، فَبَقَاؤُهُ أَبْلَغُ فِي التَّرْهِيبِ. وَأَمَّا حِكْمَةُ سُقُوطِهِ مِنَ التِّلَاوَةِ فَلِكَوْنِهِ أَفْضَحَ الْحُدُودِ وَأَثْقَلَهَا عَلَى النُّفُوسِ، فَحُذِفَ حَتَّى لَا يَشْتَهِرَ تَمَامَ الِاشْتِهَارِ

رَحْمَةً مِنْهُ تَعَالَى بِعِبَادِهِ، وَتَغْلِيبًا لِجَانِبِ السَّتْرِ. قَالَ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَتَى عَلَيْنَا عُمَرُ وَأَنَا مُسْتَقْرِئٌ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آيَةَ الرَّجْمِ، فَدَفَعَنِي فِي صَدْرِي، وَقَالَ: أَتَسْتَقْرِئُ آيَةَ الرَّجْمِ وَهُمْ يَتَسَافَدُونَ تَسَافُدَ الْحُمُرِ. وَفِي سُقُوطِ اللَّفْظِ وَالتِّلَاوَةِ مَا يُشْعِرُنَا أَيْضًا بِلُزُومِ التَّغَافُلِ عَنِ التَّسَارُعِ لِتَنْفِيذِهِ، مَهْمَا كَانَتْ مَنْدُوحَةٌ، حَسْبَمَا بَلَّغَنَا عَنْهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي قِصَّةِ مَاعِزِ بْنِ مَالِكٍ لَمَّا جَاءَهُ وَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي زَنَيْتُ فَطَهِّرْنِي، فَتَغَافَلَ عَنْهُ، ثُمَّ قَالَ: أَبِكَ جُنُونٌ؟ قَالَ: لَا، ثُمَّ أَخَذَ يَسْتَفْسِرُهُ، وَمِنْ جُمْلَةِ ذَلِكَ أَنْ قَالَ لَهُ: وَلَعَلَّكَ اسْتُكْرِهْتَ عَلَى ذَلِكَ، أَوْ رَأَيْتَهُ فِي مَنَامِكَ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ، حَتَّى أَرْسَلَ لِقَوْمِهِ: أَتَعْلَمُونَ بِعَقْلِهِ بَأْسًا، وَكَأَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يُرِيدُ أَنْ يَسْمَعَ مِنْهُ وَلَوْ أَدْنَى تَعْلِيلٍ، فَرُبَّمَا يَعْتَمِدُ فِي سُقُوطِ الْحَدِّ عَلَيْهِ، وَلَمَّا لَمْ تَكُنْ مَنْدُوحَةٌ عَنْهُ أَمَرَ بِرَجْمِهِ، وَهَكَذَا لَمَّا جَاءَتْهُ الْغَامِدِيَّةُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي قَدْ زَنَيْتُ فَطَهِّرْنِي، فَرَدَّدَهَا، فَقَالَتْ: تُرِيدُ أَنْ تَرُدَّنِي كَمَا رَدَدْتَ

مَاعِزاً، فَوَاللَّهِ إِنِّي لَحُبْلَى، فَقَالَ: اذْهَبِي حَتَّى تَلِدِينَ، فَلَمَّا وَلَدَتْ أَتَتْهُ بِالصَّبِيِّ، قَالَ، فَاذْهَبِي فَأَرْضِعِيهِ حَتَّى تَفْطِمِيهِ، فَلَمَّا فَطَمَتْهُ أَتَتْ بِهِ وَفِي يَدِهِ كِسْرَةٌ مِنْ خُبْزٍ، فَقَالَتْ: هَا هُوَ قَدْ فَطَمْتُهُ، وَأَكَلَ الطَّعَامَ، فَدَفَعَ الصَّبِيَّ إِلَى رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، ثُمَّ أَمَرَ بِرَجْمِهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وَأَرْضَاهَا، وَعَفَانَا مِمَّا ابْتَلَاهَا، وَهَذَا وَنَحْوُهُ مِمَّا يُشْعِرُنَا بِحِكْمَةِ حَذْفِ الرَّجْمِ وَبَقَاءِ الْحُكْمِ. وَأَمَّا حَذْفُ اللَّفْظِ مِنْ جِهَةِ مَا يَتَعَلَّقُ بِالرَّضَاعِ فَفِيهِ مِنْ لُطْفِ اللَّهِ أَيْضاً، وَتَغْلِيباً لِجَانِبِ السَّتْرِ عَلَى اشْتِهَارِ الْحُكْمِ بِالتِّلَاوَةِ لِعُمُومِ الْبَلْوَةِ بِهِ، فَلَا تَجِدُ نَاجِيًّا فِي الْغَالِبِ إِلَّا وَيُحَلِّلُهَا مِنْ نَسَبِ الرَّضَاعِ بِالنَّظَرِ لِمَا هُوَ كَالْخَمْسِ رَضَاعَةً عَلَى مَا جُبِلَتْ عَلَيْهِ النِّسَاءُ مِنْ عَدَمِ الْإِخْتِبَارِ فِي مِثْلِ ذَلِكَ، إِذْ لَا يَعْتَبِرُ الْعِلَّةَ إِلَّا الْخُصُوصُ فَيَكُونُ بَقَاءُ الْحُكْمِ مِنْ أَجْلِهِمْ وَحَذْفُهَا الرَّسْمَ، رَحْمَةً بِغَيْرِهِمْ، وَالْأَوْلَى أَنْ يُقَالَ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً، فِي وُجُوهِ الْحِكْمَةِ وَالتَّعْلِيلِ.

ثُمَّ إِنَّ مَا قَدَّمْنَاهُ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ هُوَ عَلَى قِرَاءَةِ ضَمِّ النُّونِ وَكَسْرِ السِّينِ وَإِسْقَاطِ الْهَمْزَةِ فِي نَفْسِهَا، وَأَمَّا عَلَى قِرَاءَةِ الْفَتْحِ وَإِثْبَاتِ الْهَمْزَةِ

فَتَكُونُ مَادَّةُ نُنْسِهَا مَأْخُوذَةً مِنَ النِّسْءِ، وَهُوَ التَّأْخِيرُ لُغَةً، عَلَى حَدِّ قَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: مَنْ سَرَّهُ النِّسْءُ فِي الْأَجَلِ - أَيِ التَّأْخِيرُ فِيهِ وَالزِّيَادَةُ فِي الرِّزْقِ - فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ.

وَعَلَى هَذَا فَلَا يَحْتَاجُ إِلَى تَقْدِيرٍ، حَسْبَمَا تَقَدَّمَ، فِي حَمْلِهِ عَلَى النِّسْيَانِ غَيْرَ أَنَّ النَّسْخَ حِينَئِذٍ يُحْمَلُ عَلَى الْمَرْفُوعِ حُكْمًا وَتِلَاوَةً، فَيَكُونُ مِنْ قَبِيلِ الْمَحْوِ، عَلَى حَدِّ قَوْلِهِمْ نَسَخَتِ الشَّمْسُ الظِّلَّ، وَالْمَنْسِيءُ عِبَارَةٌ عَنْ مَتْرُوكِ اللَّفْظِ، فَهُوَ مُؤَخَّرُ الْعَمَلِ بِهِ، غَيْرُ مَنْسُوخٍ فِي الْحَقِيقَةِ، وَمَا تُرِكَ اللَّفْظُ فِي الْمُصْحَفِ إِلَّا لِحِكْمَةٍ يَعْقِلُهَا الْعَالِمُونَ. ثُمَّ أَقُولُ إِنَّ الْفَهْمَ الْخَاصَّ لَا يَرَى لَفْظًا فِي كِتَابِ اللَّهِ مُعَطَّلًا بِالْمَعْنَى هُوَ لِمُجَرَّدِ التِّلَاوَةِ، حَسْبَمَا يَتَبَادَرُهُ الْفَهْمُ الْعَامُّ مِنْ مَنْسُوخِ الْحُكْمِ، بَلْ يَعْتَبِرُهُ مُحْكَمًا مِنْ وَجْهَةٍ، وَإِلَى ذَلِكَ الْإِشَارَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ»، أَيْ وَلَا آيَةَ إِلَّا وَهِيَ مُحْكَمَةٌ صَالِحَةٌ وَقْتًا مَا بِالنَّظَرِ لِتَغَيُّرَاتِ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ. وَمِنْ هُنَا نَكَرَ أَبُو مُسْلِمِ بْنُ بَحْرٍ وُقُوعَ الْمَنْسُوخِ فِي الْقُرْآنِ، وَكَانَ يَقُولُ: هُوَ نَاسِخٌ غَيْرُ مَنْسُوخٍ. وَلَا تَظُنَّ أَنَّ قَوْلَهُ هَذَا

كَانَ مُخَالِفًا بِهِ الجُمْهُورَ مِنْ جِهَةِ مَا يَتَعَلَّقُ بِطَرْوِ الحكم على ما قَبْلِهِ ، فَهُوَ أَبْعَدُ مِنْ أَنْ يُنْكِرَ مِثْلَ ذَلِكَ ، إِنَّمَا كَانَ يَرَى الأَحْكَامَ المُقَيَّدَةَ بِالعِلَلِ وَالأَزْمِنَاتِ هِيَ بَاقِيَةٌ مَهْمَا عَلِمْنَا وَجْهَ الحِكْمَةِ فِي تَأَخُّرِهَا ، وَمِنَ المَعْلُومِ أَنَّهَا مَا أُخِّرَتْ عَنِ العَمَلِ وَتُرِكَتْ فِي المُصْحَفِ إِلَّا لِحِكْمَةٍ أَوْ لِوَقْتٍ اسْتَقَرَّ اللَّهُ بِعِلْمِهِ . وَهَذَا فِيمَا لَا نَجِدُ لَهُ صَلَاحِيَةً لِلْعَمَلِ بِهِ الآنَ ، وَهُوَ أَقَلُّ القَلِيلِ ، وَلَا تَتَوَلَّعْ بِمَا أَدْخَلَهُ المُكْثِرُونَ فِي المَنْسُوخَاتِ ، ظَنًّا مِنْهُمْ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ سَعَةِ مَعْلُومَاتِهِمْ ، حَتَّى كَادُوا أَنْ يَحْكُمُوا عَلَى أَكْثَرِ كِتَابِ اللَّهِ بِالتَّعْطِيلِ . وَمِمَّا يُوجِبُ الأَسَفَ ، وَيُنْبِي عَنْ عَدَمِ انْتِبَاهِ المُكْثِرِ أَنْ أَدْخَلَ فِي المَنْسُوخَاتِ قَوْلَهُ تَعَالَى : « وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا » ظَنًّا أَنَّهَا مَنْسُوخَةٌ بِآيَةِ السَّيْفِ ، وَلَمْ يَنْتَبِهْ أَنَّهَا جَاءَتْ فِي مَعْرِضِ حِكَايَةِ فِيمَا أُخِذَ مِنَ المِيثَاقِ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَدْخَلَ فِي المَنْسُوخَاتِ قَوْلَهُ تَعَالَى : « فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ » ظَنًّا مِنْهُ أَنَّهَا مَنْسُوخَةٌ بِآيَةِ التَّوَجُّهِ إِلَى الكَعْبَةِ ، وَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ قَوْلَهُ فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ هُوَ خَبَرٌ مِنَ اللَّهِ ، يُنْبِئُ عَنِ اسْتِوَاءِ الجِهَةِ بِالنِّسْبَةِ لِوُجُودِهِ ، وَهَذَا

مِثْلُ ذَلِكَ يَحْتَمِلُ النَّسْخَ . وَمِنْهُمْ مَنْ أَدْخَلَ الْكَثِيرَ مِمَّا فِيهِ رَائِحَةُ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ وَالْأَخْبَارِ ، مِمَّا يَسْتَحِيلُ وُقُوعُ النَّسْخِ فِيهِ ، لِمَا يَلْزَمُ عَنْهُ مِنْ وُقُوعِ الْأَخْبَارِ ، عَلَى خِلَافِ مَا فِي نَفْسِ الْأَمْرِ ، وَالنَّظَرُ السَّدِيدُ لَا يَعْتَبِرُ مِنْ هَؤُلَاءِ مَا جَمَعُوهُ ، إِنَّمَا يُرَى الْمَنْسُوخُ هُوَ عِبَارَةٌ عَلَى حُكْمٍ مِنَ اللَّهِ تَقَرَّرَ الْعَمَلُ بِهِ فِي زَمَنٍ لِحُكْمٍ أَوْلَى مِنْهُ فِيهِ ، وَمَهْمَا اسْتَدَارَ ذَلِكَ الزَّمَانُ كَهَيْئَتِهِ يَكُونُ هُوَ أَوْلَى بِهِ مِنْ غَيْرِهِ . أَلَا تَرَى فِي زَمَنِنَا بِاعْتِبَارِ ضَعْفِنَا مَا هُوَ أَوْلَى بِهِ ، أَآيَةُ السَّيْفِ أَمْ آيَةُ الصَّبْرِ وَالتَّحَمُّلِ ، حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ . وَمِنْ هُنَا نَعْلَمُ أَنَّهَا مَا تُرِكَتْ فِي التَّنْزِيلِ إِلَّا لِمَنْ هُوَ عَلَى شَاكِلَتِنَا ، وَهَكَذَا لَوْ تَأَمَّلْتَ كِتَابَ اللَّهِ.

وَالَّذِي يُشْعِرُكَ بِذَلِكَ سِيرَةُ الدَّاعِينَ إِلَى اللَّهِ ، فَإِنَّهُمْ يَسْتَعْمِلُونَ كُلَّ آيَةٍ فِيمَا نَزَلَتْ مِنْ أَجْلِهِ ، حَتَّى لَوْ أَرَادَتْ قَبِيلَةٌ الدُّخُولَ فِي الْإِسْلَامِ ، وَلَمْ يَمْنَعْهَا إِلَّا الصَّوْمُ رَمَضَانَ ، فَيَقُولُ لَهُمُ الدَّاعِي إِلَى اللَّهِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى « وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ » وَهَكَذَا لَوِ اسْتَصْعَبُوا تَرْكَ الْخَمْرِ مَثَلًا يُقَالُ لَهُمْ : « وَلَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى » ، وَقِسْ عَلَى ذَلِكَ

فَإِنَّهُمْ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - عَلَى قَدَمِ النُّبُوءَةِ مِنْ جِهَةِ قِيَامِهِمْ بِدَعْوَةِ الْخَلْقِ حَسْبَمَا تَقْتَضِيهِ الْعَوَارِضُ الشَّخْصِيَّةُ وَالظُّرُوفُ الزَّمَانِيَّةُ. وَقَدْ بَلَغَنَا عَنْ بَعْضِ الدَّاعِينَ إِلَى اللَّهِ أَنَّهُ دَخَلَ قَرْيَةً فَوَجَدَ أَهْلَهَا لَا خَبَرَ لَهُمْ بِمَفْرُوضَاتِ الصَّلَاةِ، فَأَمَرَهُمْ بِهَا، فَاسْتَصْعَبُوا شُرُوطَهَا، فَأَمَرَهُمْ بِرَكْعَتَيْنِ بِغَيْرِ وُضُوءٍ، ثُمَّ أَخَذَ فِي تَرْقِيَتِهِمْ، إِلَى أَنْ أَخَذُوا بِالْغَايَةِ مِنْهَا. فَرِضْوَانُ اللَّهِ عَنْ سَادَتِنَا، مَا أَشْفَقَهُمْ عَلَى الْعِبَادِ، وَمَا أَحْرَصَهُمْ عَلَى الْهِدَايَةِ وَالرَّشَادِ.

لِسَانُ الرُّوحِ

يُعْتَبَرُ الْمَنْسُوخُ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ عَيْنُ النَّاسِخِ مِنْهُ، بِالنَّظَرِ لِلْمَعْنَى الْقَائِمِ بِالذَّاتِ الْمُتَّحِدِ وُجُودُهُ فِيهِمَا، فَالْمَنْسُوخُ قَبْلَ نَسْخِهِ كَانَ نَاسِخًا لِمَا قَبْلَهُ، فَالْمَجَازُ نَاسِخٌ لِلْعَدَمِ، وَالْحَقِيقَةُ نَاسِخَةٌ لِلْمَجَازِ، وَعَلَيْهِ فَهِيَ الظَّاهِرُ فِيهِمَا، أَيْ فِي الْفَاعِلِ بِصَلَاحِيَّتِهِ لِلْفَاعِلِيَّةِ، وَفِي الْمَفْعُولِ بِصَلَاحِيَّتِهِ لِلْمَفْعُولِيَّةِ.

التَّفْسِيرُ: وَبِمُنَاسَبَةِ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ جِبِلَّتُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ

مِنْ جِهَةِ تَمَسُّكِهِ بِالتَّنْزِيلِ ، فَكَانَ مَا مِنْ آيَةٍ نُزِلَتْ إِلَّا وَتَمَكَّنَتْ مِنْ بَاطِنِهِ، وَأَخَذَتْ بِمَجَامِعِهِ ، فَهُوَ بِالطَّبْعِ يَأْلَفُهَا ، وَيُشْفِقُ مِنْ نَسْخِهَا كُلَّ الْإِشْفَاقِ حِشْيَةَ أَنْ لَا يُعَوِّضَهُ تَعَالَى بِمِثْلِهَا مِنْ جِهَةِ مَا يَرَاهُ لَهَا مِنَ التَّأْثِيرِ فِي الْقُلُوبِ ، فَجَاءَتْ آيَةُ النَّسْخِ تَشْجِيعًا مِنَ اللَّهِ لَهُ عَلَى أَنْ يَتَلَقَّى النَّاسِخَ بِأَبْلَغِ مَا تَلَقَّى بِهِ الْمَنْسُوخَ ، وَرُبَّمَا يُوجَدُ فِيهِ مِنَ الْخَيْرِيَّاتِ مَا لَا يُوجَدُ فِي صِنْوِهِ ، حَسَبَمَا يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : « مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ » أَيْ نَأْتِكَ يَا مُحَمَّدُ « بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا » . وَلَمَّا كَانَ الْوَهْمُ رُبَّمَا يَسْتَبْعِدُ وُقُوعَ الْخَيْرِيَّةِ بِاعْتِبَارِ امْتِزَاجِ الْآيَةِ السَّابِقَةِ بِذَوْقِهِ وَارْتِشَافِهَا فِي لُبِّهِ أَتَاهُ تَعَالَى بِمَا فِيهِ تَقْرِيرٌ ، وَاسْتَلْفَتَهُ لِمَا سَبَقَ فِي عِلْمِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنِ اسْتِطْلَاعِهِ عَلَى قُدْرَةِ الْقَادِرِ ، فَقَالَ : « أَلَمْ تَعْلَمْ » يَا مُحَمَّدُ « أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » . فَكَأَنَّهُ يَقُولُ أَلَيْسَ فِي عِلْمِكَ أَنَّ الْقُدْرَةَ الذَّاتِيَّةَ هِيَ الَّتِي أَوْجَبَتِ الِانْفِعَالَ فِي الْقُلُوبِ ، حَتَّى تَأَثَّرَتْ بِالْآيِ الْقُرْآنِيَّةِ ، وَلَمْ يَزَلْ رَبُّكَ مَوْصُوفًا بِالْقُدْرَةِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، فَالَّذِي أَتَاكَ بِالْخَيْرِ هُوَ

قادِرٌ عَلَى أَنْ يَأْتِيَكَ بِخَيْرٍ مِنْهُ «أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» زِيَادَةً فِي تَوْسِيعِ النَّظَرِ، لِيَنْطَرِحَ الْمُخَاطَبُ أَمَامَ تَصَرُّفَاتِهِ تَعَالَى انْطِرَاحَ الْمَيِّتِ بَيْنَ يَدَيِ الْقَاتِلِ، بِمُوجِبِ مَا يَعْتَبِرُهُ مِنْ خَلْقَةِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ انْدِرَاجُ الْكُلِّ تَحْتَ حُكْمِهِ وَكَفَالَتِهِ، فَيَعْلَمُ يَقِينًا أَنَّ اخْتِيَارَهُ أَوْلَى مِنِ اخْتِيَارِ غَيْرِهِ، وَلَوْ لِنَفْسِهِ، كَائِنًا مَنْ كَانَ، فَيَتَلَقَّى النَّاسِخَ بِمَا تَلَقَّى بِهِ الْمَنْسُوخَ أَوَّلَ مَرَّةٍ. وَبِمُنَاسَبَةِ مُشَارَكَةِ الصَّحَابَةِ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ جِهَةِ تَأَثُّرِهِمْ بِوُقُوعِ النَّسْخِ خَشْيَةَ قَدْحِ الْمُعَارِضِ فِي الْقُرْآنِ. وَكَانَ ذَلِكَ أَشَدَّ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّيْفِ شَارَكَهُمْ تَعَالَى فِي الْخِطَابِ احْتِرَامًا لِجَانِبِهِمْ، فَقَالَ: «وَمَا لَكُمْ يَا مَعَاشِرَ الْمُؤْمِنِينَ «مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ»، فَكَأَنَّهُ يَقُولُ لَهُمْ كُونُوا عَلَى حَذَرٍ مِنْ أَمْرِ الْخَلْقِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ صَدِيقٌ وَلَا وَلِيٌّ حَمِيمٌ، كَمَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ فَلَا تَرْكَنُوا لِمَدْحِهِمْ، كَمَا لَا تَتَأَثَّرُوا مِنْ قَدْحِهِمْ، فَاللَّهُ وَلِيُّكُمْ وَمُتَوَلِّيكُمْ لَا غَيْرُهُ. ثُمَّ إِنَّ الْوَلِيَّ لُغَةً هُوَ عِبَارَةٌ عَنِ الْقَرِيبِ الْمُلَاطِفِ. وَمَهْمَا تَحَقَّقَتْ

وِلَايَتُهُ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ فَقَدْ تَحَقَّقَتْ لَهُمُ السَّعَادَةُ الْأَبَدِيَّةُ. غَيْرَ أَنَّ الْوِلَايَةَ لَا تَسْتَلْزِمُ صِفَةَ النَّاصِرِيَّةِ فَالْمَعْنَى لَا يَلْزَمُ مِنَ الْوَلِيِّ نُصْرَةُ الْمَوْلَى، فَقَدْ لَا تَسْتَكْمِلُ فِي غَيْرِ اللَّهِ لِعَجْزِهِ عَنْهَا مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ، وَالْمَعْنَى أَنَّ النَّصْرَ قَدْ يَتَخَلَّفُ عَنِ الْوِلَايَةِ بِاعْتِبَارِ النَّظَرِ الْمُتَعَلِّقِ بِالظَّوَاهِرِ، وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَتَلَ رِبِّيُّونَ كَثِيرًا، وَكَوْنُهُ تَعَالَى وَلِيَّهُمْ هِيَ نِعْمَةٌ تَخُصُّهُمْ فِيمَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ اللَّهِ، وَكَوْنُهُ نَاصِرَهُمْ نِعْمَةٌ تَخُصُّهُمْ فِيمَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْخَلْقِ فَاسْتَجْمَعَتِ النِّعْمَتَانِ لَدَيْهِمْ، وِلَايَةُ الْبَاطِنِ وَنُصْرَةُ الظَّوَاهِرِ. وَلَمَّا كَانَتْ كَثْرَةُ النِّعَمِ قَدْ تُفْضِي بِمَنْ لَمْ يَتَثَبَّتْ إِلَى حُلُولِ النِّقَمِ، حَذَّرَ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَمْرٍ ذِي أَهَمِّيَّةٍ، مُمْكِنِ الْوُقُوعِ، قَدْ يَتَسَاهَلُ فِيهِ الْإِنْسَانُ غَالِبًا، وَمِنْ ذَلِكَ مَا يُلْقَى عَلَى الْأَنْبِيَاءِ مِنْ كَثْرَةِ الْمَسَائِلِ وَتَكَلُّفِهِمْ بِمَا هُوَ كَخَرْقِ الْعَوَائِدِ، وَرُبَّمَا كَانَ مِثْلُ ذَلِكَ يَخْلُجُ فِي أَفْكَارِ بَعْضِ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا مَرَّ عَلَى أَسْمَاعِهِمْ.